المكتبة المالكية

أزهار الرياض
في أخبار عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني

(ت: ١٠٤١هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور علي عمر

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٢٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

أزهار الرياض فى أخبار عياض

وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة المنيا والإمام بالرياض

ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الثانى

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010

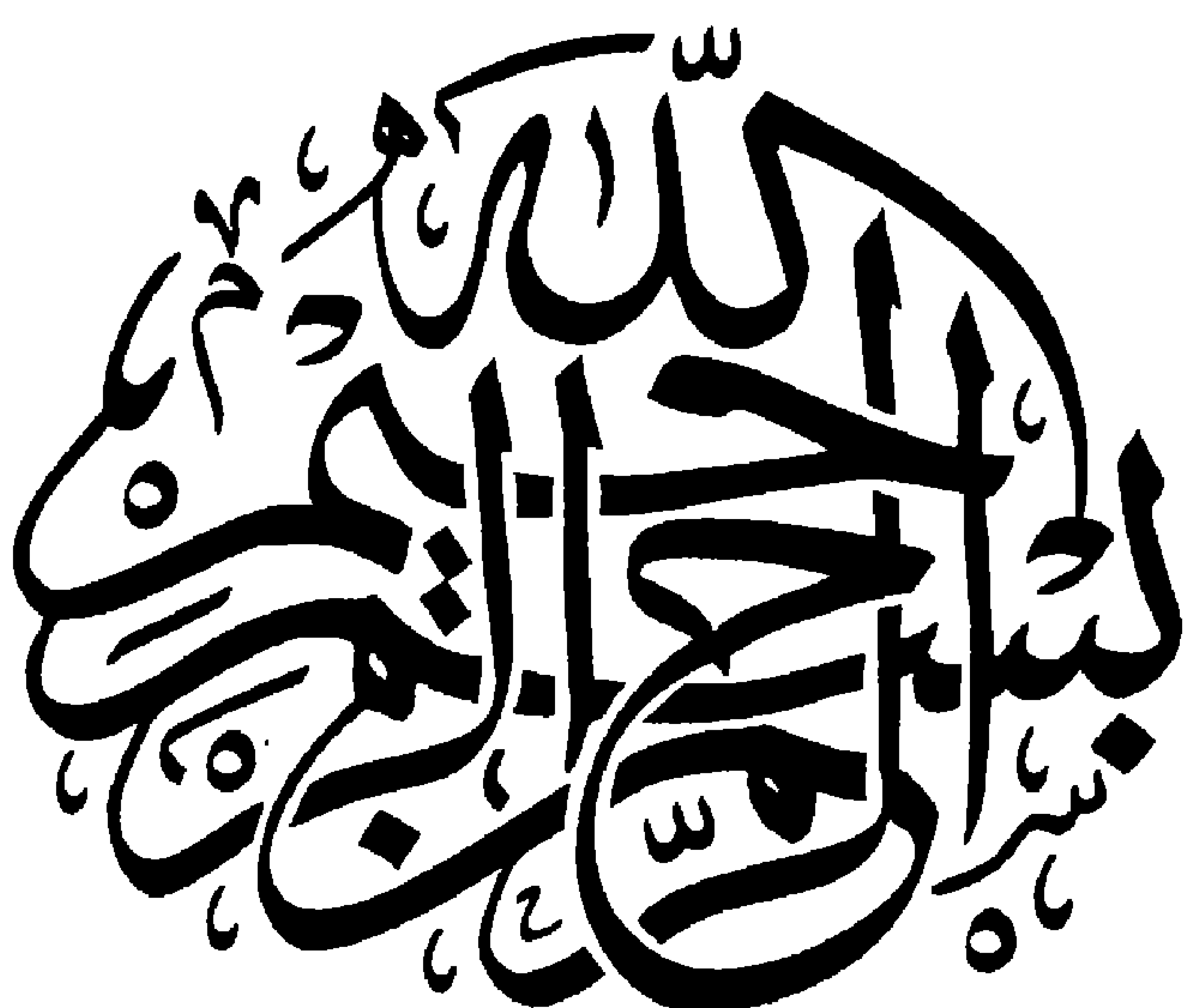
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المقرى،احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض فى اخبار عياض
تاليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقترى التلمسانى ، تحقيق: على عمر
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
2مج ، سم
تدمك : 978-977-341-496-2
1- المحدثون المغاربة
2-القاضى عياض ، عياض بن موسى بن عياض
ا- عمر،على (محقق)
ب- العنوان

ديوى:922.13

رقم الايداع: 16752


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

القاضى النباهى

أما القاضى النباهى فـهو على بن عبد الله بن محمـد بن محمد[1] بن عبد الله بن الحسن الجذامى المالقى النباهى، أبو الحسن الشهـير بابن الحسن، قاضى الجـماعة بـغرناطة، الإمام العـالم العلامة، كـان رحمـه الله من أكابر المشهـورين بها، ممن لـه الفصاحـة والبلاغـة والجلالة، إلى الاتصـاف بالعلم والمعرفة، والتفنن فى العلوم معقولها ومنقولها.

ذكره ابن الخطيب فى الإحـاطة وأثنى عليه، وذكـر أن ولادته عام ثلاثة عشر وسـبع مئة، على مـا ذكره بعضهم، وتأخـرت وفاته عن ابن الخطيب، بحيث إنه كان حيًا عام اثنين وتسعين وسبع مئة.

وقال ابن الخطيب فى ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصه[2]:

ثم قدم للقضـاء الفقيه الحسيب أبا الحسن، وهو عين الأعـيان بمالقة، المخصـوص برسم التجلة، والقـيام بالعـقد والحل، فـسدد وقـارب، وحمل الكل، وأحسن مـصاحبة الخطبـة والخطة، وأكرم المشيـخة، مع النزاهة، ولم يقف فى حسن التأتى على غاية؛ فـاتفق على رجاحته، ولم يقف فى النصح عند غاية؛ أعانه الله. انتهى ملخصا[3].

---

(١) فى سائر الأصول: «على بن محمـد بن عبد الله» والمثبت رواية ابن الخطيب فى الإحاطة ج٤ ص ٨٨، والمقرى فى نفح الطيب ج٦ ص ١١٩.

(٢) انظر فى ذلك: نفح الطيب ج٥ ص ١٢١.

(٣) نفح الطيب ج٥ ص ١٢١.

وكم بين ما قال فيه هنا وبين ما فى «الكتيبة الكامنة» من تلقيبه بجعسوس، ووصمه بما لا يليق سماعه. وعلى كل حال فقد انتصف كل واحد منهما من صاحبه بلسانه، وعفو الله وراء الجميع(١).

وقال فى حقه الشيخ أبو زكرياء يحيى السراج فى فهرسته:

الشيخ الفقيه الراوية، قاضى الجماعة بالأندلس وخطيبها، أبو الحسن؛ أخذ عن أبى محمد عبد الله بن أحمد التجيبى الموطأ والشفاء وأكثر الصحيحين؛ وعن الخطيب أبى جعفر الطنجالى، والقاضى العارف أبى القاسم بن سعيد الحميدى، والوزير أبى بكر بن الحكيم، والقاضى أبى جعفر أحمد بن عبدالحق، والحاج الراوية أبى القاسم بن المهنى(٢)؛ وقرأ على الفقيه الحاج أبى القاسم بن أحمد بن محمد بن عمران الحضرمى بعض مختصر ابن الحاجب، والتسهيل البديع فى اختصار التفريع؛ والحاج أبى عبد الله محمد ابن على السكونى، والخطيب أبى عبد الله الساحلى، والقاضى أبى الحجاج المنتشاقرى. قدم رسولاً لفاس عام سبعة وستين، ثم عام ثمانية وثمانين. انتهى.

قلت: تقدم من كلام ابن خلدون أنه جاء رسولا فى شأن ابن الخطيب، وذلك خلاف هذين التارخين معًا، فتأمله.

وله رحمه الله بحث فى مسألة الدعاء بعد الصلاة، رام فيه الرد على الشيخ الإمام أبى إسحاق الشاطبى، حسبما نقله صاحب المعيار. ومن تآليفه رحمه الله: «كتاب المرقبة العُليا، فى مسائل القضا والفتيا» فى جزأين، وهو

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ١٢١، والكتيبة الكامنة ص ١٤٦.

(٢) انظر فى ابن المهنى: نفح الطيب ج٥ ص ٦٠٤.

كتاب ممتع إلى الغاية، وقفت على الجـزء الأول منه، وقد ذكر فى أثنائه أخبار سلفه رحـمه الله، ولم أقف من أمره على غـير ما ذكـرته فى هذا الموضوع.

وقد قدمنا أنه كان مع السلطان أبى عـبدالله بن الأحمر المخلوع حين رجع إلى طلب ملكه من المغرب؛ ورأيت لبـعض المتأخرين وصفـه بالقاضى الأجل ذى الوزارتين. والله أعلم.

ابن زمرك

وأما ابن زمرك فهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحى، أبو عـبد الله، ويعرف بابن زَمْرك. هكذا ذكر غـير واحد من المحققين، وسيأتى فى كلام ابن الأحمر حـذف «محمد» فيما بين «أحمد» و«يوسف»، ولعله من باب النسبة إلى الجد، والله أعلم.

قال ابن الخطيب فى الإحاطة[1]: ولد هذا الفاضل بغرناطة، ونشأ بها، وهو من مفـاخرها، وكان صدراً من صـدور طلبة الأندلس، وأفراد نجبـائها، مختصا مقبولاً، هشـا خلوبا، عذب الفكاهة، حلو المجالسة، حسن التوقيع، خـفيف الروح، عظيم الانطبـاع، شره المـذاكرة، فطنًا بالمعـاريض، حاضـر الجواب، شعلة من شعل الذكاء، تكاد تحتدم جوانبه، كثير الرقة، فكهًا غزلا، مع حياء وحشمة، جواداً بما فى يده، مشاركًا لإخوانه؛ نشأ عفا طاهرا، كلفًا بالقراءة، عظيم الدؤب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر النبل، بعيد مدى الإدراك، جيد الفهم؛ اشتهر فضله، وذاع أرجه، وفشا خبره، واضطلع بكثير من الأغراض، وشـارك فى جملة من الفنون، فـأصبح متلقف كـرة البحث،

(١) الإحاطة ج٢ ص ٣٠٠.

وصارخ الحلقة، وسابق الحلبة، ومظنة الكمال؛ ثم ترق فى درج المعرفة والاطلاع، وخاض لجة الحفظ، وركض قلم التسويد والتقييد والتعليق، ونصب نفسه للناس متكلمًا فوق الكرسى [المنصوب](١)، وبين الحفل المجموع، مستظهراً بالفنون التى بعد فيها شأوه، من عربية وبيان، وما تقذف به لجة النقل من أخبار وتفسير، متشوفا مع ذلك إلى السلوك مصاحبًا للصوفية، آخذًا نفسه بارتياض ومجاهدة؛ ثم عانى الأدب، فكان أملك به. ورحل فى طلب العلم والازدياد، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبى سالم بن أبى الحسن، وعرف فى بابه بالإجادة، ثم رجع مع السلطان ابن الأحمر فى طلب ملكه، فلطف محله منه، وخصه بكتابة سره، [وثابت الحال، ودالت الدولة، وكانت له الطائلة، فأقره على رسمه](٢)، معروف الانقطاع والصاغية، كثير الدالة، مضطلعًا بالخطة: خطا، وإنشاء، ولسنًا، ونقداً؛ فحسن منابه، واشتهر فضله، وظهرت مشاركته، وحسنت وساطته، ووسع الناس تخلقه، وامتد فى ميدان النظم والنثر باعه، فصدر عنه من المنظوم قصائد بعيدة الشأو فى مدى الإجادة، من الأغراض المتعددة، من ميلاديات وغيرها، وهو بحاله الموصوفة إلى الآن، أعانه الله وسدده.

وأخذ العربية(٣) عن رحلة الوقت فى فنها، أبى عبد الله بن الفخار؛ ثم على إمامها القاضى الشريف، إمام الفنون اللسانية، أبى القاسم محمد بن أحمد الحسنى؛ والفقه والعربية على الاستاذ المفتى أبى سعيد بن لب؛

---

(١) تكملة عن الإحاطة ٢/٣٠٢، والنفح ١٤٦/٧.

(٢) ما بين الحاصرتين من الإحاطة ج٢ ص ٣٠٢.

(٣) الإحاطة ج٢ ص ٣٠٢.

واختص بالفقيه المحدث الصدر أبى عبد الله بن مرزوق، روى عنه كثيراً؛ ولقى الحافظ القاضى أبا عبد الله المقرى لما قدم الأندلس رسولا، وذاكره؛ وقرأ الأصول على أبى على منصور الزواوى؛ وروى عن القاضى أبى البركات ابن الحاج، والمحدث أبى الحسين بن التلمسانى، والخطيب ابن اللوشى، والمقرئ أبى عبد الله بن بيبش؛ وقرأ بعض الفنون العقلية بفاس على الشريف الرحلة أبى عبد الله العلوى التلمسانى، واختص به اختصاصًا لم يخل فيه من استفادة، وحنكة فى الصناعة.

وأما شعره فمترامٍ[1] إلى نمط الإجادة خفاجى النزعة، كلف بالمعانى البديعة، والألفاظ الصقيلة، غزير المادة.

مولده فى رابع عشر شوال عام ثلاثة وثلاثين وسبع مئة.

انتهى كلام ابن الخطيب.

وأورد له ابن الخطيب فيما يرجع إلى الفخر قوله - قال ابن الخطيب[2]: ولقد صدق -:

ولائمتى فى الجود والجود شيمتى   جبلت على إيثارها يوم مولدى
ذرينى فلو أنى أُخلد بالغنى   لكنت ضنينًا بالذى ملكت يدى

وأورد له أيضًا قوله[3]:

لقد علم الله أنى امرؤ   أجرر ثوب العفاف القشيب

---

(١) الإحاطة ج٢ ص ٣٠٣.

(٢) الإحاطة ج٢ ص ٣٠٩.

(٣) الإحاطة ج٢ ص ٣٠٩.

فكم غمض الدهر أجفانه وفازت قداحى بوصل الحبيب
وقيل رقيبك فى غفلة فقلت أخاف الإله الرقيب

وله أيضًا رحمه الله[1]:

ما لى بحمل الهوى يدان من بعد ما أعوز التدانى
أصبحتُ أشكو من زمانٍ ما بتُّ منه على أمانِ
ما بال عينيك تسجمان والدمعُ يرفضّ كالجُمان
ما ذاك والإلف عنك وانٍ والبعدُ من بعده كَوانى؟
يا شِقوة من هوانٍ لججتُ فى أبحُر الهوان
لم يَثنِنِى عن هواك ثانٍ يا بُغيةَ القلب قد كفانى

انتهى.

ثم أظلم الجو بينه وبين ابن الخطيب، وتولى مكانه بعد فراره كما قدمناه؛ وحظى عند ابن الأحمر جدا، وبقى على ذلك مدة.

قلت: وقد رأيت بتلمسان كتابًا ملوكيًا من تأليف بعض سلاطينها بنى الأحمر، وهو حفيد ابن الأحمد المخلوع، سلطان الأندلس، الذى كتب له ابن زمرك المذكور بعد ابن الخطيب، أورد فيه كلام ابن زمرك، وسماه: «البقية والمدرك، من شعر ابن زمرك»، وهو سفر ضخم، ليس فيه إلا نظمه فقط؛ وذكر فيه أن ابن زمرك مات قتيلاً بعد التسعين وسبع مئة، فكان ذلك الواقع له مساويًا لما وقع لابن الخطيب شيخه، حسبما قدمناه.

---

(١) الإحاطة ج٢ ص ٣١٠.

ونص ما قيدت من ذلك الكتاب من أوله:

«أما بعد[١] ما يجب من حمد الله تعالى فى كل حال، وشكره على ما أولى ويسر من صلاح الأحوال؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء، وسيد الأرسال، والرضا عمن له من صحب وأنصار وآل؛ فإن من المعلوم أن الأدب له بالنفس علاقة تؤديه إلى الاستحسان، وتؤثر من اشتهر به بالملاحظة بلحظ الحظ مع تعاقب الأحيان؛ ولا خفاء أن أيام مولانا الجد المقدس، الغنى بالله، تولاه الله برضوانه، كانت غرراً فى وجوه الأيام، ومواسم تجمع الطم والرم من الرؤساء الأعلام؛ الآخذين بأعنة الكلام، السابقين فى حلبة النثار والنظام؛ وأن الفقيه الرئيس المدرك، الناظم الناثر أبا عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك؛ عفا الله عنه - وحسبك بمن ارتضاه مولانا [الجد][٢] رحمه الله لكتابته، وصرفه فى الوجوه المتعددة من رسالته وحجابته؛ فكان بذلك خليقًا، لما جمع فيه من أدوات الكمال علمًا وتحقيقا؛ وإدراكًا ونُبلا، وفقها وأوصولاً، وفروعًا وأدبًا وتحصلا، وبيانًا وتفسيراً ونظما وترسيلا - لما كان قد أخفت الأيام سنى صبحه، وخابت وسائل نصحه، وعادت بعدوانها بعد فوز قدحه؛ وعثر بين أقدام أقوام لا يعرفون أى ذخر فقدوا، ولا أى مطلق من تصرفاته الجميلة قيدوا؛ مستبصرين بالجهل فى دياجى غيهم، معجبين بما ارتكبوه من جياد بغيهم؛ جميعهم يلحظه بمقل دامية، وألفاظ حامية؛ يصابحونه بأوجه خلت عن الوجاهة، سيماها الحسد، وضميرها السخط بما قدره الواحد الصمد.

---

(١) أورده المقّرى فى نفح الطيب ج٧ ص ١٦٢.

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٣.

[فــخــرّ على الألاءة لم يُوَسَّــد كـأن جَـبِـينَه سـيفٌ صَـقــيلُ

فـيا لله من أشـلاء هنالك ضـائعة، وأعـلاق غيـر مـصونة، ووسـائل مخفـورة؛ وأذمة قطعت أرحامهـا، ولم يرع ذمامها؛ وعـاثت الأيدى الفاتكة حينئذ على بنيه، وارتكبوها شنعاءَ فى أهله وذويه][1].

هل كـان إلا حيـا تحيـا العبـادُ به هل كان إلا قذى فى عين ذى عَوَرِ[2]
إن قال قـولا ترَ الأبصـارَ خاشـعةً لِمَـا يُخـبِّـر من وَحـيٍ ومن أثَر
يا لَهف نفسيَ لو قـد كنتُ حاضرَه غـداةَ جُـرِّعـه أدهى مِنَ الصَّـبـر
لَمـا تركتُ له شِلوا بِمَـضـيـعـةٍ ولا تولّى صـريعَ الـناب والظُّفُـر
وكـان مـا كـان ممـا لست أذكـره فظُنّ خـيـرًا ولا تسـأل عن الخَـبـر

وإن سأل سائل عن الخبـر الذى ألمعنا بذكره، وضمنا هذا البيت ذَرْوًا[3] من فظيع أمـره؛ فـذلك عند مـا نسب صـاحب الأمـر إليـه مـا راب، وتله [وابنيه][4] للجبين مـعفرين بالتراب؛ وصدمـه فى جنح الليل والمصحف بين يديه، يتـوسل بآياته، ويتشـفع بعظيم بركاتـه، فأخذته الـسيوف، وتعـاورته الحتوف؛ وأذهبه سليبًا قتيلا، مُصَيِّرا مصراع منزله كثيبًا مهيلا، وكنا على بُعد من هذه الآزفـة التى أورثت القلـوب شجنًـا طويلا؛ وذكـرتنا بعناية مـولانا [الجد][5] الغنى بالله بجانبه أعظم ذكرى، فأغرينا برثائه خلدا وفكرا؛ وارتجلنا

(١) التكملة من نفح الطيب ج٦ ص ١٦٣.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ١٦٤.
(٣) ذَرْوًا: طَرَفًا.
(٤) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٤.
(٥) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٤.

عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارة مقنعة، وكناية فى السلوان مطمعة؛ وأرضينا بالشفقة أوِ دَّاءَه، وأرغمنا بتأبينه أعداءه. ولما تبلج الصبح لذى عينين، وتلقينا راية الفرج بالراحتين؛ عطفتنا على أبنائه عواطف الشفقه، وأطلقنا لهم ما عاثت الأيدى عليه صلةً لرحم طالما أضاعها من جهل الأذمة، وأخفر عهود تخدمه لمن سلف من الأئمة؛ وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا، وجعلنا ضم ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكيد أعمالنا؛ وكان تعلق بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه، مشتملة على ما راق وحسن من نثاره ونظامه؛ فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادنا من رقاعه، الحائلة المنتهبة بأيدى النوائب، الدائرة المستلبة بتعدى النواهب؛ فخلص من الجملة قلائد عقيان، وعقود در ومرجان؛ ترتاح النفوس النفيسة لإنشادها، وتحسد الأبصار الأسماع عند إيرادها؛ إلى ما يتخللها من تخليد مآثر سلفنا، والإشادة بعظيم ملكنا؛ فشرعنا فى تقييد أوابدها الشاردة، وإحياء رسومها البائدة؛ كلفا بالأدب؛ لوضوح فضله، وتأدية لما يجب من رعاية أهله.

ولنبدأ بالتعريف(١) بحال هذا الرئيس المنبه عليه، ونظهر ما كنا نضمره من الميل إليه، فى كل ما له أو عليه، فنقول:

هو الفقيه الكاتب، الفذ الأوحد، أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريحى، ويعرف بابن زمرك؛ أصله من شرق الأندلس، وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة، وبها ولد؛ فنشأ ضئيلاً كالشهاب يتوقد، مختصر الجرم والأعين بإطالة فواضله تشهد، ومكتب الفئة القرآنية يؤثره بالجناب الممهد، فاشتغل أول نشأته بطلب العلم، والدءوب على

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٦٥.

القــراءة، وأخــذ نفــسه بملازمــة حلقــات التــدريس، ولم يبلغ حــد وجــوب المفترضات إلا وهو متحــمل الرواية، وملتمس لفائد الدراية، مصابح كل يوم أعلام العلوم، ومــستــهدٍ بمصابيح الحــدود العلمية والــرسوم. فافــتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبى عبد الله ابن الفخار، الآية الكبرى فى فن العربية، وتردد الأعوام الــعديدة إلى قــاضى الجماعــة أبى القاســم الشريف؛ فــأحسن الإصغــاء، وبذ النحــاة البلغاء، بما أوجب رثاءه عند الوقــوف على ضريــحه بالقصيدة الفريدة، التى أولها:

«أغرى سراة الحى بالإطراق»

حــسبما تأتى مــستوفــاة إن شاء الله تعالى. واهتــدى إلى طريق الخطبة ومناهج الصــوفيــة، بالخطيب المعظم أبى عــبــد الله بن مرزوق، الوافــد على مولانا الجــد أبى الحجاج رضى الله عنه فى عــام ثلاثة وخمسين وســبع مائة، وإليه جنح، وإياه قصد، عند تغربه إلى المغرب، فى دولة السلطان أبى سالم، فَتَوَّجَهُ بالعمامة التى ارتجل بين يديه فيها:

تــوجــتنى بعــمــامــهْ   تــوجــت تاج الــكــرامــهْ
فــروض حــمــدك يــزهى   منى بســجع الحــمــامــهْ

وأخذ علم الأصلــين عن الحافظ الناقد أبى المنــصور الزواوى، وبرع فى الأدب، أثناء الانقطــاع وأول الطلب لأبى عــبــد الله بن الخطــيب، ولكن لم يحــمد بينــهمــا المآل. واقتــدى فى العلوم العــقلية بالشــريف أبى عبــد الله التلمسانى، قــدوة الزمان؛ وحصلت له الإجازة والتحديث بقــاضى الجماعة، وشــيخ الجــملة، أبــى البكرات بن الحــاج، وبالخطيب البــليغ أبى عــبــد الله اللوشى، وبالخطيب الورع أبى عــبد الله بن بيــبش العبــدرى، رضى الله عن

جميعـهم. وبواجب محافظتنا على عهدهم، إذ نحن واردون بالإجـازة التامة عذب وردهم، وصل سـببنا بهم الكثيـر من شيوخنا، مـثل الإمام المعظم أبى محمّد عبد الله بن جزى، ومعلمنا الثـقة المجتهد أبى الله الشريشى، والقاضى الإمام أبى عـبد الله محـمّد بن على بن علاق، وغـيرهم رحمـة الله عليهم. لذلك صار صدراً فى نوادى طلبة الأندلس، وأفراد نجبائها؛ فما شاءه المحاضر يجده فى خضله[1]، ويتلقاه من باهر فضـله؛ فكاهة ومجالسة أنيقـة ممتعة، ومحـادثة أريضة مـزهرة، وجوابًا مطـبقا للـمفصل، وذهـنا سابقـا لإيضاح المشكل؛ مع انقياد الطبع، وإرسال الدمعـة، فى سبيل الخشوع والرقة، ورشح الجبين عند تلقى الموعظة، وصـون الوجه بجلباب الحياء، ومـقابلة الناظر إليه بالاحتشام، والمبادرة للاسـتدعاء، على طهارة، وبذل وسع، وكرم نفس، لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه، ولا أمـتع منه بجاهه، إلى مبالغة فى الهشة والمبـرة والإيثار بما منـح، وجنوح إلى حب الصالحـين، ذلك بالانضـواء إلى شيخ الفـرق الصوفية، الولى أبى جـعفر بن الزيات، وأخيـه الفاضل الناسك شيـخنا أبى مهدى، قـدس الله مغناه، وسواهمـا من أهل الأندلس والعدوة، وحَمْله أشد الحمل على كل مُلَبِّس[2] كأبى زكرياء البرغوطى وسواه.

ومن تنديراته[3] - زعموا - على أبى الحسن المحروق لميله عنه:

ولد الفقر والرباط ولكن   نفسه للسلوك ذات افتقار

وخطب الأدب يافعا وكهلا، وحاز علمه إدراكًا ونبلاً.

---

(١) الخضل: اللؤلؤ.

(٢) ملبس: مخلط. وفى الأصل: متلبس.

(٣) فى الأصل: «تنديداته» والمثبت رواية المقرى فى نفح الطيب ج٧ ص ١٦٧.

ولمّا كانت الحادثة على مولانا الجد رحمه الله، واجتاز إلى المغرب، كما تقرر فى غير هذا، كلف به، وأنس إليه، لحلاوة منطق، ورفع استيحاش، ومراوضة خلق؛ ثم كرم الله وجهه فى صحبة ركابه، فعلت منزلته، ولطف محله.

وقفنا[1] على رقعة من رقاعه وهو يبدئ فيها ويعيد، ويقول: «خدمته سبعًا وثلاثين سنة، ثلاثة بالمغرب، وباقيها بالأندلس، وأنشدته فيها ستًّا وستين قصيدة، فى ستّة وستين عيداً، وكل ما فى منازله السعيدة، من القصور والرياض والدشار[2] والسبيكة، من نظم رائق، ومدح فائق، فى القباب والطاقات والطرز وغير ذلك [فهو لى][3]، وكانت أؤاكله وأؤاكل ابنه مولاى أبا الحجاج وهما كبيرا ملوك أهل الأرض. وهنأته بكذا وكذا قصيدة، وفوض لى فى عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين، وصلح النصارى عقدته تسع مرات، ألخِسَّةٍ فوض إلى ذلك»؟

قلنا: صدق فى جميع ما ذكره، والعقود بذلك شاهدة له.

وخصه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سره، واستعمله بعد أعوام فى السفارة بينه وبين ملوك عصره، فحمد منابه، ونمت أحواله، ورغد جنابه. وكان هنالك بعض تقولات تشين وجه اجتهاده، وتومئ بما احتقبه من سوء مقاصده، وما صرفه من قبيح أغراضه، وهاجت الفتنة، فكانت سفارته أعظم أسبابها[4].

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٦٧.

(٢) الدشار: القرية أو الكفر.

(٣) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٧.

(٤) نفح الطيب ج٧ ص ١٦٨.

وعند الأشـد من عمره عـرضت لأفكاره تقلبـات، وأقعدتـه عن قداح السياسة آفات مختلفات، وأشعرته حدة ذهنه أن يتخبط[1] فى أشراك وقعات؛ فقـد بجامع مـالقة، ثم بمسـجد الحـمراء، ملقيـا على الكرسى فنونا جـمة، وعلوما لم يزل يتلقاها عن أولياء التعظيم والتجلة، فانحاز إلى مادة أمم بمالقة طما منهم البحر، وتراءى لأبصارهم وبصائرهم الفـخر؛ وكان التفسير أغلب عليه لفرط ذكـائه، وما [كان][2] قيده وحـصله أيام قراءته [وإقرائه][3]؛ فما شئت من بيان، وإعجاز قرآن؛ وآيات توحيد وإخلاص، ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص، يوم الأخذ بالنواص. مراراً عدة سمـع ما يلقيه ولى الأمر ويا شدة البلوى التى أذاقـه مرها، وأمطاه إلى طيـة الهلاك ظهـرها، ويا قرب مـا كان الفوت، والحسام الصلت، من تباعد هذه القرب التى ألغيت[4].

قلنا[5]: لقد جمع جواد القلم، فأطلقنا[6] ونحن نشير إلى هذا الرئيس وتبدل طباعـه، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاعـه؛ وإحراز شيم أدت إلى علو مقداره، واستقامة مداره؛ فآل عمر مولانا جدنا إلى النفاد، ورمت رئيس كتابه هذا أسهم الحساد؛ فظهـر الخفى، وسقط به الليل على سرحان قد طالما جرب الوفى والصفى.

---

(١) فى الأصل: «أنه متخبط» والمثبت رواية نفح الطيب ٧/ ٢١٨.

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ٢١٨.

(٣) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٨.

(٤) فى الأصل: «التى الفيت» وبهامشه: «وفى العـبارة غموض» والمثبت من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٨.

(٥) نفح الطيب ج٧ ص ١٦٨.

(٦) يعنى أطلقنا له العنان.

وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حجاب الدولة، والاسترسال فى الرد عليهم بالطبع والجبلة مع الاستغراق فى غمار الفتن أندلسًا وغربًا، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصبا؛ أما الجراءة فانتضى سيوفها، وأما إكفاء السماء على الأرض فقواصم نوع صنوفها، وأما المجاهدة فوقف بميدان الاعتراض صفوفها، وأما المجاملة فنكر معروفها. أدّاه هذا النبأ العظيم إلى سكنى المعتقل بقصبة ألمرية، وعلى الأثر كان الفرج قريبا، وسطور المؤاخذة قد أوسعها العفو تضريبًا. ونالته هذه المحنة عند وفاة مولانا الجد الغنى بالله وكانت وفاته غرة شهر صفر عام ثلاثة وتسعين وسبع مائة - لأسباب يطول شرحها، أظهرها شراسة فى لسانه، واغترار[1] بمكانه، وتضريب بين خدام السلكان وأعوانه، فكبا لليدين وللفم، إلى أن منّ الله بسراحه، وأعاده إلى الحضرة فى أوّل شهر رمضان المعظم عام أربعة وتسعين وسبع مائة، فكان ما كان من وفات مولانا الوالد رحمه الله، وقيام أخينا [محمّد][2] مقامه بالأمر، فاستمر الحال أياما قلائل، وقدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لمدة من عام، ثم أعاد المذكور إلى خطته، وقد دمثت بعض أخلاقه، وخمدت شراسته. وحلا بعض مذاقه، فما كان إلاّ كلا ولَيتْ، وإِذَابِهِ قد ساء مشهدًا وغيبًا، وأوسع الضمائر شكا وريبا، وغلبت الإحن عليه. وغلت مراجلها لديه؛ وصار يتقلب على جمر الغضى، وتبرم بالقضا؛ ويظهر النصح وفى طيه التشفى، ويسم نفسه بالصلاح، ويعلن بالخشوع، ويشير بأنه الناصح الأمين، ويتلو قول الله سبحانه: ﴿...وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾

---

(١) فى الأصل: «واعتزاز» والمثبت رواية نفح الطيب ج٧ ص ١٦٩.

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٩.

[الأعراف]. ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنوبًا لم يقترفوها، ونسب إليهم نسبا من التضييع لم يعرفوها، وانهم احتجنوا الأموال، وأساءوا الأعمال والأقوال؛ فلم يظفر من ذلك بكبير طائل، ولا حصل على تفاوت أعداده على حاصل؛ هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية، وعدم اضطلاعه بالأمور [الجبائية](1) فمن نفس يروع سرابها، ويكدر بالامتحان والامتهان شربها؛ ومن ضارعة خاشعة لله سلبت، وطولبت بغير ما اكتسبت، وتعدت الأيدى إلى أقوام جلة سعدوا بشقائه، وامتحنوا وهم المبرءون من تزويره واعتدائه وسيسألون يوم لا يغنى مال ولا بنون؛ وصار يصرف أغراضه، ويظهر أحقاده بين إفصاح بما كان الإعجام خيرًا من إلقائه، وأن عمر المسكين المستضعف لا حاجة فى طول بقائه؛ إلى مجاهرة عهد منه أيام شبيبته نقيضها، وانعكس فى شاخته تصريحها المنغص وتعريضها؛ لا يريح نفسه من جهد ولا يقف من اللجاجة عند حدّ. وقد كان ثقل سمعه فساءت إجابته وطغت أخلاقه فسئم الناس وساطته وربما استحلف؛ فلم يكن بين اللازمة واللازمة إلاّ الحنث عن قصد وغير قصد، ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وعد وأن يقيض الله ولهم قاتل عمد. فسبحان القاهر فوق عباده، الرحيم بهذا الشخص وبالأموات من شيعته وأولاده.

فاستمر(2) على ذلك إلى إحدى الليالى، فهلك [فى جنح الليل](3) فى جوف داره على يدى مخدومه؛ تلقاه - زعموا - عند الدخول عليه وهو بالمصحف رافع به يديه؛ فجدَّلته السيوف، وتناولته الحتوف؛ فقضى عليه

(1) التكملة من نفح الطيب ج7 ص 169.
(2) النفح 7/ 170.
(3) التكملة من نفح الطيب ج7 ص 170.

وعلى من وجد من خدامه وابنيه: كل ذلك بمرأى عين من أهله وبناته، ولم يتقوا الله فيه حق تقاته؛ فكانت أنكى الفجائع وأفظع الوقائع؛ وساءت القالة وعظم المصاب وكل شيء إلى أجل نافذ وكتاب[1].

ولمّا تلخصت هذه المقدمة بين يدى نظامه، وتم جميع ما أبرزه البحث والاجتهاد من خير كلامه؛ اخترنا له اسمًا يوافقه، ويوضح مشارقه، وهو «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك». أما البقية فلما بقى بعد هلاكه وتخطته الحوادث وشح الدهر بإمساكه؛ والمدرك: لأجل ما ترك فى مبيضاته، ولم يخرجه فى حياته. وهانحن ننظم درره الرائقة ونطلع فى مراتب التأليف كل شارقة.

فمن ذلك قوله[2] فى ذكر غرناطة العلية، وتهنئة مولاه الجد رحمه الله عليه ببعض المواسم العيدية؛ ووصف كرائم من جياده وآثار ملكه وجهاده:

يا من يحن إلى نجد وناديها ... غرناطة قد ثوت نجد بواديها
قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها ... عقيلة والكثيب الفرد جاليها
تقلدت بوشاح النهر وابتسمت ... أزهارها وهى حلى فى تراقيها
وأعين النرجس المطلول يانعة ... ترقرق الطل دمعًا فى مآقيها
وافْتَرَّ ثغر أقاحٍ من أزهارها ... مقبلاً خد وردٍ من نواحيها
[كأنما الزهر فى حافاتها سحرًا ... دراهم والنسيم اللدن يَجْبيها][3]

(١) بعدها فى نفح الطيب: «انتهى كلام ابن الأحمر فى كتابه» وهو الذى سبق باسم «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك».
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ١٧١.
(٣) ما بين حاصرتين تكملة من نفح الطيب.

وانظر إلى الدوح والأنهار تكنفها ... [مثل الندامى سواقيها][1] سواقيها

كم حولها من بدور تجتنى زهرا ... فتحسبت الزهر قد قبلن أيديها

حصباؤها لؤلؤ قد شف جوهره ... والنهر قد سال ذوبا من لآليها

[نهر المَجَرَّة][2] والزهر المطيف به ... زهر النجوم إذا ما شئت تشبيها

يزيد حسنًا على نهر المجرة قد ... أغناه در حبابٍ عن دراريها

يدعى المنجم رائيه وناظره ... مسميات أبانتها أساميها

إنَّ الحجاز مغانيه بأندلسٍ ... ألفاظها طابقت منها معانيها

فتلك نجد سقاها كل منسجم ... [من الغمام يحييها فيحييها][3]

[وبارق وعذيب كل مبتسم][4] ... من الثغر يحليها مجليها

وإن أردت ترى وادى العقيق فرد ... دموع عشاقها حمراً جواريها

وللسبيكة تاج فوق مفرقها ... تود در الدرارى لو تحليها

كأن حمراءها والله يكلؤها ... ياقوتة فوق ذاك التاج يعليها

إنَّ البدور لتيجان مكللة ... جواهر الشهب فى أبهى مجاليها

لكنها حسدت تاج السبيكة إذ ... رأت أزهاره زهراً يجليها

بروجها لبروج الأفق مخجلة ... فشهبها فى جمال لا تضاهيها

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧١ .

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧١ .

(٣) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧١ .

(٤) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧١ .

تلك القصور التى راقت مظاهرها تهوى النجوم قصوراً عن معاليها

لله لله عينا من رأى سحراً تلك المنارة قد رقت حواشيها

والصبح فى الشرق قد لاحت بشائره والشهب تستن سبقًا فى مجاريها

تهوى إلى الغرب لما هالها سحر وغمض الفجر من أجفان واشيها

وساجع العود فى كف النديم إذا ما استوقفت ساجعات الطير يغريها

يبدى أفانين سحر فى ترنمه يصبى العقول بها حسنا ويسبيها

يجسه ناعم الأطراف تحسبها لآلئا وهى نور فى تلالیها

مقاتل بلحاظٍ قوس حاجبها ترمى القلوب بها عمدًا فتصميها

فباكر الروض والأغصان مائلة يثنى النفوس لها شوقا تثنيها

لم يرقص الدوح بالأكمام من طرب حتى شدا من قيان الطير شاديها

وأسمعتها فنون السحر مبدعة ورق الحمام وغناها مغنيها

غرناطة آنس الرحمن ساكنها باحت بسر معانيها أغانيها

أعدى نسيمهم لطفا نفوسهم فرقة الطبع طبع منه يعديها

فخلد الله أيام السرور بها صفراً عشياتها بيضًا لياليها

وروض المحل منها كل منبجسٍ إذا اشتكت بغليل الجدب يرويها

يحكى الخليفة كفا كلما وكفت بالجود فوق موات الأرض يحييها

تغنى العُفاة وقد أمت مكارمه عن السؤال وبالإحسان تغنيها

لها بنان فما غيث يساجلها جوداً ولا سحبه يوما تدانيها

فإن تصب سحبه بالماء حين همت ... بسجد ولُجينٍ صاب هاميها
يأيها الغيث أنت الغوث فى زمن ... ملوكه تلفت لولا تلافيها
إنَّ الرعايا جزاك الله صالحة ... ملكت شرقا وغربا من يراعيها
إنَّ الخلائق فى الأقطار أجمعها ... سوائم أنت فى التحقيق راعيها
فكل مصلحة للخلق تحكمها ... وكل صالحة فى الدين تنويها
إذا تيممت أرضًا وهى مجدبة ... فرحمة الله بالسقيا تحييها
يا رحمة بثت الرُّحْمَى بأندلس ... لولاك زلزلت الدنيا بمن فيها
فى فضل جودك قد عاشت مشيختها ... فى ظل أمنك قد نامت ذراريها
فى طول عمرك يرجو الله آمالها ... بنصر ملكك يدعو اللهَ داعيها
عوائد الله قد عودت أفضلها ... لتبلغ الخلق ما شاءت أمانيها
سل السعود وخل البيض مغمدة ... واضرب بها فرية التثليث تفريها
لله أيامك الغر التى اطردت ... فيها السعود بما ترضى ويرضيها
لله دولتك الغراء إن لها ... لكافلاً من إله العرش يكفيها
هيهات أن تبلغ الأعداء مأربة ... فى جريها وجنود الله تحميها
هذى سيوفك فى الأجفان نائمة ... والمشركون سيوف الله تفنيها
سريرة لك فى الإخلاص قد عرفت ... حسنى عواقبها حتى أعاديها
لم تحتجب شهب الآفاق عن بصر ... إلاّ وهديك الأبصار يهديها
يا بن الملوك وأبناء الملوك إذا ... تدعو الملوك إلى طوع تلبيها

أبناء نصر ملوك عز نصرهم وأوسعوا الخلق تنويها وترفيها
هم المصابيح نور الله موقدها تضئ للدين والدنيا مشاكيها
هم النجوم وأفق الهدى مطلعها فوزا لمهديها عزا لهاديها
هم البدور كمال ما يفارقها هم الشموس ظلام لا يواريها
قضت قواضيها أن لا انقضاء لها وأمضت الحكم فى الأعداء مواضيها
وخلدت فى صفاح الهند سيرتها وأسنت عن عواليها معاليها
وأورثتك جهاداً أنت ناصره والأجر منك يرضيها ويحظيها
كم موقف ترهب الأعداء موقفه والخيل تردى ووقع السمر يرديها
ثارت عجاجته واليوم محتجب والنقع يؤثر غما من دياجيها
وللأسنة شهب كلما غربت فى الدارعين تجلت من عواليها
وللسيوف بريق كلما لمعت تزجى الدماء وريح النصر يزجيها
أطلعت وجهًا تريك الشمس غرته تبارك الله ما شمس تساميها
من أين للشمس نُطْق كله حكم يعيدها كل حين منك مبديها
لك الجياد إذا تجرى سوابقها فللرياح جياد ما تجاريها
إذا انبرت يوم سبق فى أعنتها ترى البروق طلاحًا لا تباريها
من أشهب قد بدا صبحا تراع له شهب السماء فإنَّ الصبح يخفيها
إلاَّ التى فى لجام منه قيدها فإنه سامها عزًا وتنويها

أو أشقر مرَّعن[1] شقر البروق وقد ... أبقى لهـا شفـقا فـى الجو تنبيهـا
أو أحمـر جمره فـى الحرب متـقد ... يعلو لهـا شرر مـن بأس مذكـيهـا
لون العقـيق وقد سال العقـيق دما ... بعطفـه من كـمـاة كَـرّ يدمـيـهـا
أو أدهم مـثل صـدر الليل تـنعله ... أهله فـوق وجـه الأرض يبـديهـا
إن حارث الشـهب ليلا فى مـقلده ... فـصـبـح غـرته بالنور يهـديهـا
أو أصفـر بالعشيات ارتدى مـرحًا ... وعـرفـه بتـمـادى الليل ينبـيـهـا
مموهٍ بـنضـار تاه مـن عـجب ... فليس يـعـدم تمويهـا ولا تيـهـا
ورُبَّ نهـر حـسـام راق رائقـه ... مـتى ترده نفـوس الـكفـر يرديهـا
تجرى الرءوس حبابًا فـوق صفحته ... وما جـرى غيـر أنَّ البأس يجـريها
وذابل من دم الـكفـار مـشـربه ... يجنى الفتـوح وكف النصر تجنيـها
وكم هلال لقـوس كـلمـا نبـضت ... ترى النجـوم رجوما فى مـراميـها
أئمـة الكفر مـا يمـمت ساحـتهـا ... إلاّ وقد زلزلت قـسرا صـياصيـها
يا دولة النصـر هل من مـبلغ دولاً ... مَـضَيْـن أنك تحيـيهـا وتنسـيهـا
[أو مـبلغ سالف الأنـصار مَـألُكَةً ... والله بالخلد فى الفردوس يجزيها][2]
أنَّ الخـلافــة أعلى الله مظهــرها ... أبقت لنا شـرفًا والله يبـقـيـهـا
يا بن الذيـن لهم فى كل مكرمـة ... مـفـاخـر ولسـان الدهر يمليـهـا

(١) فى الأصل: «أو أشـقر مُـرْعِبٍ شقـر» ولا وجه له. والمثـبت رواية نفح الطيب ج٧ ص ١٧٤.

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٥.

أنصار خير الورى مختار هجرته … جيران روضته أكرم بأهليها
أسمتهم الملة السمحاء تكرمة … أنصارها وبهم عزت أواليها
ففى حنين وفى بدر وفى أحد … تلفى مفاخرهم مشهورةً فيها
ولتسأل السير المرفوع مسندها … فعن مواقفهم تروى مغازيها
مآثر خلد الرحمن أثرتها … [ينصُّها](1) من كتاب الله قاريها
ماذا يجيد بليغ أو ينمقه … من الكلام ووحى الله تاليها
له الجهاد به تسرى الرياح إلى … ممالك الأرض من شتى أقاصيها
تحدى الركاب إلى البيت العتيق به … فمكة عمرت منه نواديها
بشائر تسمع الدنيا وساكنها … إذا دعا باسمك الأعلى مناديها
كفى خلافتك الغراء منقيبة … أنَّ الإله يوالى من يواليها
وقد أفاد بنيه الدهر تجربة … أنَّ السعود تعادى من يعاديها
إذا رميت سهام العز صائبة … فما رميت بل التوفيق راميها
شكراً لمن عظمت منا مواهبه … وإن تعد فليس العد يحصيها
عما قريب ترى الأعياد مقبلة … من الفتوح ووفد النصر حاديها
وتبلغ الغاية القصوى بشائرها … فقد أظلت بما ترضى مباديها
فاهنأ بما شئت من صنع تُسَرّ به … وانو الأمانى فالأقدار تدنيها
مولاى خذها كما شاءت بلاغتها … ولو تباع لكان الحسن يشريها

(1) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٥.

أرسلتها حيثما الأرواح مرسلة نوادرا تنشر البشرى أهاليها
جاءت تهنيك عيد الفطر معجبة بحسنها ولسان الصدق يطريها
البشر فى وجهها واليمن فى يدها والسحر فى لفظها والدر فى فيها
لو رصع البدر منها تاج مفرقه لم يرض در الدرارى أن تحليها
فإن تكن بنت فكرى وهو أوجدها نعماك فى حجره كانت تربيها
فى روض جودك قد طوقنى مننا طوق الحمام فما سجعى موفيها
ولو أعرت لسان الدهر يشكرها لكان يقصر عن شكر يوفيها
بقيت للدين والدنيا إمام هدى مبلغ النفس ما ترجو أمانيها
والسعد يجرى لغايات تؤملها ما دامت الشمس تجرى فى مجاريها

ومن ذلك أيضًا قوله هناء لمولانا الجد رحمه الله بالفتح المغربى للسلطان أبى العباس بن السلطان أبى سالم المرينى(١):

هى نفحة هبت من الأنصار أهدتك فتح ممالك الأمصار
فى بشائرها وبشارة الدنيا بها مستمتع الأسماع والأبصار
هبت على قطر الجهاد فروحت أرجاءه بالنفحة المعطار
وسرت وأمر الله طى برودها يهدى البرية صنع لطف البارى
مرت بأدواح المنابر فانبرت خطباؤها [مفتنة](٢) الأطيار

(١) نفح الطيب ج٥ ص ١٧٢.
(٢) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٣.

حنت معارجها إلى أعشارها ... لما سمعن بها حنين عشار

لو أنصفتك لكللت أدواحها ... تلك البشائر يانع الأزهار

فتح الفتوح أتاك فى حلل الرضا ... بعجائب الأزمان والأعصار

كم آيةٍ لك فى السعود جليَّةٍ ... خلدت منها عبرة استبصار

كم حكمة لك فى النفوس جليَّةٍ ... خفيت مداركها عن الأفكار

كم من أمير أم بابك فانثنى ... يدعى الخليفة دعوة الإكبار

أعطيت أحمد راية منصورة ... بركاتها تسرى من الأنصار

أركبته فى المنشآت كأنما ... جهزته فى وجهة لمزار

من كل خافقة الشراع مصفقٍ ... منها الجناح تطير كل مطار

ألقت بأيدى الريح فضل عنانها ... فتكاد تسبق لمحة الأبصار

مثل الجياد تدافعت وتسابقت ... من طافح الأمواج فى مضمار

لله منها فى المجار سوابح ... وقفت عليك الفخر وهى جوارى

لما قصدت بها مراسى سبتة ... عطفت على الأسوار عطف سوار

لما رأت من صبح عزمك غرة ... محفوفة بأشعة الأنوار

ورأت جبينا دونه شمس الضحى ... لبّتك بالإجلال والإكبار

فأفضت فيها من نداك مواهبا ... حسنت مواقعها على التكرار

وأريت أهل الغرب عزم مغرب ... قد ساعدته غرائب الأقدار

وخطبت من فاس الجديدة عقيلة ... لبتك طوع تسرع وبدار

ما صدقوا متن الحديث بفتحها حتى رأوه فى متون شفار
وتسمعوا الأخبار باستفتاحها والخبر قد يغنى عن الأخبار
قولوا لقرد فى الوزارة غره حلم مننت به على مقدار
أسكنته من فاس جنة ملكها متنعما منها بدار قرار
حتى إذا كفر الصنيعة وازدرى بحقوقها ألحقته بالنار
جرعت نجل الكاس كأسا مرةً دست إليه الحتف فى الإسكار
كفر الذى أوليته من نعمة لا تأنس النعماء بالكفّار
فطرحته طرح النواة فلم يفز من عز مغريه بغير فرار
لم يتفق لخليفة مثل الذى أعطى الإله خليفة الأنصار
لم أدر والأيام ذا عجائب ترادها يحلوا على التذكار
ألواء صبح فى ثنيه مشرق أم راية فى جحفل جرار
وشهاب أفق أم سنان لامع ينقض نجما فى سماء غبار
ومناقب مولى الإمام محمّد قد أشرقت أم هن زهر درارى
فاق الملوك بهمة علوية من دونها نجم السماء السارى
لو صافح الكف الخضيب بكفه فخرت بنهر للمجرة جارى
والشهب تطمع فى مطامع أفقها لو أحرزت منه منيع جوار
سل بالمشارق صبحها عن وجهه يفتر منه عن جبين نهار

سل بالغمام صوبها عن كفه　　[تنبيك عن بَحْرٍ بِهَا زخار][1]

[سل بالبروق صفاحها عن عزمه][1]　　تُخبرك عن أمضى شبا وغرار

قد أحرز الشيم الخطيرة عندما　　أمطى العزائم صهوة الأخطار

إن يلق ذو الإجرام صفحة صفحه　　فسح القبول له خطا الأعمار

يا من إذا هبت واسم حمده　　أزرت بعرف الروضه المعطار

[يا من إذا افترت مباسم بشره　　وهب النفوس وعاش فى الإقتار][2]

يا من إذا طلعت شموس سعوده　　تعشى أشعتها قوى الأبصار

قسما بوجهك فى الضياء وإنه　　شمس تمد الشمس بالأنوار

قسما بعزمك فى المضاء وإنه　　سيف تجرده يد الأقدار

لسماح كفك كلما استوهبته　　يزرى بغيث الديمة المدرار

لله حضرتك العلية لم تزل　　يلقى الغريب بها عصار التسيار

كم من طريد نازح قذفت به　　أيدى النوى فى الفقر رهن سفار

بلغته ما شاء من آماله　　فسلا عن الأوطان بالأوطار

صيرت بالإحسان دارك داره　　متعت بالحسنى وعقبى الدار

والخلق تعلم أنك الغوث الذى　　يضفى عليها وافى الأستار

كم دعوة لك فى المحول مجابة　　أغرت جفون المزن باستعبار

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٤ .

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٤ .

جادت[1] مجارى الدمع من قطر الندى | فرعى الربيع لها [حقوق الجار][2]
فأعاد وجه الأرض طلقا مشرقا | متضاحكا بمباسم النوار
يا من مآثره وفضل جهاده | تحدى القطار بها إلى الأقطار
حطت البلاد ومن حوته ثغورها | وكفى بسعدك حاميا لذمار
فلرب بكر للفتوح خطبتها | بالمشرفية والقنا الخطار
وعقيلة للكفر لما رعتها | أخرست من ناقوسها المهذار
أذهبت من صفح الوجود كيانها | ومحوتها إلاّ من التذكار
عمروا بها جنات عدن زخرفت | ثم انثنوا عنها ديار بوار
صبحت منها روضة مطلولة | فأعدتها للحين موقد نار
واسودّ وجه الكفر من خزى متى | ما احمر وجه الأبيض البتار
ولرب روض للقنا متأود | ناب الصهيل به عن الأطيار
مهما حكت زهر الأسنة زهره | حكت السيوف معاطفها الأنهار
متوقد لهب الحديد بحدّه | تصلى به الأعداء لفح أوار
فبكل ملتفت صقال مشهر | قداح زند للحفيظة وارى
فى كف أروع فرق نهد سابح | متموج الأعطاف فى الإحضار
من كل منحفز بلمحة بارق | حمل السلاح به على طيار
من أشهب كالصبح يطلع غرة | فى مستهل العسكر الجرار

(١) فى الأصل: «جارت» والمثبت من نفح الطيب.
(٢) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٥.

أو أدهـم كـــــــالـلـيل إلاّ أنـه لم يرض بـالجـوزاء حلى عـــذار
أو أحـمـر كالجـمـر يذكى شعلة وقـــد ارتمى من بـأســه بشــرار
أو أشـقـر حلى الجـــمـال أديمَـه وكـســـاه من زهو جـلال نـضـار
أو أشـعل راق العـيـون كـأنه غلس يـخـالط سـدفـة بنهـار
شـهب وشـقـر فى الطراد كـأنهـا روض تفـتـح عن شـقـيـق بهـار
عـودتهـا أن ليس تـقـرب منهـلا حـــتى يخـــالط [بـالدم الموار][1]
يأيـهـــــا الملك الـذى أيامــــه غـــرر تلوح بأوجـــه الأعـصــار
يهـنى لواءك أن جـــــدك زاحف بلواء خـــيـــر الخلق للكـفــار
لا غـرو أن فـقت الملوك سـيـادة إذ كـان جـــدك سـيـد الأنـصـار
الســـابقـون الأولون إلى الـهـدى والمصطـفـون لنـصـرة المخـتـــار
مـــتـــهللون إذا الـنزيل عـــراهم سـفـروا له عـن أوجـه الأقـمـار
من كل وضاح الجـبين إذا احـتبى تلقـاه مـعــصــوبا بتـاج فـخـار
قد لاث صـبحـا فوق بدر بعـدما لبـس المكـارم وارتدى بـوقــــار
فـاسأل بـبدر عن مـواقف بأسـهم فـــــهم تلافـــوا أمــره ببــدار
لهم العـوالى عن مـعالـى فخـرها نقل الـرواة عـــوالى الأخـــبــار
وإذا كـتــاب الله يتلو حـمــدهم [أودى القـــصـور بمنة الأشـــعـار
يا بن الذين إذا تـذوكـر فـخـرهم فـــخـروا بطـيـب أرومـة ونجـــار

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٥.

حقا لقد أوضحت من آثارهم](١) — لمّا أخذت لدينهم بالثار

أصبحت وارث مجدهم وفخارهم — ومشرف الأعصار والأمصار

صادرا فى الفتح عن ورد المنى — رِدْ ناجح الإيراد والإصدار

واهنأ بفتح جاء يشتمل الرضا — جذلان يرفل فى حلى استبشار

وإليكها ملء العيون وسامة — حييتك بالأبكار من أفكارى

تجرى حداة العيس طيب حديثها — يتعللون به على الأكوار

إن مسهم لفح الهجير أبلهم — منه نسيم ثنائك المعطار

وتميل من أصغى لها فكأننى — عاطيته منها كئوس عقار

قذفت بحور الفكر منها جوهرا — لما وصفت أناملا ببحار

لا زلت للإسلام سترا كلما — أمّ الحجيج البيت ذا الأستار

وبقيت يا بدر الهدى تجرى بما — شاءت علاك سوابق الأقدار

انتهى ما تعلق به الغرض من هذا التأليف الملوكى وقد أتيت به بحروفه من أوله إلى هذا الموضع وتتبعه يطول ولكنى أنتقى منه نبذة زائدة على ما سبق من مواضيع شتى فنقول:

قال المؤلف رحمه الله: ومن ذلك(٢) أثناء وجهه مولانا الجد رحمه الله لتجديد الدولة الأحمدية صدر عام تسعة وثمانين وسبع مئة:

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٥.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ١٧٧.

هب النسيم على الرياض مع السحر فاستيقظت فى الدوح أجفان الزهر
ورمى القضيب دراهما من نوره فاعتاض من طل الغمام بها درر
نثر الأزهار بعد ما نظم الندى يا حسن ما نظم النسيم وما نثر
قم هاتها والجو أزهر باسم شمسا تحل من الزجاجة فى القمر
إن شجها بالماء كف مديرها ترمى من شهب الحباب بها شرر
نارية نورية من ضوئها يقد السراج لنا إذا الليل اعتكر
لم يبق منها الدهر إلاّ صبغة قد أرعشت فى الكأس من ضعف الكبر
من عهد كسرى لم يفض ختامها إذ كان يذخر كنزها فيما ذخر
كانت مذاب التبر فيما قد مضى فأحالها ذوب اللجين لمن نظر
جدد بها عرس الصبوح فإنها بكر تحييها الكرام مع البكر
وابلل بها رَمَقَ[1] الأصيل عشية والشمس من وعد الغروب على خطر
محمرة مصفرة قد أظهرت خجل المريب يشوبه وجل الحذر
من كف شفاف تجسد نوره من جوهر لألاء بهجته بهر
تهوى البدور كمالها وتود أن لو أوتيت منه المحاسن والغرر
قد خط عذاره فى خده قلمان من آس هناك ومن شعر
والى عليك بها الكئوس وربما يسقيك من كأس الفتور إذا فتر
سكر الندامى من يديه ولحظه متعاقب مهما سقى وإذا نظر

(١) فى الأصل: «ريق» والمثبت رواية نفح الطيب ج٥ ص ١٧٨.

حـيث الهـديل مع الهدير تـناغيـا فالطير تشـدو فى الغصون بلا وتر
والقـضب مـالت للـعنان كـأنهـا وفـد الأحبـة قـادمين مـن السفـر
مـتـلاعـبات فـى الحلى ينوب فى وجناتهن الـورد حـسنا عن خـفـر
والنرجـس المطلول يرنـو نحـوها بلواحظ دمع الـندى منهـا انهـمـر
والنهر مـصقـول الحسـام متى يرد درع الغدير مصفـقا فيه [صدر][1]
تجرى على الحـصبـاء وهى جواهر مـتكسرا من فـوقـها مـهمـا عثـر
هل هذه أم روضـة البـشـرى التى فـيـها لأرباب البـصـائر مـعتبـر
لم أدر من شـــغف بهـــا وبهـــذه من منهـا فتن القلوب ومن سحـر
جاءت بها الأجفان[2]ملء ضلوعها ملء الخـواطر والمسـامع والبـصـر
ومـســافـر فى البـحـر ملء عنانه وافى مع الفـتح المـبـين على قـدر
قـــادته نـحـــوك بالخطـام كـــأنه جمـل يساق إلى القـياد وقد نـفر
وأراه ديـن الله عـــــــزة أهلـه بك يا أعـف القـــادرين إذا قـــدر
يا فـخـر أندلس وعـصمـة أهلهـا لله سِرٌّ فـى اختصـاصك قد ظـهر
كم مـعـضل من دائهـا عـالجـتـه فـشـفـــيت منه بالبـــدار وبالبـدر
مـاذا عـسى يصف البليغ خليـفـة والله مـــــا أيامـــه إلاّ غــــرر
ورثت هذا الفـخر يا ملك الهـدى عن كل من آوى النـبى ومن نصـر

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٨.

(٢) الأجفان: المراكب.

من شاء يعرف فخرهم وكمالهم فليتل وحى الله فيهم والسير
أبناؤهم أبناء نصر بعدهم بسيوفهم دين الإله قد انتصر
مولاى سعدك والصباح تشابه وكلاهما فى الخافقين قد اشتهر
هذا وزير الغرب عبد آبق لم يلف غيرك فى الشدائد من وزر
كفر الذى أوليته من نعمة والله قد حتم العذاب لمن كفر
إن لم يمت بالسيف مات بغيظه وصلى سعيرا للتأسف والفكر
ركب الفرار مطية ينجو بها فجرت به حتى استقر على سقر
وكذا أبو حمو وكان حِمامه قد حم وهو فى الحياة على غرر
بلغته - والله أكبر شاهد - ما شاء من وطن يعز ومن وطر
حتى إذا جحد الذى أوليته لم تبق منه الحادثات ولم تذر
فى حاله واللهِ أعظمُ عبرة لله عبد فى القضاء قد اعتبر
فاصبر تنل أمثالها فى مثله إنَّ العواقب فى الأمور لمن صبر
رد حيث شئت مسوغا ورد المنى فالله حسبك فى الورود وفى الصَّدَر
لا زلت محروسا بعين كلاءة ما دام عين الشمس تعشى من النظر

ومنها، وقد أضاف إلى ذلك من التغزل طوع بداره، وحجة اقتداره فقال:

والعود فى كف النديم بسر ما تلقى لنا منه الأنامل قد جهر[1]

(١) نفح الطيب ج٥ ص ١٧٩.

غنى عليه الطير وهو بدوحه والآن غنى فوقه ظبى أغر
عود ثوى حجر القضيب رعى له أيام كانا فى الرياض مع الشجر
لا سيما لما رأى من ثغره زهرا وأين الزهر من تلك الدرر
ويظن أن عذاره من آسه ويظن تفاح الخدود من الثمر
يسبى القلوب بلفظه وبلحظه [وَافِتْنَتِى][1] بين التكلم والنظر
قد قيدته لأنسنا أوتاره كالظبى قيد فى الكناس إذا نفر
لم يبل قلبى قبل سمع غنائه بمعذر سلب العقول وما اعتذر
جس القلوب بجسه أوتاره حتى كأن قلوبنا بين الوتر
نمت لنا ألحانه بجميع ما قد أودعت فيه القلوب من الفكر
يا صامتا والعود تحت بنانه يغنيك نطق الخُبْر فيه عن الخَبَر
أغنى غناؤك عن مدامك يا ترى هل من لحظك أم بنانك ذا السكر
باحت أناملك الُلدانُ بكل ما كان المتيم فى هواه قد ستر
ومقاتل ما سل غير لحاظه والرمح هز من القوام إذا خطر
دانت له منا القلوب بطاعة والسيف يملك ربه مهما قهر

ثم قال بعد إيراد جملة من كلامه:

وقال شاكرا لنعمة وصلته من مولانا رحمه الله عليه فى عاشوراء:

مولاى يابن السابقين إلى العلا والرافعين لواءها المنشورا

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٩.

إن لوحقوا فى المعلوات فإنهم طلعوا بآفاق العلاء بدورا
أو فوخروا فى المكرمات فإنهم نظموا بأسلاك الفخار شذورا
أبناء أنصار النبى وصحبه فى الذكر أصبح فجرهم مذكورا
والمؤثرين وربنا أثنى بها فى الحشر خلد وصفهم مسطورا
فاضت علينا من نداك غمائم وتفجرت من راحتيك بحورا
من كف شفاف الضياء تخاله لصفاء جوهره تجسد نورا
نِعَمٌ منوعة تعدد وفرها أعجزت عنها شكرى الموفورا
فى موسم للدين قد جددته وأقمت فينا عيده المشهورا
أضعاف ما أهديتنا من منة تهدى إليك ثوابها عاشورا
وعلى الطريق بشائر محمودة ألقاك جذلانا بها مسرورا

ثم قال: ومن لفظه فى وصف القرنفل الصعب الاجتناء بجبل الفتح وقد وقع له مولانا الغنى بالله بذلك فارتجل قطعا منها:

أتونى بنوار يروق نضارة كخد الذى أهوى وطيب تنفسه
وجاءوا به من شاهق متمنع تمنع ذلك الظبى فى ظل مسكنه
رعى الله منى عاشقا متقنعا بزهر حكى فى الحسن خد مؤنسه
وإن هب خفاق النسيم بنفحة حكت عرفه طيبًا قضى بتأنسه

ومنها:

رعى الله زهرًا ينتمى لقرنفل حكى عرف من الهوى وإشراق خده

ومنبتـــه فى شاهق مــتــمنع كـمـا امتنـع المحبـوب فى صـده
أميل إذا الأغـصان مـالت بروضة أعـانق منها القـضب شـوقًا لقـده
وأهفـو لخـفاق النسـيم إذا سـرى وأهوى أريج الطيب من عـرف نده

ومنها:

يقـر بـعـينى أنَّ أرى الزهر يـانعًـا وقد نارع المحبوب فـى الحسن وصفه
ومـا أبصرت عـينى كزهر قـرنفل حكى خد من يسبى الفـؤاد وعرفه
تمنع فـى أعلى الهـضـاب لمجتنٍ تمنعـــه منى إذا رمت إلـفـــه
وفى جـبل الفـتح اجـتنوه تفـاؤلا بفـتح لبـاب الوصل يمنح عطفـه
[وما ضـر ذاك الغصن وهو مـرنح إذا مـا ثنى نحو المـتيم عطفـه][1]

ثم قال[2]: ومن قصـائده التى يود الصباح سناها، والنسـيم اللدن رقة معناها يهنئ مـولانا الجد رضى الله عنه، عند وصول خالصـة مقامه، وكـبير خدامه، القائد خالد، رحمه الله تعالى، من تلمسان بالهدية، وتجديد المقاصد الودية، ووافق استئناف راحة من الذات العلية، ومن فروع دوحتها الزكية:

أدرها ثلاثا من لحـــاظك واحـبس فقد غـال منها السُكر أبناء مجلس
إذا ما نهانى الشيب عن أكؤس الطلا تدير علىَّ الخـمـــر منهـا بأكـؤس
عذيرى من لحظ ضعـيف وقد غدا يُحكَّـم منا فى جـــسوم وأنفس
وروض شبـاب ماس غصن قـوامه وفـتح فـيـه اللـحظ أزهار نرجس

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٧.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ١٧٨.

وما زال ورد الخد وهو مضعف يعير أقاح الثغر طيب تنفس
وكم جال الطرف فى روض حسنه يقيده فيه العذار بسندس
أما وليالى الوصل فى روضة الصبا ومألف أحبابى وعهد تأنسى
لئن نسيت تلك العهود أحبتى فقلبى عهود العامرية ما نسى
وحاشا لنفسى بعد ما افتر فودها من الشيب عن صبح به متنفس
وألبسها ثوب الوقار خليفة [به لبس الإسلام أشرف ملبس](1)
وجدد للفتح المبين مواسما أقام بها الإيمان أفراح معرس
وأورثه العلياء كل خليفة نماه إلى الأنصار كل مقدس
فيا زاجر الأظعان وهى ضوامر بغير الفلا والوحش لم تتأنس
إذا جئت من دار الغنى بربه مناخ العلا والعز فانزل وعرس
فإن شئت من بحر السماحة فاغترف وإن شئت من نور الهداية فاقبس
أمولاى والى السعد منك ولاية أنارت بها الأكوان جذوة مقبس
إذا شئت أن ترمى القَصِىَّ من المنى تدور لك الأفلاك مرفوعة القسى
فترمى بسهم من سعودك صائب سديدٍ لأغراض الأمانى مقرطس
أهنيك بالإبلال ممن شفاؤه شفاؤك فاشكر مَنْ تُلاَقِى وقدس
ودعنى أرد يمناك فهى غمامة تبخل صوب العارض المتبجس
أقبل منها راحة إثر راحةٍ أتتك بها الركبان من بيت مقدس

(1) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٨ .

ومن نسـب الفـتح المبـين ولادة إليـه بغـيـر الفـخـر لم يتـأسس
فَـيَـأَيُّـهـا المولـى الذى بكمـاله خلائف هذا العصر فى الفخر تأتسى
[لآمَنْتَ][1] موسى من عوادى سميه ولولاك لم يبـرح بخفـية مـوجس
بعثت بميـمون النقـيبة، فى اسـمه خلود لـعـز ثابـت مـتـأسس
فـجـاءك بالمـال العـريـض هدية بهـا الدين أثواب المسـرة يكتسى
وشـفـعـهـا بالصـافنات كـأنهـا وقـد راق مـرآها جـآذر مكنس
تنص من الإشـراف جـيـد غـزالة وترنو من الإيجـاس عن لحظ أشوس
لك الخير، موسى مثلُ موسى كلاهما بغـيـر شـعـار الود لم يتـلبس
فلا زلت فى ظل النـعيم وكل من يعـاديك لا ينفك يشـقى بأبؤس
عليك سـلام مـثل حمـدك عـاطر تنفس وجـه الصـبح عـنه بمعطس

ثم قال بعد ذكر كثير من نظمه وبعض ميلادياته[2]:

وأنشد فى مولد عام خمسة وستين:

لعل الصبا إن صافحت روض نعمان تؤدى أمان الـقلب عن ظبيـة البان
ومـاذا على الأرواح وهى طليـقـة لو احتملت أنفاسـها حاجة العانى
وما حـال من يستـودع الريح سره ويطلبـهـا وهى النمـوم بكتـمـان
وكالطيف أستـقريه فى سنة الكرى وهل تنقـع الأحـلام غُلة ظـمـآن

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٩.
(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٤٦.

أسـائل عن نجـد ومرمى صـبـابتى ... مـلاعب غـزلان الصريم بنـعمـان

وأبدى إذا ريح الشـمـال تنفـست ... شـمائـل مرتاح المعـاطف نشـوان

عـرفت بهــذا الحب لم أدر سلوة ... وإنى لمـسلوب الـفـــؤاد بسـلوان

فيـا صاحـبى نجواى والحب غـاية ... فـمن سابق جلى مـداه ومن وانى

وراءكـما مـا اللوم يثنى مـقـادتى ... فـإنى عن شـان الملامـة فى شـان

وإنى وإن كـنت الأبى قـــيــــاده ... ليـأمـرنى حب الحـســان وينهـانى

ولا زلت أرعى العهد فيمن يضيعه ... وأذكـر إلفى مـا حيـيت وينسـانى

فلا تنكر ما سـامنى مضض الهوى ... فمن قـبل قد أودى بقيس وغـيلان

لى الله إما أومض البـرق فى الدجى ... أقلب تحـت الليل مــــقلة وسـنان

وإن سل من غمـد الغمام حسـامه ... برى كـبدى الشـوق الملم وأضنانى

تراءى بأعـــلام الثنيـة بـاسـمًــا ... فـأذكرنى الـعهـد القـديم وأبكانى

أسـامـــر نجم الأفق حـتى كـأننا ... وقـد سدل الليل الـرواق حليفـان

ومما أناجى الأفق أعـــديه بالجـوى ... فأرعى لـه سرح النجوم ويـرعانى

ويرسل صوب القطر من فـيض أدمعى ... ويقـدح البـرق من نار أشـجـانى

وضاعف وجدى رسم دار عـهدتها ... مطالع شـهـب أو مـراتع غـزلان

على حين شرب الوصل غـير مصرد ... وصفوف الليـالى لم يكدر بهجران

لئن كـدرت عـينى الطلول فـإنهـا ... نمت إلى قلـبى بذكـــر وعـرفـــان

ولم أر مـثل الدمع فى عـرصاتهـا ... سقى تربهـا حين استـهل وأظمانى

وبما شجانى أن سرى الركب موهنًا تقـــاد به هوج الرياح بـأرســـان
غوارب فى بحـر السراب تخـالها وقد سـبحـت فيه مـواخر غـربان
علـى كل نِضـــو مـــثله فكـأنما رمى منهـما صدر المفـازة سهـمان
ومن زاجر كـوماء مخطفـة الحشى توسـد منها فـوق عـوجاء مـرنان
نشـاوى غرام يسـتـميل رءوسـهم من النوم والشـوق المبـرح سكران
أجـابوا نداء البـين طوع غـرامـهم وقـد تبلغ الأوطـار فـوقـة أوطان
يؤمـون من قـبـر الشفـيع مـثـابة تطـلع منـهـــا جنة ذات أفـنان
إذا نزلوا مــن طيــبـــة بـجــواره فـأكرم مـولى ضم أكرم ضـيفـان
[بحـيث علا الإيمـان وامتـد ظله وزان حلى التوحيد تعطيل أوثان][(١)]
مطالـع آيات مـــثــابة رحـــمــةٍ مــعــاهد أمـــلاك مظاهر إيمـــان
هنالك تصـفـــو للقـبـول مـوارد يسقـون منها فـضل عفو وغـفران
هنـاك تؤدى للســــلام أمــــانة يحـــيـهم عنـهـا بروح وريحـــان
يناجون عن قـربٍ شفيـعهم الذى يؤمله القـاصى مـن الخلق والدانى
لئـن بلغـــوا دونـى وخلفـت أنه قضـاء جرى من مـالك الأمر ديان
وكم عزمـةٍ مَنَّيْتُ نفـسى صرفـها وقـد عـرفت منـى مـواعـد ليـان
إلى الله نشكـوها نفـــوسـا أبيـــه تحـيد عـن الباقى وتـغتـر بالفـانى
ألا ليت شعرى هل تساعدنى المنى فـأترك أهلى فى رضـاه وجيـرانى

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ٤٨ .

وأقضي لُبانات الفؤاد بأن أرى ... أعفر خدى فى ثراه وأجفانى
إليك رسول الله دعوة نازحٍ ... خفوق الحشى رهن المطامع هيمان
غريب بأقصى الغرب قيد خطوه ... شباب تَقَضَّى فى مراح وخسران
يجد اشتياقا للعقيق وبانه ... ويصبو إليها ما استجد الجديدان
وإنَّ أومض البرق الحجازى موهنا ... يردد فى الظلماء أنّه لهفان
فيا مولى الرحمى ويا مذهب العمى ... ويا منجد الغرقى ويا منقذ العانى
بسطت يد المحتاج يا خير راحم ... وذنبى أجانى إلى موقف الجانى
وسيلتى العظمى شفاعتك التى ... يلوذ بها عيسى وموسى بن عمران
فأنت حبيب الله خاتم رسله ... وأكرم مخصوص بزلفى ورضوان
وحسبك أنَّ سماك أسماءه العلا ... وذاك كمال لا يشاب بنقصان
وأنت لهذا الكون علة كونه ... ولولاك ما امتاز الوجود بأكوان
ولولاك للأفلاك لم تجل نيراً ... ولا قلدت [لباتهن بشهبان][1]
خلاصة صفو المجد من آل هاشم ... ونكتة سر الفخر من آل عدنان
وسيد هذا الخلق من نسل آدمٍ ... وأكرم مبعوث إلى الإنس والجان
وكم آية أطلعت فى أفق الهدى ... يَبِين صباح الرشد فيها ليقظان
وما الشمس يجلوها النهار لمبصر ... بأجلى ظهوراً أو بأوضح برهان
وأكرم بآيات تحديتنا بها ... ولا مثل آيات لمحكم فرقان

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ٤٨ .

ومـاذا عسى يثني البليغ وقـد أتى ثناؤك فـي وحي كـريم وقـرآن
فصلى عليك الله مـا انسكب الحيا وما سجعت ورقاء في غصن البان
وأيد مـولانا ابن نصـر فـإنه لأشـرف من ينمى لملك وسلطان
أقام - كما يرضيك - مولدك الذى به سفر الإسـلام عن وجه جذلان
سَمِيُّ رسـول الله ناصـر دينه مـعظمـه في حـال سـر وإعـلان
ووارث سـر المجـد من آل خـزرج وأكـرم من تنمى قـبـائل قـحطان
ومـرسلهـا ملء الفـضـاء كتـائبًـا تدين لـهـا غُلـب الملوك بإذعـان
حـدائق خـضـر والدروع غـدائر ومـا أنبـتـت إلا ذوابل مـران
تجـاوب فيـهـا الصـاهلات وترتمى جوانبـها بالأسـد من فوق عقـبان
فـمن كل خـوار العنان قـد ارتمى به كل مطعـام العـشيـات مطعـان
ومـوردها ظمـآى الكعـوب ذوابلا ومـصـدرها من كل أمـلد ريان
ولله منـهـا والربوع مـواحل غـمام ندى كـفت به المحل كفـان
إذا أخلفت الناس الغمـام وأمحلوا فـإن نداه والغـمـام لـسيـان
إمـام أعـاد الملك بـعـد ذهابه إعـادة لا نابي الحـسـام ولا وانى
فـغـادر أطلال الـضـلال دوارسًـا وجـدد للإسـلام أرفـع بنيـان
وشـيـدها والمجـد يشـهـد دولةً مـحـافلهـا تزهـى بيـمن وإيمـان
وراق من الثـغر الغـريب ابتسـامه وهز له الإسـلام أعطاف مـزدان
لك الخيـر ما أسنى شـمائلك التى يقـصـر عن إدراكـهـا كل إنسـان

ذكـاء إياس فى سـمـاحـة حـاتم وإقدام عـمرو فى بلاغـة سحـبان

أمـولاى مـا أنسى مناقـبك التى هى الشهب لا تحصى بَعِدٍّ وحسبان

فـلا زلت يا غوث الـبلاد وأهلهـا مـبلغ أوطـار ممهـد أوطان

ثم قال بعد سرد ميلادية، وأنشد ذلك فى مولد سنة سبع وستين وسبع مئة وألم فى أخرياتها بوصف المَشْوَر الأسنى، الرفيع المبنى:

زار الخـيـال [بأيمـن الزوراء] فـجلا سناه غيـاهب الظلمـاء(١)

وسرى مع الـنسمات يسـحب ذيله فـأتـت تنم بعـنبـر وكـبـاء

هذا ومـا شىء ألـذ من المـنى إلاّ زيارتـه مع الإغـفـاء

بتنا خـيـالين التـحـفنا بالضنى والسـقم مـا نخـشى من الرقـبـاء

حـتى أفـاق الصـبح من غـمـراته وتجـاذبت أيدى النسـيم ردائى

يا سـائلى عن سـر من أحـببتـه السـر عندى مـيت الأحـيـاء

تالله مـا أشكو المحـبـة والهـوى لسـوى الأحـبـة أو أمـوت بدائى

يا زين(٢) قلبى لست أبرح عـانيًـا أرضى بسـقمى فى الهـوى وعنائى

أبكى ومـا غيـر النجيع مدامـعى أذكى ولا ضـرم سـوى أحـشـائى

أهفـو إذا تهـفـو الـبـروق وأنثنى لسـرى النواسم من ربـا تيـمـاء

بالله يا نفـس الحـمى رفـقـا بمن أغـريتـه بتنفس الـصـعـداء

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٧٩ وما بين حاصرتين منه.

(٢) فى نفح الطيب ج٧ ص ١٨٠ «يادين قلبى».

عـجبـا له ينـدى على كـبدى وقـد		أذكى بقلـبى جـمـــرة البـرحـــاء
يا ســـاكنى الـبطحـــاء أى لبـــانةٍ		لى عندكـم يا سـاكـنى البطحـــاء
أترى النوى يومـا تخيب قـداحهـا		ويفـــوز قــــدحى منكم بـلقـــاء
فى حـيكم قـــمـر فـؤادى أفـقـه		تفــديه نفـــسى من قـــريب نائى
لم تـنـســنى الأيام يـوم وداعـــــه		والركب قـــــد أوفى علـى الزوراء
أبكى ويبـــسم والمحــاسن تـنجلى		فـــعلـقت بيـن تبــــسم وبـكاء
يا نظرة جـــادت بهـــا أيدى النوى		حـتى اسـتـهلـت أدمـعى بدمـاء
من لى بـثـانيـــة تنـادى بالأسى:		«قـدك اتئـد أسـرفت فى الغلواء»
ولرب ليـل بالوصـــال قطعـــتـــه		أجلو دجـــاه بأوجـــه النـدمـاء
أنسـيت فـيــه القلب عـادة حلمـه		وحـشــثت فـيـه أكــؤس السـراء
وجريت فى طلق التصـابى جامحا		لا أنثنــى لمقــادة الـنصـــحـــاء
أطوبى شـبابى للمـشيب مـراحلا		برواحل الإصـــبـاح والإمـــسـاء
يا ليت شعرى هل أُرَى أطوى إلى		قـبر الرسـول صـحائـف البيـداء
فـتطيب فى تلك الربوع مـدائحى		ويطـول فى ذلك المقـــام ثـوائى
حـــيث النبـــوة نورها مــتـــألق		كـالشـمس تزهى فـى سنى وسناء
حـيث الرسـالة فى ثنيـة قدسـهـا		وفـعت لهـدى الخـلق خيـر لواء
حـيث الـضـريح أكـرم مـــرسل		فـخـر الجـود وشـافع الشـفـعـاء
المصطـفى والمرتضى والمجــتــبى		والمنتـــقـى من عنصـر الـعليـــاء

خـيـر البـرية مجـتـبـاها ذخـرها ... ظل الإلـه الوارف الأفـــيـــاء
تاج الرســالة خـتمــهـا وقـوامهـا ... وعـمــادها الســامى عــلى النظراء
لولاه للأفــلاك مــا لاحت بهــا ... شــهب تنيــر دياجــى الظلمــاء
ذو المعــجـزات الـغـر والآى التى ... أكـبـرن عن عــدٍ وعن إحـصـاء
وكـفـاك رد الشــمس بعـد غروبهـا ... وكـفاك مــا قـد جاء فى الإســراء
والبـــــدر شق لـه وكم مـن آيةٍ ... كــأنـامل جـــادت ينبـع الماء
وبليلـة الميـلاد كـم من رحـمـة ... نشــر الإله بهــا ومن نعــمــاء
قـد بشـر الرسل الـكرام ببـعـثـه ... وتقــــدم الـكهـــان بـالأنبـــاء
أكـرم بها بشـرى على قدرٍ سـرت ... فى الكون كـالأرواح فى الأعضـاء
أمـسى بهـا الإسـلام يشـرق نوره ... والكفـر أصـبـح فـاحم الأرجـاء
هــو آيـــه الله الـتـــى أنـوارهـــا ... تجلـو ظلام الـشك أى جـــلاء
والشـمس لا تخفى مـزية فضلهـا ... إلاّ على ذى المـقلة العــمــيـــاء
يا مـــصطفى والكون لم تـعلق به ... من بعـــد أيدى الخـلق والإنشـــاء
يا مظهـــر الحق الجلى ومطـلع النـ ... ـور السـنى الســافـر الأضـــواء
يا ملجـــأ الخلق المشــفع فـيـــهم ... يا رحـمـة الأمــوات والأحـيـاء
يا آسى المرضــى ومنتــجع الـرضـا ... ومـؤاسى الأيـتـام والضـعــفـاء
أشكو إليـك وأنت خـيـر مــؤمل ... داء الـذنوب وفـى يـديك دوائـى
إنى مــددت يدى إليك تضــرعـا ... حـاشى وكـلا أن يخـيب رجـائى

إنَّ كنت لـم أخلص إليـك فـإنما   خلصت إليـك مـحبـتى وندائى
وبسـعـد مـولاى الإمام مـحـمّـد   تعـد الأمـانى أنَّ يـتـاح لقـائى
ظل الإله عـلى البـلاد وأهلهـا   فـخـر الملوك السـادة الخلفـاء
غوث العـباد وليث مـشتجـر القنا   يوم الطـعـان وفـارج الغـمـاء
كـالدهر فى سـطواته وسـمـاحـه   تجـرى صـبـاه يزعـزع ورخـاء
رقت سـجـاياه وراقـت مـجـتلى   كـالنهـر وسط الروضـة الفيـحـاء
كـالزهر فى إيراقـه والبـدر فى   إشـراقـه والزهر فـى اللألاء
يا بن الأُلى إجـمالـهم وجمـالهم   فلق الـصـبـاح وواكف الأنواء
أنصـار دين الله حـزب رسـوله   والسـابقـين بحـلبـة العليـاء
يا بن الخلائف من بـنى نصر ومن   حـاطوا ذمـار الملة السـمـحـاء
من كـل من تقف المـلوك ببـابه   يسـتـمطرون سـحـائب النعـمـاء
قوم إذا قـادوا الجيـوش إلى الوغى   فـالرعب رائـدهم إلى الأعـداء
والعـز مـجلوب بكل كـتـيـبـة   والنصـر مـعـقـود بـكل لواء
يا وارثا عنـهـا مناقـبـهـا التى   تسـمـو مـراقـيـهـا على الجـوزاء
يا فـخـر أندلس وعـصمـة أهلهـا   يجـزيك عنـهـا الله خـيـر جـزاء
كم خضت طوع صلاحهـا من مَهْمَهٍ   لا تهـتـدى فـيـه القطا للـمـاء
تهـدى بها حـادى السرى بعـزائم   تهـدى نجـوم الأفق فضل ضـيـاء
يا رافع لواء الفـخـر غيـر مـدافع   واسـحب ذيول العـزة القـعـسـاء

واهنأ بمبناك السعيد فإنه ... كهف ليوم مشورة وعطاء
لله منه هالة قد أصبحت ... حرم العفاة ومصرع الأعداء
تنتابها طير الرجاء فتجتنى ... ثمر المنى من دوحة الآلاء
لله منه قبة مرفوعة ... دون السماء تفوت لحظ الرائى
راقت بدائع وشيها فكأنها ... وشى الربيع بمسقط الأنداء
عظمت ميلاد النبى محمّد ... وشفعته بالليلة الغراء
أحييت ليلك ساهرا فأفدتنا ... قوت القلوب بذلك الإحياء
يا أيها الملك الهمام المجتبى ... فاتت علاك مدارك العقلاء
من لى بأن أحصى مناقبك التى ... ضاقت بهن مذاهب الفصحاء
وإليك منى روضة مطلولة ... أرجت أزهارها بطيب ثناء
فافسح لها أكناف صفحك إنها ... بكر أتت تمشى على استحياء

قال: وأنشد من ذلك فى مولد عام ثمانية وستين وقد كان مولانا رضى الله عنه أبى أن يرسل العنان فى مدح مقامه مبالغة فى توقير جانب المصطفى ﷺ وإعظامه فلهذا القصد الأدبى الكريم أتى من المدح السلطانى فى آخرها الملتمح القريب واكتفى من القلادة بما أحاط بالتريب ومدّ القول فى ذكر الرسول وعجائب مجده حسبما اقتضاه الاختيار من مولانا كافأ الله جميل قصده، آمين:

هذا الصباح صباح الشيب قد وضحا ... سرعان ما كان ليلا فاستنار ضحى
للدهر لونان من نور ومن غسق ... هذا يعاقب هذا كلما برحا

وتلك صبغته أعدى بنيه بها … إذا تراخى مجال العمر وانفسحا

ما ينكر المرء من نور جلا غسقا … ما لم يكن لأمانى النفس مطرحا

إذا رأيت بروق الشيب قد بسمت … بمفرق فمحيا العيش قد كلحا

يلقى المشيب بإجلال وتكرمة … مَنْ قد أعدَّ من الأعمال ما صلحا

أما ومثلى لم يبرح يُعلِّله … من النسيم عليل كلما نفحا

والبرق ما لاح فى الظلماء مبتسما … من جانب السفح إلا دمعه سفحا

فما له بقريب الشيب من قبل … من بعد ما لام فى شأن الهوى ولحا

يأبى وفائى أن أصغى لِلاَئِمَةٍ … وأن أطيع عذولى غش أو نصحا

يأهل نجد سقى الوسمى ربعكم … غيثا ينيل غليل الترب ما اقترحا

ما للفؤاد إذا هبت يمانية … تهديه أنفاسها الأشجان والبرحا

يا حبذا نسمة من أرضكم نفحت … وحبذا ربرب من جوكم سنحا

يا جيرة تعرف الأحياء جودهم … ما ضر من ضن بالإحسان لو سمحا

ما شملت بارقة من جو كاظمة … إلاّ وبت لزند الشوق مقتدحا

فى ذمة الله قلبى ما أعلله … بالقرب إلاّ وعاد القرب منتزحا

كم ليلة والدجى راعت جوانبها … قلب الجبان فما ينفك مطرحا

سريتها ونجوم الأفق فيه طفت … جواهرا وعباب الليل قد طفحا

بسابح أهتدى ليلا بغرته … والبدر فى لجو الظلماء قد سبحا

والسحب تنثر در الدمع من فرق … والجو يخلع من برق الدجى وشحا

ما طالبت همتى دهرى بمعلوة		إلاّ بلغت من الأيام مقترحا
ولا أدرت كئوس العزم مغتبقا		إلاّ أدرت كئوس العز مصطبحا
هذا وكل الذى نلت من أمل		مثل الخيال تراءى ثمت انتزحا
كم يكدح المرء لا يدرى منيته		أليس كل امرئ يجزى بما كدحا
وارحمتا لشبابى ضاع أطيبه		فما فرحت به قد عاد لى ترحا
أليس أيامنا اللائى سلفنا لنا		منزلا أعلمت فيها الخطا مرحا
إنا إلى الله، ما أولى المتاب بنا		لو أن قلبا إلى التوفيق قد جنحا
الحق أبلج والمنجاة عن كثب		والأمر لله والعقبى لمن صلحا
يا ويح نفس توانت عن مراشدها		وطرفها فى عنان الغى قد جمحا
نرجو الخلاص ولم تنهج مسالكها		من باع رشدا بغى قلما ربحا
يا رب صفحك يرجو كل مقترف		فأنت أكرم من يغفو ومن صفحا
يا رب لا سبب أرجو الخلاص به		إلاّ الرسول ولطفا منك إن نفحا
فما لجأت له فى دفع معضلة		إلاّ وجدت جناب اللطف منفسحا
ولا تضايق أمر فاستجرت به		إلا تفرج باب الضيق وانفتحا
يا هل تبلغنى مثواه ناجية		تطوى بى القفر مهما امتد وانفسحا
حيث الربوع بنور الوحى آهلة		من حلها احتسب الآمال مقترحا
حيث الرسالة تجلو من عجائبها		من الجمال بنور الله متضحا
حيث النبوة تتلو من غرائبها		ذكرا يغادر صدر الدين منشرحا

حيث الضريح بما قد ضم من كرم قد بذ فى الفخر من ساد ومن نجحا
يا حبذا بلدة كان النبى بها يلقى الملائك فيها أيَّةً سرحا
يا دار هجرته يا أفق مطلعه لى فيك بدر بغير الفكر ما لمحا
من هاشم فى سماء العز مطلعة أكرم به نسبا بالعز متشحا
من آل عدنان فى الأشراف من مضر من محتد تطمح العلياء إن طمحا
من عهد آدم ما زالت أوامره تسام بالمجد من آبائه الصرحا
عناية سبقت قبل الوجود له والله لو ووزنت بالكون ما رجحا
يا مصطفى وكمام الكون ما فتقت يا محبتى وزناد النور ما قدحا
لولاك ما أشرقت شمس ولا قمر لولاك ما راقت الأفلاك ملتمحا
صدعت بالنور تجلو كل داجية حتى نهج الحق واتضحا
يا فاتح الرسل لو يا خاتمها شرفا بوركت مختتما قدست مفتتحا
دنوت للخلق بالألطاف تمنحها والقلب فى العالم العلوى ما برحا
كالشمس فى الأفق الأعلى مجرتها والنور منها إلى الأبصار قد وضحا
كم آية لرسول الله معجزة تكل عن منتهاها ألسن الفصحا
إن ردت الشمس من بعد الغروب له قد ظللته غمام الجو حيث نحا
يا نعمة عظمت فى الخلق مِنّتها ورحمة تشمل الغادين والروحا
الله أعطاك ما لم يؤته أحد والله أكرم من أعطى ومن منحا
حبيبه مصطفاه مجتباه وفى هذا بلاغ لمن حلاّك ممتدحا

أثنى عليك كتاب الله ممتدحا فأين يبلغ فى علياك من مدحا
قد أبعدتنى ذنوبى عنك يا أملى فجهدى اليوم أن أهدى لك المدحا
لعل رحماك والأقدار سابقة تدنى محبا بأقصى الغرب منتزحا
نفس شعاع وقلب خان أضلعه مما يعانى من الأشواق قد برحا
إذا البروق أضاءت والغمام هَمَتْ فزفرتى أُذْ كِيَتْ أو مدمعى سفحا
لم لا أحن وهذا الجذع حن له لما تباعد عن لقياه وانتزحا
كم ذا التعلل والأيام تمطلنى كأنها لم تجد عنك منتدحا
ما أقدر الله أن يدنى على شحط وأن يقرب بعد البين من نزحا
يا سيد الرسل يا نعم الشفيع إذا طال الوقوف وحر الشمس قد لفحا
أنت المشفع والأبصار شاخصة أنت الغياث وهول الخطب قد فدحا
جاش العلا وجميل الظن يشفع لى أن يخفق السعى منى بعد ما نجحا
عساك يا خير من ترجى وسائله تنجى غريقا ببحر الذنب قد سبحا
ما زال معترفا بالذنب معتذرا لعلّ حبك يمحو كل ما اجترحا
عسى البشر غداة الروح يسمعنى بشرى تعود لى البؤسى بها فرحا
لا تيأسن فإن الله ذو كرم وحبك العاقب الماحى الذنوب محا
صلى الإله على المختار صفوته ما العارض انهل أو ما البارق التمحا
وأيد الله مولانا بعصمته بأى باب إلى العلياء قد فتحا
وهنأ الدين والدنيا على ملك لسعده الطائر الميمون قد سنحا

أنا الضـــمين لمكحـول بغـــرته ألا ترى عـــينه بؤسـا ولا تـرحـا
مولاى خذهـا كما شاءت بلاغـتها غراء لم تعـدم الأحجال والقـزحا
كـأن سرب قـوافـيهـا إذا سنحت طير على فنن الإحسـان قد صدحا

قال: ومن إعذارياته المحكمـة نسقا ورصفا، المتنـاهية فى كل فن حسن تحلية غريبة ووصـفا - حسبما اقـتضاه ملاحظة النسبة الرفيـعة لصنائع مولانا رحمـة الله عليه، واحتـفاله المناسب لعـز ملكه من تعميم الخلـق بالجفلى فى دعواهم واسـتدعاء أشـرف الأمم من أهل المغرب وسـواهم، تفننا فى مكارم متعـددة أيامها على أصـالة المجد معربة وإغـراء لهم الملك بما يتمم الأمن من أوضاع مغربة ومباهاة بعرض الجيوش للعدو الكافر، ومكاثرا من مماليك دولته بالعدد الوافر، مما ألجم اللسن الذكى عيا، وغادر الإعذار الذنونى منسيا، كافأ الله أبوته المولوية عنا وعن آبائنا، وتلقى بالقبول الكفـيل بتجديد الرضوان، ما نصل إليه من خالص دعائـنا إنّه منعم جواد قوله فى الصنيع المخلص من ذلك بمولانا الوالد قدس الله روحه وذلك سنة أربع وستين وسبع مئة:

معاذ الهوى أن أصـحب القلب ساليا وأن يشـغل اللوم بالعـذل باليـا[1]
دعـانى أعط الحب فـضل مقـادتى ويقضى على الوجد ما كـان قاضيا
ودون الذى رام العـواذل صـــبـوة رمت بى فى شـعب الغرام المرامـيا
وقلب إذا مـا البرق أومض مـوهنا قـدحت به زندا من الشـوق واريا
خليلـى إنى اليـوم طارقـة النوى شـقـيت بمن لو شـاء أنعم باليـا
وبالخـيف يوم الـنفـر يا أم مـالك تخلفت قلبـى فى حبـالك عـانيـا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٤٨.

وذو أُشُرٍ عـذب الثنايا مـخـصـر يسـقى به مـاء النعـيم الأقـاحـيـا
أحـوم عليـه مادجـا الليل سـاهرا وأصـبح دون الورد ظمـآن صـاديا
يمضى ظلام الليـل ما بين أضلعى إذا البـارق النجـدى وهـنا بدا ليـا
أجـيـرتـنا بالرمل والرمـل منزل مضى العـيش فيه بالشـبيبة حـاليا
ولم أر ربعـا منه أقـضى لبـانة وأشجى حـمامات وأحلى مجـانيا
سـقت ظله الغر الغـوادى ونظمت من القطر فى جـيد الغصـون لآليا
أبثـكم أى علـى النأى حـافظ ذمـام الهوى لو تحـفظون ذمـاميـا
أناشـدكـم والحـر أوفى بعـهـده ولن يعدم الإحـسان والخيـر جازيا
هل الود إلاّ مـا تحـامـاه كـاشح وأخفق فى مـسعاه من جاء واشـيا
تأوبنـى والليل يـذكى عـيـونه ويسـحب من ذيل الدجنة ضـافيـا
وقـد مثلت زهر النـجوم بأفـقهـا حـبـابا على نهـر المجـرة طافـيـا
خـيـال على بعـد المزار ألم بى فـأدركنى من لم أكـن عنه سـاليـا
عجبت له كيف اهتدى نحو مضجعى ولـم يبق منى السقم والشـوق باقيا
رفـعت له نار الصـبـابة فـاهتـدى وخاض لهـا عرض الدجنـة ساريا
ومما أجد الوجـد سرب على النقى سـوانح يصـقلن الطلى والتـراقيـا
نزعن عن الألحـاظ كل مـسـدد فـغـادرن أفـلاذ الـقلوب دوامـيـا
ولما تراءى السـرب قلت لصاحـبى وأيقنت أنَّ الحب مـا عـشت دائيـا
حـذارك من سـقم الجـفـون فـإنه سيـعدى بما يعيى الـطبيب المداويا

وإنَّ أميـر المسلمين محـمّـدا ... ليـعدى نداه السـاريات الهـواميـا
تضئ النـجـوم الزاهرات خـلاله ... وينفث فى روح الـزمـان المعـاليـا
معال إذا مـا النجم صوب طالبـا ... مـبـالغـهـا فى العـز خلف وانيـا
يســابق علوى الريـاح إلى الندى ... وتفـضح جدوى راحتـيه الغـواديا
ويغضى عن الـعوراء إغضـاء قادر ... ويرجح فى الحلم الجـبال الرواسـيا
هما يروع الأسد فـى حومة الوغى ... كمـا راعت الأسد الظبـاء الجوازيا
مناقب تسـمـو للفـخـار كـأنما ... تجـرى إلى المجد النـجوم الجـواريا
إذا اسـتـبق الأمـلاك يومـا لغـاية ... أبيت وذاك المجــد إلاّ التـناهيــا
بهـرتَ فـأخفـيتَ الملوكَ وذكـرها ... ولا عجب فالشـمس تخفى الدرايا
جلوت ظلام الظلم من كل مـعتـد ... ولا غرو أن تجلـو البدور الدياجـيا
هديت سـبيل الله من ضل رشـده ... لا زلت مـهـديا إلـيـهـا وهاديا
أفــدت وحـتـى الملك مما أفــدته ... وطوقت أشــراف الملوك الأيـاديا
وقـد عرفت منهـا مـرين سوابقـا ... تقـر لها بالفـضل أخـرى اللياليـا
وكـان أبو زيـان جـيـدا مـعطلا ... فـزينته حـتى اغـتـدى بك حاليـا
لك الخيـر لم تقصد بما قد أفـديته ... جـزاء ولكـن همـة هى مـا هيـا
فـما تكـبر الأمـلاك غـيرك آمـرا ... ولا ترهب الأشـراف غيرك ناهـيا
ولا تشـكى الأيام من داءِ فــتـنة ... فقـد عرفت منك الطبـيب المداويا
وأندلسًــا أوليتَ مـا أنـت أهله ... وأوردتهـا وردا من الأمن صـافيـا

تلافيت هذا الثغر وهو على شفى وأصبحت من داء الحوادث شافيا
ومن بعد ما ساءت ظنون بأهلها وحاموا على ورد الأمانى صواديا
فما يأملون العيش إلاّ تعللا ولا يعرفون الأمن إلاّ أمانيا
عطفت على الأيام عطف راحم وألبستها ثوب امتنانك ضافيا
فآنس من تلقائك الملك رشده ونال بك الإسلام ما كان راجيا
وقفت على الإسلام نفسا كريمة تصد عدوا عن حماه وعاديا
فرأى كما انشق الصباح وعزمة كما صقل القين الحسام اليمانيا
وكانت رماح الخط خمصا ذوابلا فأنهلت منها فى الدماء صواديا
وأوردت صفح السيف أبيض ناصعا فأصدرته فى الروع أحمر قانيا
لك العزم تستجلى الخطوب بهديه ويلفى إذا تنبو الصوارم ماضيا
إذا أنت لم تفخر بما أنت أهله فما الصبح وضاح المشارق عاليا
ويهنيك دون العيد عيد شرعته تبث به فى الخالقين التهانيا
أقمت به من فطرة الدين سنة وجددت من رسم الهداية عافيا
صنيع تولى الله تشييد فخره وكان لما أوليت فيه مجازيا
تود النجوم الزهر لو مثلت به وقضت من الزلفى إليك الأمانيا
وما زال وجه اليوم بالشمس مشرقا سرورا به والليل بالشهب حاليا
على مثله فليعقد الفخر تاجه ويسمو به فوق النجوم مراقيا
به يعمر الأنواء كل مفوه ويحدو به من بات بالفقر ساريا

ويوسف فـيـه بالجـمـال مـقنع   كـأن له من كل قلب مـناجـيـا
وأقـبل قـد شـاب الحيـاء مـهـابة   ويقلب وجـه البـدر أزهر بـاهيـا
وأقـدم لا هيـابة الحـفل واجـمـا   ولا قـاصـرا فيـه الخطا مـتـوانيـا
شـمـائل فـيـه من أبيـه وجـده   ترى العـز فـيهـا مـستكنا وباديا
فـيـا علقـا أشجـى القلوب لَوَ اننا   فـديناك بالأعـلاق ما كنت غـاليـا
جـريت فأجـريت الدمـوع تعطفـا   وأطلعت فـيـها للسـرور فـواشيـا
وكم من ولى ددون بابك مـخلص   يفـديه بالنـفس النفـيسـة واقـيـا
وصِيـدٍ مـن الحَـيَّـين أبناء قَـيْلَة   تكف العـوادى أو تبـيـد الأعـاديا
بهـاليل غـر إن أعـدوا لغـارة   أعـادوا صـباح الحى أظلم داجـيـا
فـو الله لـولا أن توخـيـت سنة   رضـيت بها أن كـان ربك راضيـا
لكانت بهـا للأعـوجـيـات جـولة   تشيب من الغلب الشبـاب النواصيا
وتتـرك أوصال الوشـيج مـقصـدا   وبيض الظبى حـمر المتـون دواميـا
ولما قـضى من سنة الله مـا قـضى   وقد حـسدت منه النجوم المساعـيا
أفـضنا نـهنى منك أكـرم مـنعم   أبى لعـمـيـم الجـود إلاّ تواليـا
فيهنى صفاح الهند والبأس والندى   وسـمر العـوالى والعتـاق المذاكيـا
ويهنى البـنود الخـافـقـات فـإنهـا   سـيعـقدها فى ذمـة النصر غـازيا
كـأنى به يشـفى الصـوارم والظبى   ويحطم فى لأم الضـلال العـواليـا
كـأنى بـه قـد توج الملك يافـعـا   وجـمع أشـتـات المـكارم ناشـيـا

وقضى حقوق الفخر فى ميعة الصبا ... وأحسن من دين الكمال التقاضيا
ما هو إلاّ السعد إن رمت مطلعا ... وسددت سهما كان ربك راميا
فلا زلت يا فخر الخلافة كافلا ... ولا زلت يا خير الأئمة كافيا
ودمت قرير العين منه بغبطة ... وكان له رب البرية واقيا
نظمت له حر الكلام تمائما ... جعلت مكان الدر فيها القوافيا
لآل بها باهى الملوك نفاسة ... وجلت لعمرى أن تكون لآليا
أرى المال يرميه الجديدان بالبلى ... وما إن أرى إلاّ المحامد باقيا

ثم قال: ومن ذلك ما أنشد فى الصنيع الثانى المختص بعمَّيْنا السيدين الأميرَيْنِ سعد ونصر، رحمة الله عليهما، وأجاد فى وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع(١).

أللمحة من بارق متبسم ... أرسلته دمعا تضرج بالدم
ولنفحة تهفو ببانات اللوى ... يهفو فؤادك عن جوانح مغرب
هى عادة عذرية من يوم أن ... خلق الهوى تعتاد كل متيم
قد كنت أعذل ذا الهوى من قبل أن ... أدرى الهوى واليوم أعذل لُوَّمى
كم زفرة بين الجوانح ما ارْتقت ... حذر الرقيب ومدمع لم يسجم
إن كان واشى الدمع قد كتم الهوى ... هيهات واشى السقم لما يكتم
ولقد أجد هواى رسم دارس ... قد كاد يخفى عن خفى توهم

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٨٤.

وذكرت عهدا فى حماه قد انقضى فأطلت فيه ترددى وتلومى
ولربما أشجى فؤادى عنده ورقاء تنفث شجوها بترسم
لا أخرب الله الطلول فطالما أشجى الفصيح بها بكاء الأبكم
يا زاجر الأظعان يحفزها السرى قف بى عليها وقفة المتلوم
لترى دموع العاشقين برسمها حمرا كحاشية الرداء المعلم
دمن عهدت بها الشبيبة والهوى سقيا لها ولعهدها المتقدم
وكتيبة للشوق قد جهزتها أغزو بها السلوان غزو مصمم
ورفعت فيها القلب بندا خافقا وأريت للعشاق فضل تهمم
فأنا الذى شاب الحماسة بالهوى لكن من أهوى مضايق مقدمى
فطعنت من قد القوام بأسمر ورميت غنج اللحاظ بأسهم
يا قاتلَ اللهُ الجفون فإنها مهما رمت لم تخط شاكلة الرمى
ظلمت قتيل الحب ثم تبينت للسقم فيها فترة المتظلم
يا ظبية سنحت بأكناف الحمى سقى الحمى صوب الغمام المسجم
ما ضر إذ أرسلت نظرة فاتك أن لو عطفت بنظرة المترحم
فرأيت جسما قد أصيب فؤاده من مقلتيك وأنت لم تتأثمى
ولقد خشيت بأن يقاد(١) بجرحه فوهبت لحظك ما أحلك من دمى
كم خضت دونك من غمار مفازة لا تهتدى فيها الليوث لمجثم

---

(١) يقاد: من القود، وهو القصاص.

والنجم يسرى من دجاه بأدهم[1] ... رحب المقلد بالثريا ملجم
والبدر فى صفح السماء كأنه ... مرآة هند وسط لج ترتمى
والزهر زهر والسماء حديقة ... فتقت كمائم جنحها عن أنجم
والليل مربد الجوانح قد بدا ... فيه الصباح كغرة فى أدهم
فكأنما فلق الصباح وقد بدا ... مرأى ابن نصر لاح للمتوسم
ملك أفاض على البسيطة عدله ... فالشاة لا تخشى اعتداء الضيغم
هو منتهى آمال كل موفق ... هو مورد الصادى وكنز المعدم
لاحت مناقبه كواكب أسعد ... فرأت ملامح نوره عين العمى
ولقد تراءى بأسه وسماحه ... فأتى الجلال من الجمال بتوءم
مثل الغمام وقد تضاحك برقه ... فأفاد بين تجهم وتبسم
أنسى سماحة حاتم وكفاك فى ... يوم اللقاء ربيعة بن مكدم
سير تسير النيرات بهديها ... وتعير عرف الروض طيب تنسم
فالبدر دونك فى علا وإنارة ... والبحر دونك فى ندى وتكرم
ولك القباب الحمر ترفع للندى ... فترى العمائم تحتها كالأنجم
يذكى الكباء بها كأن دخانه ... قطع السحاب بجوها المتغيم
ولك العوالى السمر تشرع للعدا ... فتخر صرعى لليدين وللفم
ولك الأيادى البيض قد طوقتها ... صيد الملوك ذوى التلاد الأقدم

(١) الأدهم: الأسود، وهو من أوصاف الخيل.

شيم يقر الحاسدون بفضله والصبح ليس ضياؤه بمكتم
ورث السماحة عن أبيه وجده فالأكارم ابن الأكرم ابن الأكرم
نقلوا المعالى كابرا عن كابر كالرمح مطرد الكعوب مقوم
وتسنموا رتب العلاء بحقها بأب وجد فى الخلافة وابنم
يا آل نصر أنتم سرج الهدى فى كل خطب قد تجهم مظلم
الفاتحون لكل صعب مقفل والفارجون لكل خطب مبهم
والباسمون إذا الكماة عوابس والمقدمون على السواد الأعظم
أبناء أنصار النبى وحزبه وذوى السوابق والجوار الأعصم
سل عنهم أحدا وبدرا تلفهم أهل الغناء بها وأهل المغنم
وبفتح مكة كم لهم فى يومه بلواء خير الخلق من متقدم
أقسمت بالحرم الأمين ومكة والركن والبيت العتيق وزمزم
لولا مآثرها وفضل علاهم ما كان يعزى الفضل للمتقدم
ماذا عسى أثنى وقد أثنت على عليائهم آى الكتاب المحكم
يا وارثا عنها مآثرها التى قد شيدت للفخر أشرف معلم
يا فخر أندلس لقد مدت إلى علياك كف اللائذ المستعصم
أما سعودك فى الوغى فتكفلت بسلامة الإسلام فاخلد واسلم
وافيت هذا الشعر وهو على شفى فشفيت معضل دائه المستحكم
ورعيته بسياسة دارت على مختطه دور السوار بمعصم

كم ليلة قد بت فيها ساهرا ... تهدى الأمان إلى العيون النوم

يا مظهر الألطاف وهى خفية ... ومهب ريح النصر للمتبسم

لله دولتك التى آثارها ... سير الركاب لمنجد أو مُتْهِم

ما بعد يومك فى المواسم بعد ما ... أتبعت عيد الفطر أكرم موسم

وافتك أشراف البلاد بيومه ... من كل ندب للعلا مُتَسَنِّم

صرفوا إليك ركابهم وتيمموا ... من بابك المنتاب خير ميمم

وتبوءوا منه بدار كرامة ... فالكل بين مقرب ومنعم

ودت نجوم الأفق لم مثلت به ... لتفوز فيه برتبة المستخدم

والروض مختال بحلة سندس ... من كل موشى الرقوم منعنم

ورياحه نسمت بنشر لطيمة ... وأقاحه بسمت بثغر مُلَثَّم(1)

وأريتنا فيه عجائب جمة ... لم تجر فى خلد ولم تتوهم

أرسلت فيه سرعان الجياد كأنها ... أسراب طير فى التنوفة حوم

من كل منحفز بخطفة بارق ... قد كاد يسبق لمحة المتوهم

طرف يشك الطرف فى استثباته ... فكأنه ظن بصدر مرجم

ومسافر فى الجو تحسب أنه ... يرقى إلى أوج السماء بسلم

---

(1) فى الأصل: «مثلم» وبهامشه: «فى الأصلين وبعض نسخ نفح الطيب: مسلم، وفى النسخة الخطية من نفح الطيب «ملثم» وظاهر أن كلا اللفظين محرف عما أثبتناه. والمثلم: المفلج الأسنان.

هذا والمثبت من نفح الطيب ج7 ص 187 (ت: إحسان عباس) وبهامشه: «فى أصول أزهار الرياض وفى التجارية: مسلم، وصححه محققو الأزهار: «مثلم» وأثبتنا ما فى ق، لكونه أقرب إلى الصواب.

رام استـــراق السـمـع وهو ممنع | فأصيب من قـضب العصى بأسهم
رجمته من شهب النصال حواصب | لولا تعـرضـه لهـا لـم يرجم
ومـدارة الأفـلاك أعـجـز كنهـهـا | إبداع كـل مـهنـدس ومـهـندم
يمشى الرجال بـجوفها وجمـيعهم | عن مـسـتوى قـدمـيه لم يـتقـدم
ومنوع الحـركات قـد ركب الهـوا | يمـشى علـى خط به مـتـوهم
فـإذا هوى من جـوه ثم استـوى | أبصـرت طيـرا حل صـورة آدمى
يمـشى على فنن الـرشـاء كـأنه | فـيـه مـسـاور ذابل أو أرقم
وإليك من صـوب العقـول عقـيلة | وقـفت ببـابك وقـفـة المسـترحم
ترجـو قـبـولك وهو أعظم منحـة | فـاسـمح به خلدت من مـتكرم
طارت فـيـهـا وصف كل غـريبـة | فنـظمت شـارده الذى لم ينـظم
ودعـوت أرباب البـيـان أريهم | «كم غـادر الشـعراء من متـردم»
مـا ذاك إلأ بعض أنعـمك التى | قـد عـلمـتنـا كـيف شكـر المنعم

ثم قال: وأنشد من ذلك فى الـصنيع المخصوص بعمنا الأميـر أبى عبد الله رحـمة الله تعـالى عليـه، وأطنب فى وصـف دار الملك وغـيـر ذلك من ضخامة آثار مولانا الجد رضى الله عنه[1]:

سل الأفق بالزهر الكواكـب حاليـا | فـإنى قـد أودعـته شـرح حـاليـا
وحـملت مـعـتل الـنسـيم أمـانة | قطعت بهـا عـمـر الزمان أمـانيـا
فيا من رأى الأرواح وهى ضـعيفة | أحـملها مـا يسـتـخف الرواسيـا

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٨٨.

وساوس كم جدت وجد بى الهوى فـعـد بهـا القلب المقـلب هازيا

ومن يطع الألحاظ فى شرعة الهوى فلا بد أن يعـصى نصيحا ولا حـيا

عـدلـت بقلبى عن ولاية حكـمـه غداة ارتضى من جـائر اللحظ واليا

ومـا الحب إلاّ نظرة تبعث الهـوى وتعـقب ما يعـيى الطبـيب المداويا

فـيا عـجبا لـلعينْ تمشى طـليقـة ويصـبح من جرائهـا القلب عانيـا

ألاَ فى سـبيل الله نفس نفـيسـة يرخصُ منهـا الحب ما كـان غاليـا

ويا رب عـهد للشـبـاب قضـيتـه وأحسنت من دين الوصال التقاضيا

خلوت بمن أهوى من غـيـر رقبـة ولكن عـفافى لم آكـن عنه خاليـا

ويوم بمسـتن الظبـاء شـهـدته أجـد وصـالا بـاليـا فـيـه بـاليـا

ولم أصح من خمر اللحاظ وقد غدا به الجـو وضـاح الأسـرة ضاحـيـا

وجرد من غـمد الغـمامة صـارما من البرق مـصقول الصفيح يـمانيا

تبـسم فاسـتبـكى جفـونى عبـرة مـلأت بُدّر الدمع منهـا ردائيـا

وأذكـرنى ثغـرا ظمـئت لورده ولا والهوى العذرى مـا كنت ناسيا

وراح [خفوق](١)القلب مثلى كأنما ببرق الحـمى من لوعة الحب مـابيا

وليلة بات البـدر فيهـا مضـاجعى وباتت عيون الشـهب نحوى روانيا

كـرعت بهـا بيـن العـذيب وبارق بمورد ثغـر بـات بالدر حـاليـا

رشفت بهـا شهد الرضاب سـلافة وقـبلت فى ماء النـعيم الأقـاحيـا

---

(١) التكملة من نفح الطيب جـ٧ ص ١٨٩ .

فيا برد ذاك الثغر رويت غلتى ويا حر أنفاسى أذابت فؤاديا
وروضة حسن للشباب نضيرة هصرت بغصن البان فيها المجانيا
وقد بت أسقى وردة الخد أدمعى فأصبح فيها نرجس اللحظ ذاويا
ومالت بقلبى مائلات قدودها فما للقدود المائلات وماليا
جزى الله العهد عودا فطالما أعاد على ربع الظباء الجوازيا
وقل لليال فى الشباب نعمتها وقضيتها أنسا سُقِيتِ لياليا
ويا واديا رفت على ظلاله ونحن نديم الوصل فُدِّيت واديا
رمتنى عيون السرب فيه وإنما رمين بقلبى فى الغرام المراميا
فلولا اعتصامى بالأمير محمّد لما كنت من فتك اللواحظ ناجيا
فقل لذى يبنى على الحسن شعره عليه مع الإحسان لا زلت بانيا
فكم من شكاة فى الهوى قد رفأتها ورقّعتها بالمدح إذ جاء تاليا
وكم ليلة فى مدحه قد سهرتها أباهى بدر النظم فيه الدراريا
ولاح عمد الصبح مثل انتسابه رفعت عليه للمديح المبانيا
إمام أفاد المكرمات زمانه وشاد له فوق النجوم المعاليا
وجاوز قدر البدر نورا ورفعة ولم يرض إلاّ بالكمال مواليا
هو الشمس بثت فى البسيطة نفعها وأنوارها أَهْدَتْ قريبا وقاصيا
هو البحر بالإحسان يزخر موجه ولكنه عذب لمن جاء عافيا
هو الغيث مهما يمسك الغيث سحبه يروى بسحب الجود من كان صاديا

شـمـائله لو أنَّ الرياض بحـسـنهـا لمّا صـار فيـهـا زهرها الغض ذاويا
فيا بن الملوك الصـيد من آل خزرج وذا نسب كـالصـبح عز مـسـاميـا
ألست الذى ترجـو العـفـاة نواله فتـخجل جدواه السحـاب الغواديا
ألست الذى تخـشى البغـاة صيـاله فـتنزل علياه الصـعـاب العـواديا
وهديك مهما ضلـت الشهب قصدها تولـتـــه فى جنح الـدجنة هـاديا
[وعزمك أمضى من حسامك فى الوغى وإن كان مصقول الغرارين ماضيا](١)
فكم قـادح فى الدين يكفـر ربه قـدحت له زند الحـفـيـظة واريا
ومـا راعـه إلاّ حـســام وعـزمـة يضيـئان فى ليل الخطوب الدواجـيا
فلولاك يا شـمس الخـلافـة لم يبن سبـيل جهـاد كان من قـبل خافـيا
ولولاك لم ترفع سـمـاء عـجاجـة تلوح بهـا بيض النصـول دراريا
ولولاك لم تنهل غـصـون من القنا وكـانت إلى ورد الـدمـاء صـواديا
فـأثمر فـيهـا النصل نصرا مـؤزرا فـأجنى قطاف الفتح غـضا ودانيـا
ومهـما غـدا سفـاح سيفـك عاريا يغـادر وجـه الأرض بالدم كاسيـا
قـضى الله من فوق الـسمـوات أنه على من أبى الإسلام فى الأرض قاضيا
فكم مـعقل للكفـر صبـحت أهله بجـيش أعـاد الصبح أظلـم داجيـا
رقـيت إليـه والسيـوف مـشـيحـة وقـد بلغت فيـه النفوس التـراقيـا
فـفـتـحت مَــرْقـاه المـمـنع عنوة وبات به التـوحـيـد يعلـو مناديا

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٩٠.

وناقوسه بالقسر أمسى معطلا ومنبره بالذكر أصبح حاليا
عجائب لم تخطر ببال وإنما ظفرنا بها عن همة هى ماهيا
فمنك استفاد الدهر كل عجيبة يباهى بها الأملاك أخرى لياليا
وعنك يروى الناس كل غريبة تخط على صفح الزمان أماليا
ولله مبناك الجميل فإنه يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للأبصار من متنزه تجد به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك فى أفق السماء جواريا
ولو مثلك فى ساحتيه لسابقت إلى خدمة ترضيك منها الجواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة جللته بحليها من الوشى تنسى السبارى اليمانيا
وكم من قسى فى ذراه ترفعت على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها تظل عمود الصبح إذ لاح باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها على عظم الأجرام منها لآليا
به البحر دفاع العباب تخاله إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ما جلت أيدى الصبا صفح متنه أرتنا دروعا أكسبتنا الأياديا
وراقصة فى البحر طوع عنانها تراجع ألحان القيان الغواليا

إذا ما علت فى الجو ثم تحدرت　　تحلى بمرفض الجمان النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر　　غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد　　فلم أدر أيا منهما كان جاريا
فإن شئت تشبيها له عن حقيقة　　تصيب بها المرمى وبوركت راميا
فقل أرقصت منها البحيرة بنتها　　كما يرقص المولود من كان لاهيا
أرتنا طباع الجود وهى وليدة　　ولم ترض فى الإحسان إلاّ تغاليا
سقت ثغر زهر الروض عذب برودها　　وقامت لكى تهدى إلى الزهر ساقيا
كأن قد رأت نهر المجرة ناضبا　　فرامت بأن تجرى إليه السواقيا
وقامت بنات الدوح فيه مواثلا　　فرادى ويتلو بعضهن مثانيا
رواضع فى حجر الغمام ترعرعت　　وشبت فشبت حبها فى فؤاديا
بها كل ملتف الغدائر مسبل　　تجيل به أيدى النسيم مداريا
وأشرف جيد الغصن فيها معطلا　　فقلدت النوار منه التراقيا
إذا ما تحلت در زهر غروسه　　يبيت لها النمام بالطيب واشيا
مصارفة النقدين فيها بمثلها　　أجاز بها قاضى الجمال التقاضيا
فإن ملأت كف النسيم مع الضحى　　دراهم نور ظل عنها مكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها　　دنانير شمس تترك الروض حاليا
تغرد الطير فى أفنانها كلما　　تجس به أيدى القيان الملاهيا
تراجعها سجعا فتحسب أنها　　بأصواتها تملى عليها الأغانيا

فلم ندر روضـا منه أنعم نـضـرة وأعطر أرجـاء وأحلى مـجـانيا

ولم نر قـصـرا منه أعلـى مظاهرا وأرفع آفـاقـا وأفـسح نـاديا

معـانى من نفس الكمال انتـقيتـها وزينت منهـا بالجـمـال المغـانيا

وفـاتحت مـبناها بعـيـد شـرعـتـه تبث به فى الخـافـقـين التـهـانيا

ولما دعـوت الناس نـحـو صنيـعـه أجـابوا له من جانب الغـورِ داعيـا

وأمـوه من أقـصى البـلاد تـقـربا وما زال منك السعد يدنى الأقاصيا

وأذكرت يوم الـعرض جودا ومنـعة بموقف عـرض كنت فـيه المجـازيا

جـزيت به كلا على حـال سـعيـه فـما غـرست يمناه أصبـح جـازيا

وأطلعت من جزل الوقـود هو ادجا تذكـر يوم النفـر من كان سـاهيـا

وحـين غـدا يذكى ببـابك للقـرى فـلا غرو أن أجـريت فيـه المذاكيـا

وطامـحـة فى الجـو غـيـر مطالة يرد مـداها الطرف أحـسر عـانيـا

تمد لهـا الجـوزاء كف مـصـافح ويدنو لهـا بدر الـسـمـاء مناجـيـا

ولا عجب أن فاتت الشـهب بالعلا وأن جـاوزت منهـا المدى المتناهيـا

فـبين يـدى مثـواك قـامت لخدمـة ومن خـدم الأعلى استـفاد المعالـيا

وشـاهـد ذا أنى ببـابك واقف وقـد حسـدت زهر النجوم مكانيـا

وقد أرضـعت ثدى الغمـائم قبلـها رياض كـن فـيـه نواشـيـا

فلمـا أُبينت عـن قـرارة أصلهـا أرادت إلى مـرقى الغـمام تعـاليـا

وعدت لقاء السحب عـيدا وموسما لذاك اغتـدت بالزمر تلهى الـغواديا

فـأضحك البـرق الطروب خلالهـا وبات لأكـواس الدرارى مـعـاطيـا
رأت نفـسـهـا طالت فظنت بأنهـا تفـوت على رغم اللحـاق المراميـا
فـخـفت إليـهـا الذابلات كـأنهـا طيــور إلى وكــر أطلن تهــاويا
حنكت شبهـا للنحل والنحل حوله عـصى إلى مـثواه نـهوى عـواليـا
فـمن مثـبت منهـا الرمـية مـدرك ومن طائش فى الجـــو حلق وانيـا
وحـصن منيـع فى ذراه قـد ارتقى فـأبعد فى الجـو الفـضـاء المراقيـا
كـأن بروج الأفق غارت وقـد رأت بروج قـصـور شـدتهن سـوامـيـا
فـأنشـأت برجـا صـاعـدا مـتنزلا يكـون رسـولا بيـنهن مـداريا
تظورت حـالات أتى فى ضروبهـا بأنواع حلـى تسـتـفـز الغـوانـيـا
فحـجل برجليهـا وشاح بخـصرها وتاج إذا مـا حل منـهـا الأعـاليـا
ومـا هـو إلاّ طيـر سـعـد بذروة غدا زاجرا من أشـهب الصبح بازيا
أ مـولاى يا فـخـر الملوك ومن به سـيـبلغ دين الله مـا كـان راجـيـا
بنوك على حكم السـعادة خـمسـة وذا عـدد للعـيـن مـا زال واقـيـا
تبـيت لهم كـف الثريا مـعـيـذة ويصـبح مـعـتل النسـيم رواقـيـا
أسـام عليـهـا لـلسـعـادة مـيـسم ترى العـز فـيـهـا مـسـتكنا وباديا
جعلت أبا الحـجاج فـاتح طرسهم وقد عـرفت منك الفـتوح التوالـيا
وحـسـبك سعـد ثم نصـر يليـهم محـمّد الأرضى فـما زلت راضـيا
أقـــمت به من فـطر الدين سـنة وجـددت من رسم الهداية عـافيـا

وجـاءوا به ملء العـيـون وسـامـة ... يقلب وجـه البـدر أزهر باهيـة

فـيـا عـاذراً مـا كـان أجـرأ مـثله ... فمـثلك لا يدمى الأسود الـضواريا

وجاءتك من مـصر التحايا كـرائما ... كمـا فتـقت أيدى التجـار الغواليـا

ووافـتك من أرض الحجـاز تميمـة ... تتـمم صـنع الله لا زال بـاديا

وناداك بالتـهـويل سـلطان طيـبـة ... فـيـا طيب مـا أهدى إلـيك مناديا

وقـام وقـد وافى ضريـح محـمّـد ... لسلطـانك الأعلى هنالك داعـيـا

سريرتك الـرحمى جزاك بسـعيـها ... اله يوفى فـى الجـزاء المسـاعـيـا

فـوالله لـولا سنـة نبـوية ... عـهـدنـاه مـهـديا إليـهـا وهاديا

وعـذر من الإعـذار قـرر حكمـه ... من الشـرع أخـبار رفـعن عـواليـا

لراعت بهـا للحرب أهوال مـوقف ... تشـيب بمبـيض النصـول العـواليـا

لك الحـمـد فـيـه من صنيع تعـده ... فـثـالثـه فى الـفـخـر عـزز ثانيـا

تشـد له الجـوزاء عـقـد نطاقـهـا ... لتـخـدم فـيـه كى تـنال المعـاليـا

وهنيت بالأمـداح فـيـه وقـد غـدا ... وجـودك فـيـه بالإجـادة وافـيـا

ودونك من بحـر البـيـان جـواهرا ... كـرمن فـمـا يشـرين إلاّ غـواليـا

وطاردت فـيهـا وصف كل غريبـة ... فأعجزت من يأتى ومن كان ماضيا

فـيا وارث الأنصـار لا عن كـلالة ... تراث جـلال يسـتـخف الرواسـيـا

بأمـداحـه جـاء الكتـاب مفـصـلا ... يرتله فـى الذكـر من كـان تـاليـا

لقـد عـرف الإسـلام مما أفـدته ... مـكارم أنـصـاريـة وأياديـا

عليك سـلام الله فـاسم مـخلدا   تجـدد أعـيـاد وتبـلى أعـاديا

ثم قال: ومن ذلك أيضًا فيما اعتمدنا به نحن وأخونا المتولى بالأمر بعد مـولانا الوالد رحمـة الله على الجـميـع من تلك الصنائع وهى جـامعـة لجم الأوصاف والبدائع:

نجـوم أمـدتهـا بـدور كـوامل   لها النور من شمس الخـلافة شامل

وفى الشهب من بـدر السماء مـشابه   وفى البدر من شمس النهار مخايل

وتعـرف فيـها من أبـيهـا شمـائل   كـما فى أبيـهـا من أبيـه شمـائل

مـراتب فى عـدد الحـسـاب ثلاثة   وهن لأقـمـار العـلاء منازل

طلعن عـلى حكم السـعـود أهلة   وسـرعـان مـا تبـدو وهن كـوامل

تجلت إلى الأبصـار من أفق الهدى   وبثت إلى الأنصـار منهـا وسـائل

فـيـأيهـا المـولى الذى شـاد آخـرا   من الفخـر ما لم تسـتطعه الأوائل

بنـوك كـأمـثل الأنامل عـدة   فـزانت يد الإسـلام تلك الأنامل

غصون بروض الجود منك ترعرعت   وقد جادها من صـوب نعماك وابل

فـوا مـا أدرى إذا مـا تـذوكـرت   أأخـلاقـهـا تجلى لـنا أم خـمـائل

غـيوث سـمـاح والعـفاة مـسـايل   ليـوث كـفـاح والكمـاة تنازل

سيـوف محـلاة على عاتق الـهدى   إذا تنتـضى تمضى وتنبـو المناصل

تخـاف عـداة الدين مـنهم وتتـقى   كـما تتـقى الأسـد الظباء الجـوافل

وإنَّ أبا الحـجـاج وهو كـبيـرهم   مـحل كـثيـر دونه مـتـضـائل

مليك إذا اتـقـبلت غـزة وجـهـه   تخليت أنَّ الشـمس فـيمـا تقـابل

إذا استمطرت فى المحل سحب بنانه　　فهن لمستجد هوام هوامل

وإن سال ماء البشر فوق جبينه　　فليس بمدفوع عن الورد سائل

تقلد منه عاتق الملك صارما　　له العزم نصل والسعود حمائل

وأبناؤه در تناسق عقده　　يحلى بهم من لبة الفخر عاطل

أزهار فى روض المحاسن أينعت　　فلا روضها ذاو ولا الزهر ذابل

زواهر فى أفق العلاء تطلعت　　يشابه بعض بعضها ويشاكل

فما منهم إلاّ أغر محجل　　بورد المعالى فى الشبيبة ناهل

أقمت لها الإعذار موسم رحمة　　تسنت به للمستقين المآمل

وما هو إلاّ مورد لسعادة　　تفيض لها منه المنى والفواضل

وأجريت سرعان الجياد بملعب　　تذكر فيه موقف الجد هازل

نجوم وآفاق الطراد مشارق　　عليها بدور من وجوه كوامل

مفاتيح أبواب الفتوح فطالما　　أبيحت بها للكافرين المعاقل

فأشهب كالإصباح راق أديمه　　وغالت به شهب السماء الغوائل

ألم تر أنَّ الشهب فى الأفق كلما　　تجلى له الإصباح فهى أوائل

وأحمر زان الورد منه خميلة　　يحف به نهر من السيف سائل

جرت لونه من فوقه مهج العدا　　فلله منه الجامد المتسايل

تلاقى به أمثاله فكأنها　　جمار وقد أذكى بها البأس باسل

إذا قبست بالركض فى حومة الوغى　　تنير بها ليل القتام مشاعل

وأشقر مهما جاول البزق فى مدى يفـوت جـواد البـرق منه المجـاول
تحلى بمـحلول النضـــار أديمـه فكل مــحلى دونه فـهــو عـاطل
وأدهم فى مـسح الدجى مـتلفع وقد خاض منه فى الصباح الأسافل
يكلـل بالجـوزاء حلى لجـامـه فـدر الدرارى من حـلاه عـواطل
ولم يرضه سـرج الهلال مفضـضا فـأعـرض عنهـا للأهلـة ناعل
وأصفر فى ثوب الأصيل قد ارتدى وربتـمـا ودت حـلاه الأصـائل
وقـد قُـدّ من برد العـشى جـلاله وفى ذيله صـبغ من الليل حـائل
وصـاعـدة فى الجـو ملء عنانهـا تسـامت أعنان السـمـا وتطاول
طلعت تحـيى البدر منهـا بصعـدة عليهـا لواء الصبح فى الأفـق مائل
وقد أعربت بالرفع عن طيب فخرها متى نصبتهـا فى الفضـاء العوامل
يمد لـها الكف الخـضيب بسـاعد ويشكى السمـاك الأعزل الرمح عامل
وتنتـابهـا هيـف العـصى كـأنهـا سـهـام وعـاها للرمـيـة نابل
تراوغـهـا طورا وطورا تضـيفـهـا فـسـام لأعلى مـرتقـاها ونازل
وبالأمس كانت بعض أغصان دوحها فنقـلهـا عنهـا على الرغـم ناقل
فـحنـت إلى أوطانهـا وتسـابقت تعـارد مـسـراها بهـا وتواصل
وبرج منيف فـى ذراها قـد ارتقى لتـرفع منـه للبـروج الرسـائل
تطور حـالات أتى فى جمـيـعهـا بأوضـاع حلى وصـفـه مـتـغـافل
فـتاج بأعـلاها وشـاح بخصـرها وفى الساق منه قـد أديرت خلاخل

ومـــا هـــو إلاّ قـــائم مـــد مـــلكه ... إلى الله فى البـقايـا لما صد سـائل
ولله عـينا من رأى القـصـر حـوله ... منازل فـيـهـا للسعـود منازل
تروقك فــيــه للبــدور مـطالع ... إذا مـثلت فى سـاحـتيـه الأمـاثل
مظاهـر أقــمــار مــراتب أنجم ... منازل بـالنصـر العـزيـز أواهل
وقـد كـان هول الحـفل روع أهله ... وأشـعرت الإشـفاق تلك المحـافل
فــأبدت به أبناء نجلـك أوجـهـا ... تبـين إلى السـارين منهـا المجـاهل
فلا الحفل مرهوب ولا الخطو قاصر ... ولا السرب مـرتاع ولا الروع هائل
ولا القلب منخـوب ولا الحلم طائش ... ولا العقل معـقول ولا الفكر ذاهل
أولئك أبـناء الخـلافـة بوكـروا . ... وتجـرى على أعـدائـهن الصـواهل
هنيـئــا بهـا من سنة نـبـوية ... زها الفخر محصول لديها وحاصل
ورحـمى له مـن عـاذر بان عـذره ... وأوهـم نقـصـا فـضله مـتطاول
فنقص الهـلال الأفق ما زال مـؤذنا ... لمرآه أن يـبـدو لنـا وهو كـامل
ومن نقص ظل الشمس تزداد رفعة ... إلى أن ترى والظل فى الشرق مائل
وإن تابع النقـص الشـهـور فـإنهـا ... علـى إثره تأتـى وهن كـوامل
ونقص صـلاة الظـهـر يوم عـروبة ... لمعنى كـمـال أوضـحـتـه الدلائل
وإن نقص البـازى رياش جناحـه ... يزيد اسـتبـاقا وهو للصـيد خـاتل
وتستـفرغ الأنعام ما فى ضـروعها ... عَـشِـيًّـا لتـغدو والضروع حـوافل
ونقص زكـاة المال فـيـه وفـوره ... ومشق ذباب السيف يخـشاه صاقل

لك الخير من صنع جلوت محاسنا يحـدى بها حـدى السـرى ويناقل
ألا هكذا فليـعـقـد الفخـر تاجـه ويسـمـو إلـى أوج العـلا ويطاول
بأبلج غــار الصـبح منه بطـلعـة لهـا البـدر تاج والـنجـوم قـبـائل
إذا خطب العلـيـا تخطت بركـبـه على خطـر المسـعى القنا والـقنابل
ولو رام إدراك النـجـوم بـحـيلة لأحـرز من إدراكـهـا مـا يحـاول
وإن طلبت زهر الـنجـوم لحـاقـه فـمن دون ما تبـغى المدى المتطاول
وتخــفق بالنصــر العــزيز بنوده إذا خفـقت فيهـا الصبا والشـمائل
وليل جـهـاد بـات يرعى نجـومـه فـلا الليل منجـاب ولا النجم آفل
يراعى حــمـاة الدين فـيــه بمقلة يرعى بهـا الإسـلام كـاف وكـافل
إذا اشـتـاق هز الريح خـافق بنده وإن حن غنتـه الجـيـاد الصـواهل
وفى الله عن وصل الأحبـة مرغب وفى الغـزو عن ذكر المنازل شـاغل
من الخـزرجـيـين اللذين نمـتـهم عـشـائر من قـحطانهـا وفـصـائل
تسـامى إلى ماء السـمـاء فجـوده بماء السـمـاء فى البـسيطة حـائل
أقـول لمسـتـام الـربيع وقـد غـدا يرود مصـاب الغيث والعـام ماحل
أمــــــامك دار لـلـغنـى بربـه بأرجـائهـا للـمـعـتـفـين مناهل
تجـر من كـفـيــه عـشـرة أبحـر يغص بـهن البــحـر وهـى أنامل
فتجرى بهـا سفن الرجاء إلى مدى وليس إلى الجودى من الجود ساحل
فـراجيـه تستـجـدى العفـاة نواله وسـائله تزجـى إليـه الوسـائل

أحـاديث عنه فى السـماح غـريبـة ... يروى عـواليـهـا عـطاء وواصل
لك الله من تـول غـمــام بـنانه ... أقـامت فروض البـر منهـا النوافل
طلعت بأفـق الغـرب نيـر رحـمـة ... وقد شـرقت منك العلا والفـضائل
فحمـدك أحرى ما أفادت حـقائب ... وذكـرك أسنى مـا أقلت رواحل
تروم جوارى الشهب شأوك فى العلا ... ومن دونـه للنـيـرات مـراحل
وفى الصبح مـن ذاك الجبين أشـعة ... وفى الشمس من ذاك المحـيا دلائل
وفى الروض من رياك عرف ونفحة ... وفى الغيث من يـمناك جود ونائل
إذا أنت لـم تزج الجنـود إلى العـلا ... فـإنَّ جنـود الله عنك تـقـاتل
وإن لـم تقـومهـا سـهامـا مريشـة ... فـإن سـهـام الله عنك تـناضل
تريش لك الأقـدار أسـهم أسـعـد ... تصـاب بهـا للـدار عـين مـقـاتل
لك العـز تستـجلى الخطوب بنوره ... فلـيس له إلاّ الصـبـاح مماثل
إذا العزم لم يـصقل حسـام كَمِـيِّه ... فـما نافع مـا قـد جلتـه الصيـاقل
فقـبل مضاء السيـوف تمضى عزائم ... وبعـد بنـاء الرأى تبنـى المعـاقل
وما يستـوى - والعلم لله وحده - ... عليم بأعـقـاب الأمـور وجـاهل
تظلل سحب الطيـر جيشك حيـثما ... تميـل به الرايات وهـى حـوامل
فـلاقى بهـا عـقـبـان طيـر وراية ... تبـدى الأعـادى والرماح حـبـائل
فـقل لعمـيد الروم دونك فـارتقب ... طلائع فـيـهـا للـمنايا رسـائل
وشم بارق السـيف اللموع جـفونه ... سـحـاب قتـام تحـتـه الدم سـائل

ولا تزجر الغربان فى البحر إنها سفائن والبحر المذلل حامل
ولكنها والله ينجز وعده جوار بآساد الرجال حوامل
ومخضرة الأرجاء فى جنباتها مارح تحميها الرماح الذوابل
ترى الدوح منها بالأسنة مزهرا إذا ما سقته للسيوف الجداول
تبل غليل الرمح من مهج العدا إذا ما كست منها الرماح غلائل
فيا عجبا للرمح رويته دما وقد راق منه العين ريان ذابل
لقد كملت فيك المحاسن كلها وما كل من يعطى الخلافة كامل
فعند جميع الخلق شكرك عاجل وعند الإله الحق أجرك آجل
ودونك من نظمى جوهر حكمة يفاخر منها السحر بالشعر بابل
وما هو إلاّ ذكر أوصافك العلا فتفعل يا مولاى والعبد قائل
فتتلى على الأسماع منها بدائع وتجلى على الأبصار منها عقائل
ولو أننى أدركت أعصار من مضى لمّا قال فيها الشاعر المتخايل
«وإنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل»
ولافتخرت قدما إياد بقسها ولا استصحبت سحبان فى الفخر وائل
فلا زلت يا مولاى مورد رحمة عطاش الأمانى فى رضاك نواهل
تقيم رسوم المعلوات بمغرب وذكرك فى أقصى البسيطة حائل
وأدركت فى الأعداء ما أنت طالب وبلغت فى الأبناء ما أنت آمل

ثم قال: ومن ذلك فى الصنيع المختص بالأمراء الجلة، أخينا المعز لدولتنا أبى الحسن، وأخينا أبى العباس، وابن عمنا أبى عبد الله، وصل الله سعودهم، ولقد أبدع فى تشييده وتأسيسه، وبسط يد الحسن من براعة تخميسه، وذلك عام عودة مولانا رحمة الله تعالى عليه من سبتة لما عادت إلى ملكه، قال:

أرقت لبرق مثل جفنى ساهرا ينظم من قطر الغمام جواهرا[1]
فأضحك زهر الروض منه أزاهرا وصبح حكى وجه الخليفة باهرا
تجسم من نور الهدى وتجسدا
شفائى معتل النسيم إذا انبرى وأسند عن دمعى الحديث الذى جرى
وقد فتق الأرجاء مسكا وعنبرا كأن الغنى بالله فى الروض قد سرى
فهبت به الأرواح عاطرة الردا
عذيرى من قلب إلى الحسن قد صبا تهيجه الذكرى ويصبو إلى الصبا
ويجرى جياد اللهو فى ملعب الصبا ولولا ابن نصر ما أفاق وأعتبا
رأى وجهه صبح الهداية فاهتدى
إليك أمير المسلمين شكاية جنى الحسن فيها للقلوب جناية
وأعظم فيها بالعيون نكاية وأطلع فى ليل من الشعر آية
محيا جميلا بالصبح قد ارتدى
بهديك تهدى النيرات وتهتدى وأنوارها جدوى يمينك تجتدى

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٩٦.

وعـدلك للأمـلاك أوضح مرشـد بآثار فى مـشـكل الأمـر تقـتـدى

فما بال سلطان الجمـال قد اعتدى

تحكم منا فـى نفـوس ضـعـيـفـة وسل سـيوفا مـن جفـون نحيـفة

ألم يدر أنـا فى ظلال خليـفـة ودولة أمـن لا تراع منيـفـة

بهـا قـد رسا دين الهـدى وتمهـدا

خـذوا بدم المشـتـاق لحظا أراقـه وبرقـا بأعـلام الثنيـة شـاقـه

وإن كلفـوه فـوق مـا قـد أطاقـه يبث حـديثـا مـا ألذ مسـاقـه

خليـفـتنا المولى الإمـام مـحـمّـد

تقلد حكـم العـدل دينا ومـذهبـا وجـور الليـالـى قـد أزاح وأذهبـا

فـيا عـجبـا للشـوق أذكى وألهبـا وسل صبـاحا صارم البرق مـذهبا

وقد بات فى جفن الغمـامة مغمدا

يذكـرنـى ثغـرا لأسـمـاء أشـنبـا إذا ابتسـمت تجلو من الليل غيهـبا

كـعزم أمـير المسلمـين إذا احتـبى وأجرى به طرفا من الصـبح أشهبا

وأصـــدر فـى ذات الإله وأوردا

فسـبحان من أجـرى الرياح بنصره وعطـر أنفـاس الرياض بشـكره

فبرد الصـبا يطوى على طيب نشره ومهـما تجلى وجـهه وسط قـصره

ترى هالة بـدر السـمـاء بـهـا بدا

إمـــام أفـــاد المـعلوات زمـــانه فـمـا لحـقت زهر الـنجـوم مكانه
ومـدّ على شـــرق وغــرب أمـانه ولا عـيب فـــيـه غــيـــر أنّ بنانه
تغرق مـستجـدية فى أبحر الندى

هو البــحــر مدّ العــارض المتــهللا هو البـدر لكــن لا يزال مكتــمـلا
هو الدهر لا يخشى الخطوب ولا ولا هو العلم الخفــاق فى هضبــة العلا
هو الصارم المشهور فى نصرة الهدى

أمـا والذى أعطى الوجود وجــوده وأوسع من فــوق البـسيطة جـوده
لقـد أصحب النصـر العــزيز بنوده ومـدينة بأمـلاك الــسـمـاء جنوده
وأنجـز للإســلام بالنصـر موعـدا

أمـولاى قـد أنجـــحت رأيا ورواية ولم تبق فــى سـبق المكارم غـــاية
فتــهدى ســجاياك ابن رشــد نهاية وإن كــان هذا السـعـد منك بداية
سـيبـقى على مـر الزمان مـخلدا

سـعودك تغنى عــن قراع الكتــائب رجودك يزرى بـالغمام الـسواكب
وإن زاحــمتــها شــهـبهـا بالمناكب ووجــــهك بدر المنتــدى والمواكب
وقد فسـحت فى الفخر أبناؤك المدى

بنوك كـــأمـــثــال الأنامل عـــدة أعـدت لمّا يخشى من الدهر عـدة
وزيد بهـم برد الخــلافــة جـــدة أطال لهـم فى ظل ملـكك مـــدة
إله يطيـل العـمـــر منك مـــؤبدا

يدور بأوصـاف الكمـال استـقلت غـمـام بفيـاض النوال اسـتـهلت
سيوف على الأعـداء بالنصر سلت نجــوم بآفـــاق العــلاء تجـلت

ولاحت كما شاءت سعودك أسعدا

وإنَّ أبا الحـجـاج سيـفك منتـضى وبدر بآفـــاق الجـمـال تعـــرضـا
بنورك يا شـمس الخلافـة قد أضـا وراقت على أعطافـه حلل الرضـا

فـحل مـحـلا من رضـاك ممهـدا

ملـيك له تعـنو الملـوك جـــلالة يجــرر أذيـال الفــخـــار مـطالة
وتفـرق أسـد الغـاب مـنه بسـالة وترضـاه أنصـار الرسـول سـلالة

فـأبناؤه طابوا فـروعـا ومحـتـدا

أزاهر فى روض الخـلافـــة أيعنت زواهر فـى أفق العـــلاء تطلـعت
جواهر أعيت فـى الجمال وأبدعت وعن قيـمة الأعلاق قـدرا ترفعت

يسر بـهـا الإسلام غـيبـا ومشـهدا

بعـهـد ولى العـهـد كرم عـهـده وأنجـز فى تخلـيـد ملكك وعـده
تنظم منهم تحـت شملك وعـقـده وأورثهم فـــخـــرا أبـوه وجـــده

فأعلى عـليا حين أحـمد أحـمدا

تحـــوط بهـم ملكا عــزيـزا وملة وتلحظ عـين السـعـد مـنهم أهلة
ستـبـدو على أفق العلا مـسـتقلة وسحـبهـا بفيـاض الندى مستـهلة

تفـجـر بحـرا للسـماحـة مـزبدا

ونجلك نصر يقتفى نجل رسمه أمير يزين العقل راجح حلمه
أتاك بنجل يستضاء بنجمه لحب رسول الله سماه باسمه
وباسمك فى هذى الموافقة اقتدى

أقمت بإعذار الإمارة سنة وطوقها من حلى فخرك منة
وأسكنتها فى ظل برك جنة وألحفتها برد اعتنائك جنة
وعمرت منها بالتلاوة مسجدا

فلله عينا من رآهم تطلعوا غصونا بروض الجود منك ترعرعوا
وفى دوحة العلياء منك تفرعوا ملوك بجلباب الحياء تقنعوا
أضاء بهم أفق قصرك منتدى

وقد أشعروا الصبر الجميل نفوسهم وقد أفرغوا فوق الحلى لبوسهم
وقد زينوا بالبشر فيه شموسهم وعاطوا كئوس الأنس فيه جليسهم
وأبدوا على هول المقام تجلدا

شمائل فيهم من أبيهم وجدهم تفصل آى الفخر فيها بحمدهم
وتنسبها الأنصار قدما لسعدهم تضئ بها نورا مصابيح سعدهم
ولم لا ومن صحب الرسول توقدا

فو الله لولا سنة قد أقمتها وسيرة هدى للنبى علمتها
وأحكم عدل للجنود رسمتها لجالت بها الأبطال تقصد سمتها
وتترك أوصال الوشيج مقصدا

ويا عـاذرا أبدى لنـا الشـرع عـذه طرقت حـمى قـد عظم الله قـدره
وأجريت طيبا يحـسد الطيب نشره لد جئت مـا تستطعم الصيـد أمره
وتفـديه إن يقـبل خليـفـهـا فـدا

رعى الله منهـا دعـوة مـستـجـابة أفـادت نـفـوس المخلصـين إنابة
ولم تلف من دون القـبول حـجابة وعـاذرها لم يبـد عـذرا مـهـابة
فـأوجب عن نقص كـمـالا تزيدا

فنقص زكـاة المال وفـر نصـابه ومـا السيف إلاّ بعـد مـشق ذبا به
ومـا الزهر إلاّ بعـد شـق إهابه بقطع يـراع الخط حـسن كـتـابه
وبالـنقص يزداد الـذبال توقـدا

ولمّا قـضوا من سنة الشـرع واجبـا ولـم نلق من دون الخـلافة حاجـبا
أفـضـنا منك جـذلان واهـبـا أفـاض علينـا أنعـمـا ومـواهبـا
تعـود بذل الجـود فـيـمـا تعـودا

هنيـئـا بهـذا قـد بلغت مـؤمـلا وأطلعت نـورا يبـهـر المتـأمـلا
وأحـرزت أجر المـنعمـين مكمـلا تبـارك من أعطى جـزيلا وأجمـلا
وبلغ فـيك الدين والملك مقـصدا

ألا فى سبـيل العز والفخـر موسم يظل بـه ثغـر المـسـرة يبـسم
وعـرف الـرضـا من جـوه يَـتَنَسَّم وأرزاق أرباب السـعـادة تقـسـم
فـفى وصـفـه ذهن الـذكى تبلدا

وجللت فى هذا الصنيع مصانعا   تمنى بدور التم منها مطالعا
وأبديت فيها للجمال بدائعا   وأجريت للاحسان فيها مشارعا
يود بها نهر المجرة موردا

وأجريت فيها الخيل وهى سوابق   وإن طلبت فى الروع فهى لواحق
نجوم وآفاق الطرد مشارق   يفوت التماح الطرف منها بوارق
إذا ما تجارى الشهب تستبق المدى

وتطلع فى ليل القتام كواكبًا   وقد وردت نهر النهار مشاربًا
تقود إلى الأعداء منها كتائبًا   فترسم من فوق التراب محاربا
تخر رءوس الروم فيهن سجدا

سواج بالنصر العزيز سوانح   وهن لأبواب الفتوح فواتح
توقد إليك النصر والله مانح   فما زلت باب الخير والله فاتح
وما ثم شيء قد عدا بعد ما بدا

رياح لها مثنى البروق أعنة   ظباء فإن جن الظلام فجنة
تقيها من البدر المتمم جنة   وتشرع من زهر النجوم أسنة
فتقذف شهب الرجم فى ثغر العدا

فأشهب من نسل الوجيه إذا انتمى   جرى فشأى شهب الكواكب فى السما
وخلف منها فى مقلد أنجما   تردى جمالا بالصباح وربما
يقول له الإصباح نفسى لك الفدا

واحمـر قد أذكى به البأس جـمرة وقد سلب اليـاقوت والورد حـمرة
أدار به سـاق من الحـرب خـمـرة وأبدى حـبـابا فوقـهـا ألسن غـرة
يزين بهـا خـداً أسـيلا مـوردا

وأشـقـر مـهـمـا الركـض برقـه أعار جـواد البرق فى الأفق سبـقه
بدا شـفقـا قد جلل الحـسن أفقـه ألـم تر أنَّ الله أبـدع خلـقـــه
فسأل على أعطافه الحسن عسجدا

وأصـفـر قد وَدّ الأصـيل جـمـاله وقـــد من برد الـعـــشى جـــلاله
إذا أســرجـوا جنح الـظلام ذباله فــغـــرتـه نجم تضئ مـــجـــاله
وفى ذيله ذيل الـظلام قـد ارتدى

وأدهم فى مـسح الدجى مـتجـرد يجـيش به بحـر مـن الليل مـزبد
وغـــرته نجم بـه مـتـــوقـــد له البـدر سـرج والنـجـوم مـقلد
وفى فلق الصـبـح المبين تقـيـدا

وأبيض كـالقرطاس لاح صـباحـه على الحـسن مغـداه وفيـه مراحـه
وللظبـيـات الآنسـات مـراحـه تراه كنـشـوان أمـالتـه راحـه
وتحسبه وسط الجمـال معـربدا

وذاهبـة فى الجـو ملء عنانهـا وقـد لفعـتهـا السحب برد عنانهـا
يفـوت يرتداد الطرف لمح عـيانهـا وخـتـمت الجـوزاء سـبـط بنانهـا
وصاغت لهـا حلى النجوم مقـيدا

أراها عمـود الصبح علو المصـاعد   وأوهمـهـا قـرب المدى المتبـاعـد
ففـاتته سـبقـا فى مجـال الرواعد   وأتحـفت الكف الخضـيب بساعـد

فطوقت الـزهر النجـوم بهـا يدا

وقـد قذفـتـها لـلـعصى حـواصب   قد انتـشرت فى الجـو منها ذوائب
تزاور منهـا فى الفـضاء حبـائب   فـبـينهـا من قـبل ذلـك مناسب

لأنهـمـا فى الـروض قـبل تولدا

بنات لأم قـد حــيـن بروحـهـا   دعاها الهوى من بعد كـتم لبوحها
فـأقـلامهـا تهـوى لخط بلوحـهـا   فبالأمس كانت بعض أغصان دوحها

فعـادت إليها اليوم من بعـد عودا

ويا رب حصن فى ذراعهـا قد اعتلى   أنارت بروج الأفق فى مظهـر العلا
بروج قـصـور شـدتـهـا مـتطولا   فـأنشـأت برجـا صـاعـدا مـتنزلا

يكون رسـولا بينهـا مـتـرددا

وهل هى إلاّ هـالة حـول بـدرها   يصـوغ لهـا حليًا يلـيق بنحـرها
تطور أنواعـا تشـيـد بفـخـرها   فحـجل برجلهـا وشاح بخصـرها

وتاج بأعـلى رأسـهـا تنضـدا

أراد استـراق السـمـع وهو ممنع   فـقـام بـأذيال الدجى يتـفلح
وأصـغى لأخبـار السـمـا يتسـمع   فـأتبـعـه منهـا ذوابل شـرع

لتـقـذفه بالرجـم مثنى ومـوحـدا

ومــا هو إلاّ قــائم مــد كـفــه ليســأل من رب السمـوات لطفـه

لمولـى تولاه وأحكم رصــــفــــه وكلف أرباب البـــلاغـة وصـفـه

واكـرم منـه القـانت المتـهــجـدا

مـــلاقى ركـب من وفـــود النواسم مـقـبـل ثغـر للبـروق الـبــواسم

مـخـــتم كف بالنجـــوم العـواتم مـبلغ قـصد من حـضـور المواسم

تجـــدده مـهـــمــــا صنيع تجـــددا

ومـضطرب فى الجـو أثبت قـامـة تقـدم يمـشى فى الهـواء كـرامـة

تطلع فى غـصن الرشـاء كـمامـة وتحـسبـه تحت الغـمام غـمـامـة

يسـيل على أعطافـه عـرق الندى

هوى واسـتـوى فى حـاله وتقلبـا كـخـــاطف برق قـد تألق خـلبـا

ونحسـبه قـد دار فى الأفق كوكـبا ومهما مشى واسـتـوقف العقل معجبا

تقلب فـيـه العـين لحـاظا مـرددا

لقــــد رام لـلســـــمـــــاء بسـلم فـيـمـشى علـى خط به مـتـوهم

أجل فى الذى بـيـديه فـكر توسم ترى طائرا قـــد حل صـورة آدمى

وجنا بمـهــواة الفــضــــاء تمردا

ومنتـسب للخال سـمـوه ملجمـا له حكمـات حكمـهـا فاه ألجـمـا

تخـالف جنـسـا والداه إذا ابتـمى كـما جنسـه أيضًا تخـالف عنهمـا

عـــجـبـت له إذ لم يلـد وتولدا

قـلائتهـا فى الذكر جـاءت مبـينة   من اللاء ســــمــاها لنـا الله زينة
وأنزل فـيــهـا آية مــسـتبـينة   وأودع فـيـهـا للجـهــول سكينة
وآلاءه فـيـهـا عـلى الخلق عـددا

كسـوه من الوشى اليمـانى هودجا   يمد على مـا فوقه الظل سجـسجا
وكم صـورة تجلى به تبهـر الحجـا   وجـزل وقـود ناره تصـدع الدجى
وقلب حسـود غاظ مذكيـه موقدا

ومـا هى إلاّ مظهـر لجــهــاده   أرتنا بهـا الأفراح فـضل اجتـهاده
مـلاعـبـها هزت قـدود صـعـاده   وأذكــــرت الأبـطال يـوم طراده
فما ارتبت فـيه اليوم صدقـته غدا

ألاَ جـدد الرحمن صنعـا حضـرته   ودوح الأمــانى فى ذراه هصــرته
بقصر طويل الوصف فيه اختصرته   يقـيد طـرف الطرف مهـمـا نظرته
«ومن وجد الإحـسان قيدا تقـيدا»

دعـوت له الأشـراف من كل بلدة   فـجـاءها بآمــال له مـسـتـجـدة
وخـصــوا بألطاف لديه مــعـدة   أياد بفـيـاض الـندى مـسـتـمـدة
فكلـهم من فــضلـه قـــد تزودا

وجـاءتـك من آل النبى عـصـــابة   لهـا فى مـرامى المكرمـات إصـابة
أحـبتك حـبا ليـس فيـه استـرابة   ولبت دواعى الخـيـر منهـا إجـابة
وناداهم التخصيص فابتدروا الندى

أجازوا إليك البحر والبحر يزخر   لبحر سماح مَدُّه ليس يجيز
فرواهم من عذب جودك كوثر   وواليت من نعماك ما ليس يحصر
وعظمتهم ترجو النبيَّ محمّدا

عليه صلاة ثم سلامه   به طاب من هذا النظام اختتامه
وجاء بمحمد الله حلوا كلامه   يعز على أهل البيان مرامه
وتمسى له الكواكب حسدا

أبث به حادى الركاب مشرقا   حديث جهاد للنفوس مشوقا
رميت به من بالعراق مفوقا   وأرسلت منه بالبديع مطوقا
حماما على دوح الثناء مغردا

ركضت به خيل البيان إلى مدى   فأحرزت فضل السبق فى حلبة الهدى
ونظمت من در الدرارى مخلدا   وطوقت جيد الفخر عقدا منضدا
وقمت به بين السماطين منشدا

نسقت من الإحسان فيه غرائدا   وأرسلت فى روض المحاسن رائدا
وقلدت عطف الملك منه قلائدا   تعودت فيه للقبول عوائدا
فلا زلت للفضل الجزيل معودا

ولا زلت للصنع الجميل مجددا   ولا زلت للفخر العظيم مخلدا
وعمرت عمرا لا يزال مجددا   ومتعت بالأبناء أوحد أوحدًا
وقرت بهم عيناك ما سائق حدا

ومن العيديات[1]:

هذى المعـــالم لفظ أنت مـــعناه	كل يقـــول إذا اسـتـنطقـتـــه الله
بحـر والوجود فلك الكون جـارية	وباســمك الله مـــجـراه ومـرسـاه
من نور وجهك ضاء السكون أجمعه	حـتـى تشـيــد بالأفـلاك مـبناه
عـرش وفـرش وأملاك مـسـخـرة	وكلهــــا ســـاجـــد لله مـــولاه
سبحان من أوجد الأشياء من عدم	وأوسع قـــبل الكـون نعـــمـــاه
من ينسب النـور للأفـلاك قلت له	من أين أُطـلعت الأفـــلاك لولاه
مولاى مولاى بحـر الجود أغرقنى	والخلق أجـمع فى ذا البحر قـد تاهوا
فالفلك تجـرى كما الأفـلاك جارية	بحـر السمـاء وبحر الأرض أشـباه
وكلـهـــا نعـم للخـلق شـــامـلة	تبـــارك الله لا تحــــصى عطـاياه
يا فاتق الرتق من هذا الوجـود كما	فى سابق الـعلم قد خطت قـضاياه
كن لى كما كنت إذ كنت لا عملا	أرجو ولا ذنـب قد أذنبت أخـشاه
وأنت فى حضـرات القدس تنقلنى	حـتى استـقـر بهـذا الكون مثـواه
مـا أقبح الـعبـد أن ينسى وتذكـره	وأنت باللطف والإحـســان ترعـاه
غـفـرانك الله من جـهـل بليت به	فـيمن أفـاد وجـودى كيف أنسـاه
منى على حـجـاب لست أرفـعـه	إلاّ بتـــوفـيق هدى منك تـرضـاه
فـعـد على بمـا عـودت من كـرم	فـأنت أكـرم من أملت رحـــمـاه

(١) نفح الطيب جـ٥ ص ١٧١.

ثم الصـــلاة صـــلاة الله دائمـــة　　　على الذى باسمه فى الذكـر سماه

المجتـبى وزناد النور مـا قـدحت　　　ولا زكا من نـسيم الروض مـسراه

والمصطفى وكمام الكون مـا فتقت　　　عن زهـر يروق العـــين مـــرآه

ولا تفـــجـر نهـــر للنهـــار على　　　در الدرارى فـــغـطاه وأخـــفـــاه

يا فاتح الرسل أو يا خَـتْمَهَا شـرفا　　　والله قـدس فـى الحـالين مـــعناه

لم أدخـر غيـر حب فـيك أرفعـه　　　وســـيـلة لريـم يوم ألـقـــــاه

صلى عـليك إله أنت صـــفـــوته　　　مـــا يطيب بلذيـذ الذكـر أفـــواه

وعم بالروح والريحـان صـحـبتـه　　　وجـادهم من نمير العـفـو أصفـاه

وخص أنصـاره الأعلين صـفـوته　　　وأسكنـوا من جـــوار الله أعـــلاه

أنصـــار ملتـــه أعـلام بيـــعـتـــه　　　مناقـب شــرفت أثنـى بهـا الله

وأيد الله من أحـــيـــا جـــهـــادهم　　　وأوصل الفـــخـــر أولاه بأخـــراه

المنتـقى من صمم الفـخر جـوهره　　　مـــا بين نصـــر وأنصـار تهـــاداه

والعلم والحلم والإقـبـال شيـمتـه　　　والبأس والجود بعـض من سجاياه

وهى طويلة، سردها هذا المؤلف كلها، ومنها:

يهنى زمـــانك أعـيـاد مـــجـددة　　　من الفـــتح مـدى الأيام تغـــشـاه

غـضبت للدين والدنيـا بحقـهمـا　　　يا حـبـذا غـضب فى الله أرضـاه

فـوقت للغرب سـهمـا راشه قـدر　　　وســـدد الله للأعـــداء مـــرمـــاه

سـهم أصـاب وراميـه بذى سلم　　　لقد رمى الغرض الأقـصى فأصماه

من كـان بندك يا مـولاى يقـدمـه فليـس يخلفـــه فـتح تـرجـاه
من كـان جندك جـند الله ينصـره أنالـه الله مـــا يرجـــو وأسـناه
ملكـتـه غَـــرْبَه خلدت مـن ملك للغـــرب والشـــرق منه مـــا تمناه
وسام أعداءك الأشـقين ما كـسبوا ومـن ترى رداء الـغـــــدر أرداه
قل للذى رمـدت جـهلا بصـيـرته فلم تر الشمس شمس الهدى عيناه
غطى الهوى عقله حتى إذا ظهرت له المراشـــد أعـــشـــاه وأعـمـــاه
هل يجنده وذنـوب الغـدر توبـقـه أنَّ الذى قـد كـسـاه العـز أعـراه
لو كـان يشكر مـا أوليت من نعم مـا زلت ملجاه الأحـمى ومنجـاه
سل السعـود وخل البيض مغـمدة فالسيف مهما مضى فالسعد أمضاه
واشرع من البرق نصلا راع مصلته وارفع من الصبح بندا راق مـجلاه
فـالعدوتان ومـا قـد ضم ملكهمـا أنصـــار ملكك صـان الله علـيـاه
لا أوحش الله قطـرا أنت مـالكه وآنس الله بـالألطـاف مـــغـناه
لا أظلم الله أفـــقـــا أنت نيـره لا أهمل الله سـرحـا أنت ترعـاه
وأهنأ بشـهـر الصـيـام جـاء رائد مـسـتـنزلا من إله العـرش رحمـاه
أهل بالسـعـــد فـانهـلت به منن وأوسع الصنـع إجـمـالا ووفـاه
أمـا ترى بركـات الأرض شـاملة وأنعـم الله قـــد عـــمت بـراياه
وعـادك العـيد تسـتـحلى مـوارده ويجـزل الأجر والرحـمى مصـلاه
جـهزت جـيش دعاء فـيـه ترفعـه لذى المعـــارج والإخـلاص رقـاه

أفضت فيه من النعماء أجزلها وأحسن البر ما الإحسان زكاه
واليت للخلق ما أوليت من نعم والى لك الله ما أولى ووالاه

ثم قال بعد سرد عدة قصائد: ومن بدائعه المنيفة عيدية ميلادية، وافقتها وجهته من غزوات مولانا الجد أيضًا:

لو كنت أعطى من لقائك سولا لم أجد برق الغمام رسولا
أو كنت أبلغ من قبولك مأملى لم أودع الشكوى صبا وقبولا
لكن معتل النسيم إذا سرى ما زال يوسع ذا الهوى تعليلا
وبملتقى الأرواح دوحة أيكة جاذبتها عند الهبوب مميلا
عهدى بها سدلت على ظلالها فسدلت ظلا للشباب ظليلا
رتعت به حولى الظباء أوانسا فنعمت فيه معرسا ومقيلا
وصقلت للحسناء صفح مودتى لما اجتليت العارض المصقولا
ثم انتشيت وقد تعاطيت الهوى ريما أغر وجؤذرا مكحولا
كم فيه من ملح لمرتاد الهوى تركت فؤاد محبه متبولا
لم ترو لى عيناه حكمة بابل إلاّ أخذت حديثها مقبولا
ولقد أجد جواى لما زرته رسما كحاشية الرداء محيلا
قد أنكرته العين إلاّ لمحة عرفت به آثاره تخييلا
وإذا الطلول تعرضت لمتيم غادرن دمع جفونه مطلولا
من ينجد الصبر الجميل فانه بعد الأحبة قد أجد رحيلا

كـيف التـجـمل بعـدهم وأنا الذى أنسيت قـيسا فـى الهوى وجمـيلا
من عـــاذرى والقـلب أول عـــاذل فـــيــمن أفنـد لائمًـــا وعـــذولا
اتبـــعت فى دين الصـــبـابة أمـــة مـــا بدلوا فى حـــبـــهم تبـــديلا
يا مـــوردًا حـــامت عليـــه قلـوبنا لو نيـل لم تَجْـــرِ المدامع نيـــلا
مـا ضـر من رَقَّت غـلائله ضـحًى لو بات يـنقع للمـــحب غليـــلا
كم ذا أعـلل بالحـــــديث وبالمنى قلبـا كـــمـا شـاء الغـــرام عليـلا
أعـديت وصلة الـهـديل بسـحـرة شـجوا وجـانحـة الأصيل نحـولا
وسـريت فـى طى النسيم لـعلنى أحـتـل حـيـا بـالعـقـيق حلولا
هذا ووجدى مثل وجدى عندما اسـ ـتشـعرت من ركب الحجاز رحـيلا
قـد سـددوا الأنضـاء ثم تتـابعـوا يتلو رعـــيل فى الفـــلاة رعـيـــلا
مـثل القـسى ضوامـر قـد أرسلت يذرعن عـرض البـيد مـيـلاً ميـلا
مـتـرنـحـين على الرحـــال كـأنما عـاطين من فـرط الكلال شمـولا
إن يلتـــبس علم الـطريق عليـــهم جـعلوا التـشـوق للرسـول دليـلا
يا راحليـن ومـا تحـمل ركـــبـهم إلاَّ قلوب العـاشـــقين حـمـولا
ناشـــدتكم عـــهـــد المودة بيـننا والعـهـد فـينـا لم يزل مـسـئـولا
مهما وصلتم خـير من وَطِئَ الثرى أنْ توسـعـوا ذاك الثرى تقـبـيـلا
يا ليت شـعـرى هـل أعـرس ليلة فـــأشم حـولى إذخـرا وجليـــلا
أو ترونى يـومـــا مـيــاه مـــجنةٍ ويشـيـم طرفى شـامـة وطفـــيـلا

وأحط فى مثوى الرسول ركائبى ... وأبيت للحرم الشريف نزيلا
بمنزل الوحى التى قد شرفت ... قد شافهت أعلامها التنزيلا
بمعاهد الإيمان والدين التى ... قد صافحت عرصاتها جبريلا
ومهاجر الدين الحنيف وأهله ... حيث استقر به الأمان دخيلا
دار الرسول ومطلع القمر الذى ... إبداؤه ما فارق التكميلا
يا حبذى تلك المعالم والربا ... يا حبذا تلك الطلول طلولا
حيث النبوة قد جلت آفاقها ... وجها من الحق المبين جميلا
حيث الرسالة فصلت أحكامها ... لتبين التحريم والتحليلا
حيث الشريعة قد رست أركاتها ... فالنص منها يعضد التأويلا
حيث الهدى والدين والحق الذى ... محق الضلال وأذهب التضليلا
حيث الضريح يضم أكرم مرسل ... وأجل خلق الله جيلاً جيلا
إنَّ الإله اختارها لمقامه ... واختاره للعالمين رسولا
رحم الإله العالمين ببعثه ... فيهم وفضل جنسه تفضيلا
بدعائه انقشع الغمام وقبلها ... والت بدعوته الغمام همولا
والشمس قد ردت له ولطالما ... قد ظللته سحابها تظليلا
لم لا يطاوعه الوجود وقد غدا ... من نوره فى خلقه معلولا
يا نكتة الأكوان يا علم الهدى ... آيات فضلك رتلت ترتيلا
لولاك لم يك للكيان حقيقة ... ولكان باب وجودها مقفولا

لولاك لـلزهر الكـواكب لم تـلح — مـثل الأزاهر مـا عـرفن ذبولا
لولاك لم تجعل السـماء شموسـها — ولكان سـجف ظلالهـا مـسبـولا
لولاك مـا عـبـد الإله ومـا غـدا — ربـع الجنـان بأهـله مــأهـولا
يا رحــمــة الله التى ألطفــهــا — سـحـبت علينـا للقبـول ذيولا
يا حـــجـــة الله التى برهـانهــا — مـا كان يـوما صـدقـه مـجهـولا
كم آيه لك قــد صـدعـت بنورها — ليل الـضــلال وإفكه المـنحــولا
أوضحتـها كالشمس عند طـلوعها — وعـقلـت عن إدراكـهن عــقـولا
وأتيت بـالذكــر الحكيم مـبـينا — قـد فـصلـت آياته تفــصـيــلا
أثنى علـيك بكتبــه من أنزل الـ — ـقــرآن والـتــوراة والإنجـيــلا
فـإذا البليغ يروم مـدحك جـاهدا — أضـحى حـسـام لسـانه مـفلولا
يا شــافـع الرسل الكـرام ومن به — يرجـون فى يوم الحـسـاب قـبـولا
رفـقـا بمن ملك القـضاء زمـامـه — فـغـدًا بقـيــد ذنوبه مـعــقـولا
وحسرتا ضيـعت عمرى فى الهوى — والتـــوب أضــحى دينـه ممطولا
وجريت فى طـلق البطالة جمـاحًا — حـتى انثنى طرف الشـبـاب كليـلا
وعـثرت فـى طلب المفاز جـهـالة — لكن وجـدتك لـلعـثـار مـقـيـلا
يا صـفـوة الله الأمـين لوحـيـه — من أم جـاهك أحـرز الـتـأمـيـلا
والله مــالى للخـــلاص وســيلة — إلاّ رضــاك وعــفـوك المأمــولا
إنْ كنت مـا أعـددت زادًا نافـعًا — أعـددت حبـك شافـعًا مـقبـولا

صلى عليك الله ما ركب سرى	فأجد وخداً فى المفازة ميلا
وأعز من ولاه أمر عباده	فحباهم إحسانه الموصولا
وأقام مفروض الجهاد بعزمة	تركت بأفئدة العداة فلولا
والله ما أدرى وقد حضر الوغى	أحسامه أم عزمه مصقولا
ملك إذا لثم الوجود يمينه	فالبحر عذبا والرياض بليلا
أو يخلف الناس الغمام وامحلوا	فنداه لا يخشى العفاة محولا
من دوحة نصرية يمنية	وشجت فروعا فى العلا وأصولا
فإذا سألت الكتب نقل فضيلة	لم تلف إلاّ فخرها منقولا
يأيّها الملك الذى أيامه	وضحت بأوجه طردهن محولا
والله ما آثار هديك عندنا	إلاّ نجوما ما عرفن أفولا
لم يعرف التركيب سيفك فى الوغى	فاعجب له قد أحكم التحليلا
كم صورةٍ لك فى الفتوح وسورة	تجلى وتتلى بكرة وأصيلا
لم تسر سارية الرياح بطيبة	إلاّ لتحمل ذكرك المعسولا
وكأنّ صفح البرق سيفك ظل من	غمد الغمامة مرهفا مسلولا
كم بلدة للكفر قد عوضت من	ناقوسها التكبير والتهليلا
صدقت مقدمة الجيوش فصيرت	من حينها موضوعها محمولا
كسروا تماثيل الصليب ومثلوا	بمن انتمى لولائه تمثيلا
لما أحطت بها وحان دمارها	أخرجت مترفا الأعز ذليلا

تجرى الدموع وما تبل غليله | فمصفد يبكى هناك قتيلا
سلت يمين الملك منك على العدا | عضبا مهيب الشفرتين صقيلا
لم يرض سيفك أن يحلى جوهراً | حتى يحلى عسجداً مخلولا
لم ترض همتك القليل من التقى | حتى أتت بالصالحات قبيلا
فأقمت ميلاد الرسول بليلةٍ | أوضحت فيها للجهاد سبيلا
حيث القباب البيض جللت الربا | أزهار روض ما اكتسين ذبولا
مواقد النيران تذكى حولها | فينير مشعلها رُبًا وسهولا
والأفق فوقك قبة محبوكة | مدت عليك طرفها المسدولا
ورمى إليك ببدره ونجومه | يهديك منه التاج والإكليلا
حيث الكتائب قد تلاطم موجها | وتدفقت فيها الخيول سيولا
زخرت بأمواج الحديد وربما | ضاق الفضاء فما وجدن مسيلا
يتجاوب التكبير فى جنباتها | فتعيد غر الجياد صهيلا
حملت من الأبطال كل مشمرٍ | لا يقتنى سمر القنا ونصولا
آساد ملحمة إذا اشتجر الوغى | دخلوا من الأسل المثقف غيلا
إن شمروا يوم الحروب ذيولهم | سحبوا من الزرد المفاض ذيولا
أو قصروا يوم الطعان رماحهم | وصلوا بها الخطو الوساع طويلا
يا ليلة ظفرت يداى بأجرها | وسهرت فيها بالرضا مشمولا
والله لو عوضت عنك شبيبتى | ما كنت أرضى بالشباب بديلا

يا ناصر الإسلام يا ملك العلا   الله يؤتيك الجزاء جزيلا
جهز جيوشك للجهاد موفقا   وكفى بربك كافيا وكفيلا
وللتعبد الغارات فى أرض العدا   والله حسبك ناصرا ووكيلا
وإليك من سمر الجهاد غريبة   جاءتك تقرضك الثناء جميلا
وأطلت لكنى أطبت وعادتى   ألفى مخيبا فى المديح مطيلا
لا زال نصرك كلما استنجدته   لمهم دينك عائدا موصولا

ثم قال بعد ذكر جملة من قصائد:

ومن ذلك وقد عاد من وجهة للصيد أعملها، وأعنة للجياد فى ميادين ذلك الطراد أرسلها، ما أنشده(١):

حياك يا دار الهوى من دار   نوء السماك بديعة مدرار
وأعاذ وجه رباك طلقا مشرقا   متضاحكا بمباسم النوار
أمذكرى دار الصبابة والهوى   حيث الشباب يروق حسن نضار
عاطيتنى عنها الحديث كأنما   عاطيتنى منها كئوس عقار
إيه وإن أذ كيت نار صبابتى   وقدحت زند الشوق بالتذكار
يا زاجر الأظعان وهى مشوقة   أشبهتها فى زفرة وأوار
حنت إلى نجد وليست دارها   وصبت إلى هندية والقار
لكنها شامت به برق الحمى   واعتادها طيف الكرى بمزار

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٤.

هل تبلغ الحاجات إن حملتها ... إن الوفاء سجية الأحرار
عرض بذكرى فى الخيام وقل إذا ... جئت العقيق مبلغ الأوطار
[عار](1) بقومك يا بنة الحيين أن ... تلوى الديون وأنت ذات يسار
أمَنَعْتِ ميسور الكلام أخا الهوى ... وبخلت حتى بالخيال السارى؟
وأبان جارى الدمع عذر هيامه ... لكن أضعت حقوق داك الجار
هذا وقومك -ما علمت خلالهم- ... أوفى الكرام بذمة وجوار
الله فى نفس شعاع كلما ... هب النسيم تطير كل مطار
بالله يا لمياء ما منع الصبا ... إلاّ تهب بعرفك المعطار
يا بنت من تشدو الحداة بذكره ... متعللين به على الأكوار
ما ضر نسمة حاجر لو أنها ... أهدت لنا خبراً من الأخبار
هل بَانُهُ من بعدنا متأود ... متجاوب مترنم الأطيار
وهل الظباء الآنسات كعهدها ... يَصْرَعْن أسد الغاب وهى ضوارى
يفتكن من قاماتها ولحاظها ... بالمشرفية والقنا الخطّار
أشعرت قلبى حبهن صبابة ... فرمينني من لوعتى بجمار
وعلى الكثيب سوانح حمر الحلى ... بيض الوجوه يصدن بالأفكار
أدنى الحجيج مزارهن ثلاثة ... بمنى لَوَ ان ديار قرار
لكن يوم النفر جدن لنا بما ... عودننا من جفوة ونفار

(1) التكملة من نفح الطيب ج7 ص 155.

يا بن الالى قد أحرزوا فضل العلا | وسموا بطيب أرومة ونجار
وتنوب عن صوب الغمام أكفهم | وتنوب أوجههم عن الأقمار
من آل سعد رافعى علم الهدى | المصطفين لنصرة المختار
أصبحت وارث مجدهم وفخارهم | ومشرف الإعصار والأمصار
وجه كما حسر الصباح نقابه | ويد تند أناملا ببحار
جردت دون الدين عزمة أروع | جددت منها سنة الأنصار
حطت البلاد ومن حوته ثغورها | وكفى بسعدك حاميا لذمار
لله رحلتك التى نلنا بها | أجر الجهاد ونزهة الأبصار
أوردتنا فيها لجودك موردا | مستعذب الإيراد والإصدار
وأفضت فينا من نداك مواهبا | حسنت مواقعها على التكرار
أضحكت ثغر الثغر لما جئته | وخصصته بخصائص الإيثار
حتى الفلاة تقيم يوم وردتها | سنن القرى بثلاثة الأثوار
وسرت عقاب الجو تهديك الذى | تصطاد من وحش ومن أطيار
والأرض تعلم أنك الغوث الذى | تضفى عليها وافى الأستار
ولرب ممتد الأباطح موحش | عالى الربا متباعد الأقطار
همل المسارح لا يراع قنيصه | إلاّ لنبأة فارس مغوار
سرحت عنان الريح فيه وربما | ألقيت بساحته عصا التسيار
باركته والأفق قد خلع الدجى | مسحا ليلبس خلعة الإسفار

وجرى به نهر النهار كمثل ما سكب النديم سلافة من قار
عرضت به المستنفرات كأنها خيل عراب جلن فى مضمار
أتبعتها غرر الجياد كواكبا تنقض رجما فى سماء غبار
والهاديات يومها عبل الشوى متدفق كتدفق التيار
أزجيتها شقراء رائقة الحلى فرميته منها بشعلة نار
أثبت فيه الرمح ثم تركته خضب الجوانح بالدم الموار
حامت عليه الذابلات كأنها طير أوت منه إلى أوكار
طفقت أرانبه غداة أثرتها تبغى الفرار ولات حين فرار
هل ينفع الباع الطويل وقد غدت يوم الطراد قصيرة الأعمار
من كل منحفز بلمحة بارق فاتت خطاه مدارك الأبصار
[وجوارح سبقت إليه طلابها فكأنما طالبنه بالثار
سود وبيض فى الطرد تتابعت كالليل طارده بياض نهار][1]
ترمى بها وهى الحنايا ضمرا مثل السهام نزعن عن أوتار
ظنت بأن ينجو لها كلا ولو[2] أغريته بأرانب الأقمار
وبكل فتخاء الجناح إذا ارتمت فكأنها نجم السماء السارى
زجل الجناح مصفق كمن الردى فى مخلب منه وفى منقار
أجلى الطريد من الوحوش وإن رمى طيرا أتاك به على مقدار

(١) التكملة عن نفح الطيب ج٧ ص ١٥٧.

(٢) فى سائر الأصول: «ظنت بأن تنجو بها» والمثبت رواية نفح الطيب.

وأريتنا الكسب الذى أعــــداده ... مـلأت جـمـالا أعـين الـنظار
بيض وصفر خلت مطرح سرحها ... روضـا عـن شـقـيق بـهـار
من كل مـوشى الأديم مـفـوف ... رقـمـت بدائعـه يـد الأقـدار
خلط البـيـاض بـصـفـوة فى لونه ... فترى اللجين يشـوب ذوب نضار
أو أشـعل راق العـيـون كـأنه ... غلس يـخـالط سـدفـة بنهـار
سـرحت بمخـصـر الجـوانب يانع ... تنسـاب فـيـه أراقم الأنهـار
قـد أرضـعتـه الساريات لبـانهـا ... وحلـلن فـيـه أَزِرَّة النّوّار
أخذت سـعودك حذرها فـلحكمة ... أغـرت جـفون المـزن باستـعبـار
لمّا أرتك الشـمس صـفـرة حاسـد ... لجـبـيـنك المتـألـق الأنوار
نفثت عـليك السحب نفث مـعوذ ... من عـينهـا المتـوقع الأضـرار
فـارفع لواء الفـخـر غيـر مـدافع ... واسـحب ذيول العـسكر الجـرار
وأهنأ بمقـدمك السـعيد مـخـولا ... مـا شـئت من عـز ومن أنصـار
قـد جئت دارك مـحـسنا ومؤمـلا ... متـعت بالحسنى وعـقـبى الدار
وإليكهـا من روض فكرى نفـحـة ... شف الـثناء بـهـا علـى الأزهار

ثم قال: ومن ذلك ما أنشـده، رضى الله عنه، فى رحلة ركاب المجاهد إلى ألمرية بالقصر الصمادحى فى حدود عشر سنين وسبع مئة:

مـا لـلحـمـول تحـن للأطلال ... ويشـوقـهـا ذكـر الزمـان الخـالى
يثنى أزمـة هيـمـهـا شـوق إلى ... ظـل الأراك وأزرق سلسـال

ذكرت بهـا الحى الجميع كعـهدها   والربع منـهـا أخـضـر الـسـربال
والدار حـــاليـــة المعــاطـف والربا   ومــــرادها بالروضـــة المخـضــــال
أيان مـا لعـبت بـهـا أيدى النوى   وتراهنت فـى الحـال والتــرحـال
وجـرت بسـدتها الحـداة كـأنها   قطع السـفـائن خضن بـحر ليـال
دعنى أطارحـــهـــا الحنين فـــإننى   لا أنثـنى لمـقـــــالة الـعـــــذال
وهى المنازل أشـــبـــهت سكانهـــا   أعــمــــارها تفـضى إلـى الآجـال
بليت مـحـاسنهـا وخف أنيـسهـا   والشـوق والتـذكـار لـيس ببـالى
ولقـد أقول ومـا يعنف ذو الهـوى   ذهب الغـــرام بحـيلة المحتــــال
أحـشى تذوب صـبــابة ومـدامع   تغـرى جـفـون المزن باسـتـهـلال
ووراء مطـلع الخـــدور جــآذر   تجلى شـموسـا فى غمـام حجـال
يا سـاكنى نجـد ومـا نجـد سـوى   نادى الهــوى ومـخيـم الآمـال
مـا للـضـبـاء الآنسـات بـربعكم   عطلا وهن من الجـــمـال خـوالى
أو لـلريـاح تـهب وهـى بـليلـة   فـتهـيج من وجـدى ومن بلبـالى
هى شـيــمـة عـذرية عـــودتها   قلبـا شـعـاعـا مـا يرى بالسـالى
يا بنت مـن غـمـر العـفـــاة نواله   هلا سـمحت ولو بـطيف خيـالى
فلكم بعـثت مـع النسيم تحـيـتى   عودت سـارى البرق من أرسـالى
بالله يا ريـح النعـــامـى جــررى   فـــوق الخـــزامى عــاطر الأذيال
وإذا مـررت على الكـثـيب برامـة   صـافح محـيا الروضـة المخضـال

فيها المعاهد قد طلعن بأفقها | زمنا ولم أجنح لوقت زوال
أمذكرى عهد الشبيبة جاده | صوب العهاد بواكف هطال
عاطيتنى عنه الحديث كأنما | عاطيتنى منه ابنة الجريال
هذا على أنى نزعت عن الصبا | وصرمت من حب الحسان حبالى
حسبى وقارا فى الندى إذا احتبى | وتجاولوا فى الفخر كل مجال
أنى ألوذ بدولة نصرية | حليت محاسنها بكل كمال
حيث الوجوه صبيحة والمكرما | ت صريحة والعز غير مزال
حيث المكارم سنها أعلامها | من كل فياض الندى مفضال
بيض الأيادى والوجوه أعزة | قد شيدوا العليا بسمر عوالى
هم آل نصر ناصروا دين الهدى | والمصطفون لخيرة الأرسال
ما شئت من مجد قديم شاده | أبناء قَيْلَةَ أشرفِ الأقيال
ما منهم إلاّ أغر محجل | يلقى العظائم وهو غير مبالى
متبسم واليوم أكلح عابس | والحرب تدعو بالكماة نزال
قد عودا النصر العزيز وخولوا الـ | ـفتح المبين بملتقى الأبطال
بذلوا لدى الهيجاء كرائم أنفس | قد أرخصت فى الله وهى غوالى
يأيها الملك الهمام المجتبى | ومنيل دين الله خير منال
أصبحت وارث مجدهم وفخارهم | ومشرف الأمصار والأبطال
وطلعت فى أفق الخلافة نيرا | تجلو ظلام الظلم والإضلال

فـــقت الملـــوك جـــلالـــة وبســـــالة   وشـــأوتهم فى الحـــلم والإجـــمـــال
أعـــدت محـــاســنك المحـــاسن كلهـــا   فـــجـــمـــالهـــا يـــزرى بكل جـــمـــال
فالشـــمس تأخذ من جـــبينك نورها   والروض ينفح عـــن كـــريم خـــلال
والريح تحـــمل عن ثنائك طيـــبـــهـــا   فى ملتـــقـــاهـا من صـــبـــا وشـــمـــال
والغـــيث إلاّ من نداك مـــبـــخـل   فـــالغـــيث يقـلـــع والندى مـــتـــوالى
تعـــطى الذى لا فـــــوقـــه لمؤمل   وتجـــود بالإحـــســـــان قـــبل ســـؤال
طاولت علـــوى النجـــوم بهـــمـــة   لا فـــــاقـــدا عـــزا ولا مكســـــال
وبلغت من رتب السعـــادة مبلغـــا   أبعـــدت فـــيـــه مـــرتقـــاك الـــعـــالى
وقـــياس ســـعـــدك فى مـــرامك كله   يقـــضى مـــقـــدمـــه بصـــدق التـــالى
لمن الجـــيـــاد الصـــافنات كـــأنـــهـــا   فى الورد أســـراب الـــقطا الأرســـال
من كل ململوم القـــوى عبل الشوى   مـــرخى الـــعنان مـــحـــفـــز جـــوال
لمن القـــبـــاب الحـــمـــر ترشع للندى   فـــتفـــيض للعـــافين فـــيض ســـجـــال
لمن الخـــيـــام البـــيض تحـــسب أنهـــا   زهر الكـــواكب أطلعـــت بحـــلال
منداحـــة الأرجـــاء عـــاليـــة الذرى   فكأنهـــا فى الوهـــد شم جـــبـــال
هو مظهـــر الملك العلى ومطلع النـ   ـور الجلـــى بمرقب مـــتـــســـعـــالى
آثار مـــولانا الإمـــام مـــحـــمّـــد   بدر الهـــدى لا زال حلف كـــمـــال
لله وجـــهـــتـــك التى نلنـــا بهـــا   أجـــر الجـــهـــاد وبـــغـــيـــه الآمـــال
ما شـــئت من حســـن يفوق كمـــاله   ويروق منظـــره الجـــمـــيل الحـــالى

كم من عـجائب جـمـة أظهرتهـا ... مـا كـان يخطـر وصـفـهن ببـال
أمت وفـــود النـاس منك مملـكًا ... قـد خـص بالتـعظيـم والإجـلال
جـاءوا مـواقـيت اللـقـاء كـأنهم ... وفــد الحـجـيـج برامـةٍ وألال
لله عـــينًا من رأى ملك الـعـــلا ... حف الوقـــار جــمـــاله بجـــلال
فى موكب لبسـوا الخلوص شعاره ... وتميـــزوا منه بزى جــــمـــال
بلغـوا به العـدد الـكثيـر وكلهم ... أرضـــاهم إحـســانك المتــوالى
يهنى المريـة نعـمـة سـوغـتـهـا ... جــادت بهـــا الأيام بـعـــد مطال
قـدست واديهـــا وزرت خـلالهـا ... فلهـا الفـخـار بهـا على الآصـال
وكـسوتـها برد الشـبـاب مـفوقًـا ... وشـفـيت مـا تشكو من الأوجـال
مـــولاى لا أحـــصى ثنـاك إنّه ... أربى على التـفـصيل والإجـمـال
أعليـت فى أفق العنـاية مظهـــرى ... وخــصـــصــتـه بعـوارف الإفـضـال
ظفـــرت يداى بـكل مـــا أملتــه ... فى النفس أو فى الجـاه أو فى المال
لم تبق لـــى أمـلا ومـــا بلغـتـــه ... بلغــت مـــا ترجـــوا من الآمـــال

ثم قال بعد ذكر بعض العيديات: ومن ذلك(١):

بشرى كما وضح الـصباح وأجمل ... يعــــشى سناهـا كل من يتـــأمل
أبدى لهـــا وجـه النهـــار طلاقـة ... وافـتــر من ثغـــر الأقـاح مـقـبل
ومنابـر الإســلام يا مـلك الورى ... بحــــلاك أو بحليــــهـــا تتـكمل

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٠٦.

تجول لنا الأكوان منك محاسنًا تروى على مر الزمان وتنقل
فالشمس تأخذ من جبينك نورها والبشر منك بوجهها يتهلل
والروض ينفح عن ثنائك طيبه والروق فيه بالممادح تهدل
والبرق سيف من سيوفك منتضى والسحب تمهى من يديك وتهمل
يأيّها الملك الذى أوصافه در على جيد الزمان مفصل
الله أعطاك التى لا فوقها وحباك بالفضل الذى لا يجهل
وجه كما حسر الصباح نقابه لضيائه تعشو البدور الكمل
تلقاه فى يوم السماحة والوغى والبشر فى وجناته يتهلل
كف أبت ألاتكف عن الندى أبدًا فإنْ ضن الحيا تسترسل
وشمائل كالروض باكره الحيا وسرت برياه الصبا والشمأل
خلق ابن نصر فى الجمال كخلقه ما بعده من غايةٍ تستكمل
نور على نورٍ بأبهى منظرٍ فى حسنه لمؤمل ما يأمل
فاق الملوك بسيفه وبسيبه فبعدله وبفضله يتمثل
وإذا تطاول للفخار عميدهم فله عليه تطاول وتطاول
يا آية الله التى أنوارها يهدى بها قصد الرشاد الضلل
قل للذى التبست معالم رشده هيهات قد وضح الطريق الأمثل
قد ناصح الإسلام خير خليفة وحمى عرين الملك أغلب مشبل
فلقد ظهرت من الكمال بمستوى ما بعده لذوى الخلافة مأمل
وعناية الله اشتملت رداءها وعلقت منها عروة لا تنفصل

فـالجـودة إلاّ من يديـك مـقـتـر		والغـيث إلاّ من نداك مـبـخل
والعـمـر إلاّ تحت ظلك ضـائع		والعـيش إلاّ فـى جنابك ممحل
حـيث الجـهـاد قـد اعـتلت راياته		حـيث المغـانم للعـفـاة تـنفل
حيث القـباب الحمـر ترفع للقرى		قـد قـام فى أرجـائهـن المندل
يا حـجـة الله التى برهـانهـا		عـز المحـق به وذل المبطـل
قل لـلذى ناوأك يـرقب يومـه		فـوراه ملك يقـول ويفـعل
والله جل جـلاله إنْ أمـهـلت		أحكامـه مـسـتـدرجًـا لا تهـمل
يا ناصـر الإسـلام وهـو فـريسة		أسـد العـدا من حـولـهـا تتـسلل
يا فـخـر أندلس وعـصمـة أهلهـا		لك فـيـهم النعـمى التى لا تجـهل
لا يهـمـل الله الذين رعـيـتـهم		فـلأنت أكـفـى والعناية أكـفل
لا يبـعـد النصـر العـزيز فـإنه		آوى إلـيـك وأنـت نعـم المـوئـل
لولا نـداك لهـا لما نفع الـندى		ولجف مـن ورد الصـنائـع منـهل
لولاك كـان الدين يـغـمط حـقـه		ولكان دين الـنصـر فـيـه يمطل
لكن جنيت الفـتح من شجـر القنا		وجنى الفـتـوح لمن عـداك مـعلل
فلطالما اسـتـفـتـحـت كل ممنع		من دونه بـاب المطامع مـقـفل
ومـتى نـزلت بمقلٍ مـتـأشب		فـالعـصم من شعـفـاته تسـتنزل
وإذا غـزو فـإنَّ سـعـدك ضـامن		ألا تخـيـب وأنَّ قـصـدك يكمل
فمن السـعود أمام جيـشك موكب		ومن خـلال دون جندك جـحـفل

وكتيبة أردفتها بكتيبة والخيل تمرح في الحديد وترفل
من كل مُنْحَفِزٍ كلمحة بارقٍ بالبدر يسرج والأهلة ينعل
أوفى بهاد كالظليم وخلفه كفل كما ماج الكثيب الأهيل
حتى إذا ملك الكمى عنانه يهوى كما يهوى بجو أجدل
حملت أسود كريهة يوم الوغى ما غابها إلاّ الوشيج الذبل
لبسوا الدروع غدائرا مصقولة والسمر قضب فوقها تتهدل
من كل معتدل القوام مثقفٍ لكنه دون الضريبة يعسل
أذكيت فيه شعلة من نصله يهدى بها إنَّ ضل عنه المقتل
ولرب لماع الصقال مشهر ماضٍ ولكن فعله مستقبل
رقت مضاربه وراق فرنده فالحسن فيه مجمل ومفضل
فإذا الحروب تسعرت أجزالها ينساب في يمناك منه جدول
وإذا دجا ليل القتام رأيته وكأنه فيه ذبال مشعل
فاعجب لها من جذوةٍ لا تنطفى في أبحر زخرت وهن الأنمل
هي سنة أحييتها وفريضة أدنيتها قرباتها تتقبل
فإذا الملوك تفاخرت بجهادها فلأنت أحفى بالجهاد وأحفل
يابن الذين جمالهم ونوالهم شمس الضحى والعارض المتهلل
يابن الإمام ابن الإمام ابن الإما م ابن الإمام وقدرها لا يجهل
آباؤك الأنصار تلك شعارهم فلحيهم آوى النبى المرسل

فهم الألى نصروا الهدى بعزائمٍ مصقولةٍ وبصائر لا تخذل

ماذا يحبر شاعر فى مدحهم وبفضلهم أثنى الكتاب المنزل

مولاى لا أحصى مآثرك التى بحديثها تمضى المطى الذلل

وإذا الحقائق ليس يدركها سيان فيها مكثر ومقلل

فإليك من شوال غرة وجهه أهداكها يوم أغر محجل

عذراء راق العيد رونق حسنها فغدا بنظم حليها يتجمل

رضعت لبان العلم فى حجر النهى فوفت لها منه ضروع حفل

سلك البيان لها سبيل إجادة لولا صفاتك كان عنها يعدل

جاءت تهنى العيد أيمن قادم وافى بشهر صيامه يتوسل

وطوى الشهور مراحلاً معدودة كيما يرى بفناء جودك ينزل

وأتى وقد شف النحول هلاله ولشوقه للقاء وجهك ينحل

عقدت بمرقبه العيون مسرة فمكبر لطلوعه ومهلل

فاسلم لألفٍ مثله فى غبطةٍ ظل المنى من فوقها يتهدل

فإذا بقيت لنا فكل سعادةٍ فى الدين والدنيا بها تتكفل

ثم قال بعد إيراد جملة قصائد:

ومن جياد أناشيده المتميزة بالسبقية، وبارقات تهانيه فى المواسم العقيقية، قوله يهنئه، رضوان الله تعالى عليه، بطلوع مولانا الوالد قدسه الله تعالى(١):

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢١٠.

طلع الهـــلال وأفـقـــه مـتـــهلل   فـــمكـبـــر لطلوعـــه ومــــهلل
أوفى على وجـه الـصـبـاح بغـرةٍ   فـغـدا الصـبـاح بنورها يتـجـمل
شـمس الخـلافة قـد أمـدت نوره   وبسـعـدها يرجـو التـمـام ويكمل
لله منـه هلال ســـعـــد طـالع   لضـيـائه تعـشـــو البـدور الكمل
وألحت يا شـمس الهداية كـواكبًـا   يعـــشى سـناه كل مـن يتـــأمل
والتـاج تاج البــدر فى أفق العـلا   مـــا زال بالـزهر النجــوم يـكلل
ولئن حــوى كل الجـمـال فـــإنه   بالشـهب أبهى مـا يكون وأجـمل
أطلعـت يا بدر السـمـــاح هلاله   والملـك أفق والخــــلافـــة مـنزل
يبـــدو بهـــالات الســروج وإنّه   من نور وجهك فى العـلا يستكمل
قلدت عطـف الملك منه صـــارمًـا   بغـنائه ومـــضـــائه يـتـمـــثل
حليلتـه بحلى الكمال وجـوهر الـ   ـخلق النفـيـس وكل خلق يجـمل
يغـزو أمـامك والسـعـود أمـامـه   ومـــلائك السـبع الـعـلا تـتنزل
من مـــبلغ الأنصـــار منه بشـــارة   غـر البـشـائر بعـــدها تسـترسل
أحـيا جـهـادهم وجـدد فخـرهم   بعـــد المئـين فـــملكـهم يتـــأثل
فـبـه إلى الأجـر الجـزيل توصلوا   وبهم إلى رب الـســمـــا يتـــوسل
من مـــبلغ الأذواء من يـمنٍ وهم   قـــد توجـــوا وتملكوا وتقـــيلوا
أنَّ الخـلافـــة فى بنيــهـم أطلعت   قـــمـراً به سـعـد الخلـيـفـة يكمل
من مـبلغ قـحطان آسـاد الشـرى   مـــا غـابهـــا إلاّ الوشـــيج الذبل

أنَّ الخليفة وهو شبل ليوثهم قد حاط منه الدين ليث مشبل
يهنى بنى الأنصار أنَّ مليكهم قد بلغته سعود ما يأمل
يعنى البنود فإنها ستظله وجناح جبريل الأمين يضلل
يهنى الجياد الصافنات فإنها بفتوحه تحت الفوارس تهدل
يهنى المذاكى والعوالي والظُّبى فبها إلى نيل المنى يتواصل
يهنى المعالى والمفاخر أنّه فى مرتقى أوج العلا يتوقل
سبقت مقدمة الفتوح قدومه وأتاك وهو الوادع المتمهل
وبدت نجوم السعد قبل طلوعه تجلو المطالع قبله لا تأفل
وروت أحاديث الفتوح غرائبا والنصر يملي والبشائر تنقل
ألقت إليك به السعود زمامها فالسعد يمضى ما تقول ويفعل
فالفتح بين معجل ومؤجل ينسيك ماضيه الذى يستقبل
أوليس فى شأن المسير دلالة أن المقاصد من طلابك تكمل
ناداهم داعى الضلال فأقبلوا ودعاهم داعى المنون فجدلوا
عصوا الرسول إباية وتحكمت فيهم سيوفك بعدها فاستمثلوا
كانوا جبالا قد علت هضابها نسفتهم ريح الجلاد فزلزلوا
كانوا بحارا من حديد زاخر أذكتهم نار الوغى فتسيلوا
ركبت أرجلها الأداهم كلما يتحركون إلى قيام تصهل
كان الحديد لباسهم وشعارهم واليوم لم تلبسه إلاّ الأرجل

الله أعطاك التى لا فوقها فتحا به دين الهدى يتأثل
جددت للأنصار حلى جهادهم فالدين والدنيا به تتجمل
من يتحف البيت العتيق وزمزمها والوفد وفد الله فيه ينزل
متسابقين إلى مثابة رحمة من كل ما حدب إليه تنسل
سما كأفواج القطا قد ساقها ظمأ شديد والمطاف المنهل
من كل مرفوع الأكف ضراعة والقلب يخفق والمدامع تهمل
حتى إذا روت الحديث مسلسلا بيض الصوارم والرماح العسل
عن فتحك الأسنى عن الجيش الذى بشيابه أهل الوغى تتمثل
أهدتهم السراء نصرة دينهم واستبشروا بحديثها وتهللوا
وتناقلوا عنك الحديث مسرة بسماعه واهتز ذاك المحفل
ودعو بنصرك وهو أعظم مفخرا إنَّ الحجيج بنصر ملكك يحفل
فاهنأ بملكك واعتمد شكرا به لطف الإله وصنعه تتخول
شرفت منه باسم والدك الرضا يحيا به منه الكريم المفضل
أبديت من حسن الصنيع عجائبا تروى على مر الزمان وتنقل
خفقت به أعلامك الحمر التى يخفوقها النصر العزيز موكل
هدرت طبول العز تحت ظلالها عنوان فتح إثرها يستعجل
ودعوت أشراف البلاد وكلهم يثنى الجميل وصنع جودك أجمل
وردوا ورود الهيم أجهدها الظما فصفا لهم من ورد كفك منهل

وأثرت فـــيـه للـطراد فـوارســـا مـثل الشـموس وجـوهـهم تتـهلل
من كل وضـــاح الجـبـين كـــأنه نجم وجنـح النقع ليـل مـــســـبل
يرد الطراد عـلى أغـر مـحـــجل فى سـرجـه بطـل أغـر مـحـجل
قـد عـودوا قـبض الكمـاة كـأنما عـقـبـــانها ينقض منـهـا أجـدل
يستـتـبـعون هـوادجا مـوشـيـة من كل بدع فـــوق مـــا يتـخـــيل
قـد صورت منهـا غـرائب جمـة تنسـى عـقـــول الناظريـن وتذهل
وتضـمنت جزل الوقـود حمولـها والنصر فى التـحقيق مـا هى تحمل
والعـاديـات إذا تلت فـرســـانها آى القـتـــال صـفـوفـهـــا تتـرتل
لِلّه خـــيلك إنـهـــا لســـوابح بحـر القـتـام ومـوجـه مـتـهـيل
من كـل برق بالـثـــريا ملـجم بالبـــدر يســـرح والأهلة ينـعل
أو فى بهـــاد كـــالظـلم وخلفـــه كـفل كـمـا مـاج الكثـيب الأهيل
هن البـوارق غـيـــر أنَّ جـيـادها عن سـبق خـيلك يـا مـؤيد تنكل
من أشهب كـالصبح يعلو سـرجه صـــبح به نجم الـضــلالة يـأفل
أو أدهم كــالليل قلد شـــهـبـــه خـاض الصبـاح فـأثبـتتـه الأرجل
أو أشـقـر سـال انضـــار بعطفـه وكـسـاه صـبـغة بهـجـة لا تنصل
أو احـمر كـالجـمـر أضرم بأسـه بالركض فى يوم الحـفـيظة يشـعل
كـالخمـر أرتع كـأسـها لنـدامهـا وبهــا حـــبـابة غـــرة تتـسـيل
أو أصـفـــر لبس العـشـى مـلاءة وبذيـله للـيل ذيل مـــــســـــبل

أجملت فى هذا الصنيع عوائدت ... الجود فيها مجمل ومفصل
أنشأت فيها من نداك غمائما ... بالفصل تنشأ والسماحة تهمل
فجرت من كفيك عشرة أبحر ... تزجى سحاب الجود وهى الأنمل
من قاس كفك بالغمام فإنه ... جهل القياس ومثلها لا يجهل
تسخو الغمام ووجهها متجهم ... والوجه منه مع الندى يتهلل
والسحب تسمح بالمياه وجوده ... ذهب به أهل الغنى تتمول
من قاس بالشمس المنيرة وجهه ... ألفيته فى حكمه لا يعدل
من أين للشمس المنيرة منطق ... بيانه در الكلام يفصل
من أين للشمس المنيرة راحة ... تسخو إذا بخل الزمان المحل
من قاس بالبدر المنير كماله ... فالبدر ينقص والخليفة يكمل
من أين للبدر المنير شمائل ... تسرى برياها الصبا والشمأل
من أين للبدر المنير مناقب ... بجهادها تنقص المطى الذلل
يا من إذا نفحت نواسم حمده ... فالمسك يعبق طيبه والمندل
يا من إذا لمحت محاسن وجهه ... تعشو العيون ويبهر المتأمل
يا من إذا تليت مفاخر قومه ... آى الكتاب بذكرها تتنزل
كفل الخلافة منك يا ملك العلا ... والله جل جلاله بك أكفل
مأمونها وأمينها ورشيدها ... منصورها مهديها المتوكل
حسب الخلافة أن تكون وليها ... ومجيرها من كل من يتخيل

حسب الزمان بأن تكون إمامه   فله بذلك عزة لا تهمل
حسب الملوك بأن يكون عميدها   ترجو الندى من راحتيك وتأمل
حسب المعالى أن تكون عميدها   فعليك أطناب المفاخر تسدل
يا حجة الله التى برهانها   عز المحق به وذل المبطل
أنت الإمام ابن الإمام ابن الإما   م ابن الإمام وفخرها لا يعدل
علمت حتى لم تدع من جاهل   أعطيت حتى لم تدع من يسأل
وعناية الله اشتملت رداءها   وعلقت منها عروة لا تفصل

اتصل بهذا البيت جملة أبيات من القصيدة المترجمة فى العيديات التى أولها:

بشرى كما وضح الصباح وأجمل

وحذفناها من هذه اقتصارا للتكرار، وزاد فى هذه(١):

أخذت قلوب الكافرين مهابة   فعقولهم من خوفها لا تعقل
حسبوا البروق صوارما مسلولة   أرواحهم من بأسها تتسلل
وترى النجوم مناصلا مرهوبة   فيفر منها الخائف المتنصل
يابن الألى إجمالها وجمالهم   شمس الضحى والعارض المتهلل
مولاى لا أحصى مآثرك التى   بجهادها يتوسل المتوسل
أصبحت فى ظل امتداحك ساجعا   ظل المنى من فوقه يتهدل

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢١٥.

طوقتـه طوق الحـمـائم أنعـمًا ... فـغـدًا بشكرك فى المحافل يهـدل
فـإليك من صون العـقـول عقلية ... أهداكـهـا صنع أغـر مـحـجل
عـذراء راق الصنع رونق حـسنها ... فـغـدا بنظم حليـهـا يتكلل
خيـرتهـا بين المنى فـوجـدتها ... أقـصى مناها أنهـا تـتـقـبل
لا زلت شمـسًا فى سماء خلافةٍ ... وَهِلاَلُك الأسـمى يتم ويكمل

ثم قال بعد ذكر جملة من نظمه: ومن رقيق منازعه فى بعض نزه مولانا رضوان الله عليه بالقصر السلطانى من شنيل قوله(١):

نفسـى الفداء لشادن مهما خطر ... فالقلب من سهم الجفون على خطر
فـضح الغـزالة والأقـاحة والقنا ... مـهـمـا تـثنى أو تبـسم أو نظر
عـجـبًا لليل ذوائب من شـعـره ... والوجـه منه عن صباح قد سـفر
عـجبًا لعـقـد الثغـر منه منظمًا ... والعقـد من دمعى عليـه قد انتـثر
مـا رمت أن أجنى الأقـاح بثـغـره ... إلاّ قـد سل السـيـوف من الحـور
لم أنـسـه ليـل ارتقـاب هـلاله ... والقلب من شك الظهور على غرر
بتـنا نـراقـبـه بـأول ليـلةٍ ... فإذا به قـد لاح فى نصف الشـهر
طالعـتـه فى روضـةٍ كـخـلاله ... والطيب من هذى وتلك قد اشتهر
وكـلاهما يبـدى محاسنه جـملة ... ملء المشـامم والمسـامع والبـصـر
والكأس تطلع شـمسـها فى خـده ... فـتكاد تعـشى بالأشـعـة من نظر

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢١٦.

نورية جـــبـيــنه وكـــلاهـمـــا يجلو ظـلام الليل بالوجــه الأغـر
هى شـيمـة للشـيخ فيـهـا نسبـة مـا إن يزالا يرعـشـــان من الكبـر
أفرغت فى جسم الزجـاجة روحها فـرأيت روح الأنس منهـا قد بهـر
لا تسق غير الروض فـضلة كأسها فالغـصن فى ذيل الأزاهر قد عـثر
ما هب خـفاق النسيم مع السـحر إلاّ وقد شـاق النفـوس وقد سـحر
ناجى القلوب الخـافـقات كـمـثله ووشى بما تخفى الـكمام من الزهر
وروى عن الضحـاك عَنْ زهر الربا مـــا أسنـد الزهرى عنه عـن مطر
وتحـملت عنه صـحـيح حـديثـه رسل النسـيم وصدق الخُـبْرُ الخَـبَر
يا قـــصـــر شِـنِّيلٍ وربعـك آهل والروض منك على الجمال قد اقتصر
لله بحـرك والصـبـا قـد سـردت منه دروعـا تحت أعــلام الشـجـر
والآس حف عـــذاره من حـــوله عن كل من يهوى العذار قـد اعتذر
قـبل بثـغـر الزهـر كف خليـفـةٍ يغنيك صـوب الجـود منه عن المطر
وافـرش خـدود الورد تحت نعـاله واجعل بها لون المضاعف عن خفر
وانظم غناء الطـير فـيـه مـدائحًـا وانثـــر من الزهر الـدراهم والدرر
المنتـقى من الجوهر الشـرف الذى فى مـدحـه قـد أنزلت آى السـور
والمجـتـبى من عنصـر النور الذى فى مطلع الهـدى المقدس قـد ظهر
ذو سطوةٍ مـهمـا كفى ذو رحـمةٍ مـهمـا عفـا ذو عفـةٍ مهـما قـدر
كم سـائلٍ للدهر أقـسم قـائلاً والله مــــا أيامــه إلاّ غـــرر

مولای سـعدك كـالمهند فی الوغی		لم يبق من رسم الضـلال ولـم يذر
مـولای وجهك والصـبح تشابهـا		وكلاهمـا فی الخافقـين قد اشتـهر
إنَّ الملوك كـواكب أخـفـيتـهـا		وطلعت وجهك فی مظاهرها قـمر
فی كل يوم مـن زمـانك مـوسم		فی طيـه للخلق أعـيـاد كـبـر
فـاستقبل الأيام يندی روضـهـا		ويرف والنصـر العـزيز له ثمـر
قد ذهبت منهـا العشايا ضـعف ما		قد فضضت منهـا المحاسن فی السحر
يا بن الـذين إذا تعـد خـلالهم		نفد الحساب وأعـجزت عنها القدر
إن أوردوا هيم السـيـوف غـدائراً		مـصقـولة فلطالما حـمدوا الصـدر
سـائل بـبـدر عنهم بـدر الهـدی		فبهم علی حزب الضلال قد انتصر
واسـأل مـواقفـهم بكل مـشـاهد		واقر المغازی فی الصحـيح وفی السير
تجـد الثـناء ببـأسـهـم وجـودهم		فی مـصحف الحی المنزل مسـتطر
فبمثل هديك فلتنر شمس الضحی		وبمثل قـومك فليفـتخـر من فخـر
مـاذا أقـول وكل وصفٍ معـجـر		والقول فـيك مع الإطالة مختـصر
تلك المناقب كـالثواقب فی العـلا		من رامـها بالحـصر أدركـه الحصـر
إن غـاب عبـدك عن حـماك فـإنه		بالقلب فی تلك المشاهد قـد حضر
فـاذكـره إنَّ الذكـر منك سـعـادة		وبهـا علی كل الأنام قـد افـتخـر
ورضـاك عنـه غـاية مـا بـعـدها		إلاّ رضـا الله الذی ابتـدع البـشـر
فـاشكر صنيع الله فـيك فـإنه		سـبـحـانه ضـمن المـزيد لمن شكر

وعليك من روح الإله تحية ... تهفو إليك مع الأصائل والبكر

ثم قال: ومن أغراضه الوقتية استرسالا مع الطبع البديهى، فى الشكر على ضروب من التحف التى يقتضيها التحفى السلطانى بأولياء خدمته، نبذ متعددة فيما يظهر؛ فمنها قوله[1]:

يا خير من ملك الملوك بجوده ... وبفضله قد أشبه الأملاكا
والله ما عرف الزمان وأهله ... أمنًا ويمنًا دائمًا لولاكا
وافيت أهلى بالرياض عشية ... فى روض جاهك تحت ظل رضاكا
فوجدته قد طله صوب الندى ... بسحائب تنهل من يمناكا
وسفائن مشحونةٍ ألقى بها ... بحر السماح يجيش من نعماكا
رطب من الطلع النضيد كأنها ... قد نظمت من حسنها أسلاكا
من كل ما كان النبى يحبها ... وأحبها الأنصار من أولاكا
وبدائع التحف التى قد أطلعت ... مثل البدور أنارت الأحلاكا
نطف من النور المبين تجسمت ... حتى حسبنا أنهن هداكا
يحلو على الأفواه طيب مذاقها ... لولا التجسد خلتهن سناكا
طافت بها النشأ الصغار كأنها ... سرب القطا لما وردن نداكا
نجواهم مهما سمعت كلامهم ... ونداهم: مولاى أو مولاكا
أبلغت فى الأبناء عبدك سؤله ... لازلت تبلغ فى بنيك مناكا

(١) نفح الطيب جـ٧ ص ٢١٨.

يتـدارسون من الدعـاء صـحائفًـا ... كـيـمـا يطيل الله فى بقـيـاكـا
فبـقيت شـمسًا فى سـماء خـلافةٍ ... وهم البـدور أمـدهـن سناكـا

ثم قال: ومنها وقد أهداه - رحمه الله - أطباقا من حب الملوك[1]:

كـتب الإله على العـبـاد مـحبـة ... لك كـان فرض كـتـابهـا موقـوتا
وأنا الذى شـرفـتـه من بيـنهم ... حـتى جـعلت له المحـبـة قـوتا
مـا زلت تتـحـفـه بكل ذخـيـرةٍ ... حـتى لقـد أتحـفـتـه اليـاقـوتا
والى الملوك قـد اعـتـزى من عـزه ... فـغـدا له ياقـوتـهـا ممقـوتا

ومنها فى مثل ذلك:

يا خـيـر مـن ملك المـلوك ... أهـديتـنى حَـبَّ المـلـوك
فـكأنما يـاقـوتهـا ... نـظـمـت لـنا نـظـم الـسـلـوك
إنَّ المـلـوك إذا لجـوا ... فـغـيـاثـهم أنْ أمَّـلوك
وكـذا الـعـفـاة إذا شـكوا ... فـغناهـم أن يسـألـوك
فـالله يقـبـل من دعـا ... لـعـلاك مـن أهل الـسلـوك
لا زلـت تـطـلـع غـرةً ... كـالـشـمس فى وقـت الدلوك

ومنها وقد أهداه صيداً مما صاده بنوه رضى الله عنه[2]:

يا خير من ورث السماح عن الألى ... نصـروا الهـدى وتبـوءوا الإيمـانا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢١٩.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٠٠.

فى كل يوم منك تحفة منعم … وَالَى الجميل والجزل الإحسانا
قد أذكرت دار النعيم عبيده … وتضمنت من فضله رضوانا
تهدى مواليك الذين تفرعوا … عن دوح فخرك فى العلا أغصانا
لجلالك الأعلى قنيصًا أتعبوا … فى صيده الأرواح والأبدانا
فتخصنى منه بأوافر قسمة … فسحت لعبدك فى الرضا ميدانا
لله من مولى كريم بالذى … تهدى الموالى يتحف العبدانا
تدعو بنى إلى الغنى بربه … يا ربنا أغن الذى أغنانا
وعليك من قدس الإله تحية … تهديك منه الروح والريحانا

ومنها وقد أهداه رحمه الله أصنافا من الفواكه(١):

يا من له الوجه الجميل إذا بدا … فاقت محاسنه البدور كمالا
والمنتقى من جوهر الفخر الذى … فاق الخلائف عزة وجلالا
ما أبصرت عيناى مثل هدية … أبدت لنا صنع الإله تعالى
فيها من التفاح كل عجيبة … تذكى بريحها صبا وشمالا
تهدى لنا نهد الحبيب وخده … وترى من الورد الجنى مثالا
وبها من الأترُجِّ شمس أطلعت … من كل شطر للعيين هلالا
ويحفها ورق يروق كأنه … ورق النضار وقد أجاد نبالا
لون العشية ذهبت صفحاتها … رقت وراقت بهجة وجمالا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٠.

وبهـا مـن النقل الشـهى مـذكـر | عـهـدًا تولى ليـتـه يتـولى
لله منهـا خـضـرة من حـضـرةٍ | تغنى العـفـاة وتحـسب الآمـالا
أذكـرتنى العهـد القديم ومـعهـدًا | كـانت شـموس الراح فـيـه تلالا
فـأردت تجـديد العـهـود وإنّمـا | كـتب المشـيب على عـذارى لالا
فـأدركت من ذكراك كـأس مدامـةٍ | وشـربت من حـبـى لهـا جـريالا
فبـقيت شـمسا فى سـماء خـلافةٍ | لا يسـتطيع لهـا الزمـان زوالا

ثم قال: ومنها يوم عاشوراء[1]:

يأيـهـا المولـى الذى بركـاته | رفـعت لواء للـندى منشـورا
لك راحـة تزجى الغـمـام بأنملٍ | فـجـرت منهـا بالنوال بحـورا
واليـوم مـوسم قـربةٍ وعـبـادةٍ | وغـدًا ظفـرت بـأجـره عـاشـورا
راعـيـت فـيـه سنة نبـوية | يروى الثـقات حـديثهـا المشهـورا
لا زلت عـامك كلـه فى غـبطةٍ | لقـيت منهـا نصـرة وسـرورا

ومنها فى بعض قطعه[2]:

واليت مـا أوليت يا بحـر الندى | ووحق وجـهك مـا رأيت كـهـذه
فـإذ يهـز لهـا اللسـان حـسامـه | فصـفات فخـرك قد قـضت بنفاذه
علمت فـرسـان الـكلام نظامـهـا | كـتـعـلم التلمـيـذ مـن أسـتـاذه
والبـحـر تمتـار السـحـائب مـاءه | فـتـجـوده من غـيـثـهـا برذاذه

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢١.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢١.

ومنها وقد أهداه باكورا[1]:

يا وارث الأنصـــار وهى مـــزية ... بفـــخـارها أثـنى الكتـاب المنزل
أهديتنـى البـاكـور وهى بشـارة ... ببـواكـير الـفتح الذى تـستـقـبل
وولادة لـهــــلال تم طـالـع ... وجـه الـزمـان بوجــهـه يتــهلل
هو أول الأنـوار فى أفق الهـــدى ... وترى الأهلة بـعـده تســتـرسل
مـولاى صـــدق الفـأل جـــربتـه ... من لفظ عـبدك والعواقـب أجمل

ثم قال: ومنها فى جفنة ثريد[2]:

طعـامك من دار النـعـيم بعـثـتـه ... فشرفتنى من حيث أدرى ولا أدرى
بهضـبة نعمى قـد سمونا لأوجـها ... فصـدنا بأعلاها الشـهى من الطير
وقـــوراء قـد درنـا بهـالـة بدرها ... كما دارت الزهر النجوم على البدر
وقـد حملت فـوق الرءوس لأنهـا ... هدية مولى حل فـى مفرق الفـخر
فـمـا شـئت من طعم زكى مُـهَنَّأٍ ... وما شئت من عرف ذكى ومن نشر
فلو أنهـــا قـد قـــدمت لخليـــفـة ... لأعظمـهـا قـدرا وبالغ فى الشكر
وكم لك نعـمى عـلى عـمـيـمـة ... يقل لأدناها الجـــميل من الذكـر
فـلا زلت يا مـولى الملوك مـبلغـا ... أمـانى ترجوها إلى سـالف الدهر

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢١.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٢.

ومنها شكرا عن كتاب[1]:

مولاى يوم الجمعة ... سعوده مجتمعة
فانعم صباحا واغتنم ... أوقاته المجتمعة
وابشر بصنع عاجل ... أعلامه مرتفعة
وانتظر الفتح الذى ... يأتيك بالنصر معه
وبيضه وسمره ... إلى العداة مشرعة
واللطف مرجو فرد ... بفضل ربى مشرعة
فاتحتنى شرفتنى ... برقعة مُرَفَّعَة
بل روضة ممطورة ... أزهارها منوعة
حديقة قد جدتها ... بصوب جود مترعة
وراية منشورة ... وآية مستبدعة
كم حكمة لطيفة ... فى طيها مستودعة
عقيلة صورتها ... من الجمال مبدعة
سقيتنى بفضلها ... من فضل كأس مترعة
فدم وأملاك الورى ... على علاك مجمعة

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٢.

ومنها شكرا على خلعة[1]:

يا بدر تم فى السماء خلافة ... حفت نجوم السعد هالة قصره
ألبست عبدك من ثيابك ملبسا ... قد قصرت عنه مدارك شكره
ورضاك عنه خير ما ألبسته ... فلقد أشاد بجاهه وببره
ألبستنى أركبتنى شرفتنى ... أهديتنى ما لا أقوم بحصره
نظرى لوجهك وهو أجمل نير ... يزرى على شمس الزمان وبدره
أعلى وأعظم منه لا سيما ... وأنا المنعم فى الحضور ببشره
لا زلت مولى للملوك مؤملا ... وعلاك للإسلام مفخر دهره

ثم قال: ومنها وقد خلع - رضوان الله عليه - على رسول من أرساله[2]:

أبحر سماح مَدّ عشرة أبحر ... تفيض غمام الجود وهى الأنامل
بكفك غيث للبلاد وأهلها ... يروض محل الأرض والعام ماحل
لك الخير إن أصبحت بحر سماحة ... يعم نداه فالمواهب ساحل
خلعت على هذا الرسول ملابسا ... بها تتسنى فى علاك المآمل
وبلغته آماله كيف شاءها ... فبلغت يا مولاى ما أنت آمل

---

(1) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٣.

(2) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٣.

ثم قال بعد إيراد عدة مقطوعات وقصائد من نمط ما سبق:

وأنشده وقد مرض بعض أبنائه - رحمة الله عليه وعليهم - سائلا عن حاله[1]:

أسائل بدر التم كيف هلاله وأدعو له الرحمن جل جلاله
وأسأله تعجيل راحته التى وسيلتنا فيها النبى وآله
ستبلغ فيه ما تؤمل من منى ويرضيك يا بدر الكمال كماله

وفى مثله يقول رحمه الله[2]:

أقول لبدر التم كيف هلالكا نعمت صباحا بالسرور وآلكا
وبلغت فى النجل السعيد سعادة تقر بها عينا وينعم بالكا
وخصصت بالبشرى من الله ربنا كما عم أقطار الجهات نوالكا

وفى التورية باسم قائد مولاه مولانا رضى الله عنه على جماعة من الجند[3]:

يأيها المولى الذى أيامه تهمى بسحب الجود من آلائه
أبشر لجيشك بالسعادة كلما يغزو فنصر الله تحت لوائه

وأنشده رضى الله عنه فى ملبس اتخذه[4]:

أمولاى يا بن السابقين إلى العلا ومن نصروا الدين الحنيفى أولا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٤.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٤.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٤.
(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٤.

غنيت بنور الله من كل زينة وألبست من رضوانك أشرف الحلى
وقارك زاد الملك عزا وهيبة وسوغه من رحمة الله منهلا
ويا شمس هدى فى سماء خلافة وأبناؤه الزهر المنير تُجْتَلَى
تبارك من أبداك فى كل ظهر جميلا جليلا مستعاذا مؤملا
فيخجل منك الشمس شمس هداية ويحسد منك البدر بدرا مكملا
إذا أنت ألبست الزمان وأهله ملابس عز ليس يدركها البلى
وطوقت أجياد الملوك أياديا وتوجتهم بالفخر تاجا مكللا
فما شئت فالبس فالمشاهد قائل: تبارك ما أسنى وأبهى وأجملا
ألا كل من صلى وضحى ومن دعا ومد يديه ضارعا وتوسلا
وجودك شرط فى حصول قبوله وجودك أثرى كفه متنفلا

وقال برسم ما يرسم على ثوب فى بعض هدايا مولانا رحمه الله للسلطان أبى العباس(١):

أهدى أبا العباس ملك الندى والباس
ثوب السماء لأنه بدر بدا للناس
فلق الصباح بوجهه عوذته بالناس
يكسو إماما لم يزل بحلى المحامد كاس
فياله من مرتاد ثوب التقى لباس

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٥.

أذيالـه من حـــمـــده ... مـــسكيـــة الأنفـــاس
وبـطرزه مــــدح زرى ... بالمدح فى الـقـــرطاس
إن كنت فى لون الـسـمـا ... ء بنســبـة وقـــيـاس
فــلأنـت يا بدر العـــلا ... شـــرفـتنى بـلبـاس
أنا منشـد «مـا فـى وقـو ... فك سـاعـــة من باس»
لتـــرى رياضـا أطـلعت ... زهـرا عــلـى أجـنـاس
أوراقــهـا توريـقــهـا ... بقـضـيـبـهـا الميـاس
ومن المديـح مـدامـــتى ... ومن المحــابـر كـــاسى
فـــالله يُـمـــتع لابـسى ... بالـبـــشـــر والإيـناس

وفى مثل ذلك قوله رحمه الله[1]:

إنَّ الإمــام مـحـمــدا ... أهدى الخليــفـة أحـمـدا
[للبـــاســه ثوبـا وقـد ... لبس المحـامـد وارتدى][2]
وعـمـامـة الـتـقـوى التى ... من فـوقهـا شمس الهـدى
يا حـسـنـهـا إذ أرسلت ... من كـفــه غـيـث الندى
وكـأن وشـى رقـومــهـا ... بالبــرق طرز عـســجـدا
ويطـرزه لون الســمـــا ... ء ووجــهــه قـمــر بدا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٦.

(٢) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٦.

لله منه نيـــــــــــــــر حل المنازل أسْـــعُـــدَا
مـــســـتنصـــر أعـلى له فـوق الكواكب مـصـعـدا

ثم قال بعد ذكر قصيدة فى المدح:

وأنشده وهو على جواد أدهم[1]:

تجلى لنا المـولى الإمـام مـحـمّـد على أهدم قـد راق حـسن أديمـه
فأبصرت صبـحا فوق ليل وقد حكى مـقلد ذاك الطـرف بعض نجـومـه

وكتب له مع هدية زهرية[2]:

أمـولاى تقـبـيلى ليـمناك شـاقنى ولا ينكر الظمآن شوقـا إلى البحر
ولمّا رأيت الـدهر مـــاطنـى بهـــا وشوقنى من حيث أدرى ولا أدرى
بعــثت لك الزهر الجـنى لعلهـــا يقـــبلهـــا عنى ثغـــور من الزهر

وكتب إليه أيضا متشوقا[3]:

كـتبت ودمـعى بلل الركـاب قطره وأجـرى به بين الخـيـام السواقـيـا
حنـينا لمولـى أتلف المال جـــوده ولكنه قـــد خلد الفـخـر بـاقـيـا
ومـا عـشت بعـد البـين إلاّ لأننى أرجى بفـضل الله مـنه التـلاقـيـا

وأنشده أيضًا وهو بحال تألم[4]:

كـأنى بلطـف الله قـد عم خلقـه وعـافى إمام المسلمـين وقد شـفى

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٦.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٦.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٧.
(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٧.

وقاضى القضاء سجل حكمه   وخط على رسم الشفاء له: اكتفى

وفى مثل ذلك[1]:

لك الخير يا مولاى أبشر بعصمة   عقدت مع الأيام فى حفظها صلحا
وعافية فى صحة مستجدة   تجدد للدين السعادة والنجحا
فوجه التهانى مشرق متهلل   وجو الأمانى بعد ما غام قد أصحى
وقد ظهرت للبرء منك علامة   علامتك العظمى تقول لنا: صحا

وفى مثل ذلك[2]:

يا إماما قد تَخِذْنَا   ه من الدهر ملاذا
خط يمناك ينادى   صح هذا صح هذا

وقال مهنئا بالشفاء[3]:

الحمد لله بلغنا المنى   لما رأيناك وزال العنا
وفزت بالأجر وكبت العدا   وفزت بالعز وطيب الثنا
فالحمد لله على ما به   من علينا من ظهور السنى

وقال أيضًا فى نحو منه[4]:

نعم قرت العينان وانشرح الصدر   وقد لاح من وجه الإمام لنا البدر

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٧.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٧.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٧.
(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٨.

سرينا بليل التيه يكذب فجره فلما تجلى بشره صدق الفجر

أغر المحيا بالحياء مقنع زهاه الكلام الحر والنسب الحر

إمام الهدى قد خصه بخلافة إله له في خلقه النهى والأمر

وقال في مثله وقد ركب رحمه الله عليه لمعاهد حضرته[1]:

هنيئا هنيئا لا نفاد لعده وبشرى لدين الله إنجاز وعده

فقد لاح بدر التم في أفق العلا وحل كما يرضى منازل سعده

وطاف إمام المسلمين محمّد بحضرته العليا مبلغ قصده

ولاحت به الأنوار من بشر وجهه وفاح بها النور من نشر حمده

[وأبصرت الأبصار شمس هداية وأشرقت الأرجاء من زهر رِفْدِه][2]

ولوحت الأعلام فيها بنصره كما لوح الصبح المنير ببنده

ستهدى له الأيام كل مسرة ويحيى به الرحمن آثار جده

فسل حسام السعد واضرب بحده وخل حسام الهند في كن غمده

فسيفك سيف الله مهما سللته يقيم حدود الله قائم حده

وأنشده رضى الله عنه في طرد مولانا الوالد رحمه الله ويصف البازى ويشكر ما أهداه من صيده:

يا من تمد له الملوك أكفها تدعو الإله له بطول بقاءِ

أضحى ولى العهد نجلك صائدا شأن الملوك العلية العظماء

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٨.

(٢) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٨، وفي سائر الأصول: «وفده» مكان: «رفده».

ورمى البزاة على القناة يصيده   صيد الخليفة شارد الأعداء
من كل خافقة الجناح إذا مشت   تبدى اختيال الغادة العذراء
أهدت لنا سبج العيون وطوقت   أرجاءها بعقيقة حمراء
واستاقت الياقوت فى منقارها   ومشت على المرجان فى استحياء
ووشت يد الأقدار فى أعطافها   وشيًا زرى بالحلة السيراء
ملك الطيور أتى إلى ملك الورى   فاستاقها لمؤمل الخلفاء
وقضى سماحك أن تجود ببعضها   للعبد تعليه على الجوزاء
لله هل شرف يضاهى ذا الذى   أوليته من منة غراء
هيهات أين جزاؤها من شكره   يجزيك عنا الله خير جزاء
أولست قد أوليت كل خليفة   شرقا وغربا أصواب الآراء
فلصاحب الصفراء فخر خالد   يحظى به من صاحب الحمراء
بيضا وسمرا قد شرعت لنصره   وأعنت بالبيضاء والصفراء
لا زلت شمس خلافة أبناؤه   مثل البدور بمرقب العلياء

وأجاب عن أبيات خمس كتب رضى الله عنه بها إليه:

لك فى الخلافة مظهر لا يفرع   من دون مرقبه النجوم الطلع
يأيها الملك الذى أيامه   غرر بوجه الدهر لا تتقنع
سبحان من حلاك بالخلق الرضا   وكساك منه حلة لا تخلع
أما المدام فدمت تطلع شمسها   بين البدور وشمس وجهك تسطع

أغنيــتنى عنهــا بخــمـر بــلاغــة فــالطيب من نفــحــاتهــا يتــضــوع
بوأتنــى من عـــز نظمك روضـــة طاب الجنــى منهــا ولَــذَّ المشـــرع
وأريتـنى جـنح الـدجنـة غــــرة فــالـنور من قــســمــاتهــا يـتطلع
يعنو لهــا الـبـدر المنيـر وقــد عـلا والبــــدر تاج بـالنجـــوم مـــرصع
فـاتحـــتنى منــهــا بخـــمس ولائد لتـــعــيـــذها من كل عــيــن تلقع
قـــبلتـــهـــا ألفـــا وبــت لربهـــا أدعــو له حـتى الصبـاح وأضـرع

وقال يصف غربانا أجـراها - رحمه الله عليه - ويتـفاءل له بالراحة من شكاية ثلاثة:

أعلامك الحمر فوق الـسفن خافقة وريح سـعــدك تجريهـا على قــدر
ما إن رفعت قسى السفن فى وطن إلاّ ونلت قـصى الـسـؤل والوطر
قالوا الـسـفائن فوق البـر ذا عجب من غـير بحـر ولا موج ولا غــرر
فـقلت آثار مــولانا التى ســفــرت لنا الـعناية عـن آياتهــا الـكبــر
تجرى بريـح سعود فى بـحار ندى تغنى بـنانك عن بحـــر وعن مطر
لله يوم عـــجـــيب الصـنع ذو أثر مـحـجل رائق الأوضــاح والغــرر
استـبشــر الناس فيه بالصـنيع وقد تضمــن البشر فـى ورد وفى صدر
زجـرته بشـفـــاء قــد أتاك كــمــا يرضى علاك جـميل الخُبْرِ والخَبَرِ
إذا شكوت فكـل الكون ذو وصب فـأنت منه مكان السمع والبـصـر
ومن شكا بألـيم الوجـد فى بصـر فـقد تعـود غيـر السهـد والسفـر

فـأسأل الله رب العـرش فى لطف   يسـرى إليك بهـا إنعـام مـقـتـدر
وأن يدافع عن ذات بحـــرمـتـهـا   تعـود الخلق لـطف الله فى القـدر

ثم قال بعد إيراد جملة من نظمه:

وأنشد وقد عاد - رحمة الله عليه - من بعض متوجهاته الجهادية لجبل الشوار[1]:

على الطائر الميمـون والطالع السعد   قدمت مع الصنع الجميل على وعد
وقد عدت من جبل الشوار لتجتلى   عـقـائـل للفـتح المبـين بلا عـد

ثم قال بعد ذكر جملة:

وقال مما رسم فـى طيقان الأبواب بالمـبانى السعـيدة التى ابتناهـا مولانا رضى الله عنه[2]:

أنا تـاج كـــهــــلال   أنا كـــرسى جـمـــال
ينجـلى الإبريق فــيـــه   كعـروس ذى اختـيال
جـود مـولانا ابن نصـر   قـد حبـانى بالكمـال

وفى المعنى[3]:

من رأى التـاج الـرفـيـعـا   قد حوى الشكـل البديعا
تحـســــد الأفــلاك مـنه   قـوسـه السـهل المنيـعـا
دمت ربعــا للتـهـــانى   انظم الشـمل الجـمـيعـا

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٩.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٩.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٩.

وفيه:

للـغنى بالله قـــصـــر للتـهـانى يـصطفيـه[1]
فـيـه مـــحـراب صـلاة يقـف الإبريق فـــيـــه
تاليـــا ســورة حـــبى والمعـــالى تقـــتـفـيـــه

وفيه[2]:

أى قـــوس ذى كـمـــال سـهمـه سـهم السعـاده
ملـك الإبريق فـــيـــه عـود الإحـســان عـاده
ذو صــلاة مـن صــلات كلهـــا دأبا مـــعـــاده

وفى المعنى مما كتبه لمبتنى لعمنا سعد رحمة الله تعالى عليه[3]:

انظـر لأفق جـــمـــال به الأباريـق تصـعـــد
بديع حــسن حـــبـاه به الأمــيـر الـمـجــد
فـخـر الإمـــارة سـعـد به الخلـيـفـة يســعــد
وكــــيف لا وأبـوه فـخـر الملـوك مـحـمّـد
[عليـــه حلى رضـــاه فى كـل يوم تجــــدد]

وفيه أيضًا[4]:

رفـعت قـــوس سـمـاء يزهى بـتـاج الهـــلال

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٩.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٩.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٠، وما بين حاصرتين منه.
(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٠.

قــــد قلـدته نـقـــــوشى	در الدرارى الـغـــــوالى
ترى الأبـاريق فــــيـــــه	تهـــديك عـــذب الزلال
قـد زان قــصـرى ســعـد	بســـعــــده المتـــوالى
فــــدام يعـــمــــر ربعى	فى ظـل مـــولى المـوالى

وقال فى الغرض[1]:

ما ترى فى الرياض أشـباهى	يسحر العقال حسنى الباهى
زان روضى أمـيـــره سـعـد	وهـو نجـل الـغـنـى بـالله
دام مـنه بمـرتقـى عـــــز	آمـر بـالسـعـــود أو ناهى

وقال فى غرض الشكر [عن مغطى صنهاجى أهداه إياه][2]:

لمن قـبـة حـمـراء مـد فـضـاؤها	تطابق منهـا أرضـهـا وسـمـاؤها
ومـا أرضـهـا إلاّ خـزائن رحـمـة	وما قد سـما من فوق ذاك غطاؤها
وقـد شبـه الرحـمن خلقـتنا بهـا	وحسـبك فخـرا بان منه اعتـلاؤها
ومعـروشة الأرجـاء مفـروشة بـها	صنوف من النعـماء منهـا وطاؤها
ترى الطير فى أجوافها قد تصففت	على أنـعم عند الإله كـــفـــاؤها
ونسـبـتـه صنهـاجـة غـيـر أنه	تقـصر عـما قـد حوى خلفـاؤها
حـبتنى بهـا دون العـبيـد خلافـة	على الله فى يوم الجـزاء جـزاؤها

(١) نفح الطيب جـ٧ ص ٢٣٠.

(٢) نفح الطيب جـ٧ ص ٢٣٠ وما بين الحاصرتين منه.

وفى مثله[1]:

مـا للعـوالم جـمـعت فى قـبـة ... قـد شادها كـرم الإمـام مـحمّـد
فى صـفح صـرح بالزجـاج مموه ... وبجــود مـولاى الإمـــام ممهـد
مـا إن رأيت ولا سـمـعت بطائر ... عن ثوب مـوشى الرياش مـجـرد
إن لم تكن تلـك الطيـور تغـردت ... فلشكر هذا العـبـد سجع مغـرد
صـفت عليـهـا للفـواكـه كل مـا ... قـد عـاهدته بـدوحـهـا المتـعـود
لو أبصـرت صنهـاجـة أوضـاعـه ... دانت له أمـــلاكـهـــا بتـــعـبـــد
عـودتنى الصنع الجـميـل تفضـلا ... لا زلت خـيـر مـعـوَّد ومـعـوِّد
وبســورة الأنعـــام كم مـن آية ... فـيـــهـا لقـــار بالنوال مـــجـود

وقال تذييلا لبيتى ابن المعتز[2]:

«سـقـتنى بليل شـبـيـه بشـعـرها ... شـبـيـهة خـديهـا بغـيـر رقـيب
فأمسيـت فى ليلين للشعر والدجى ... وشمسـين من خمر وخد حـبيب»
إلى إن بدا الصـبح المنيـر كـأنه ... مـحيـا ابن نصر لم يشن بغـروب
شـمائله مـهمـا أديرت كئـوسهـا ... قــلائد أســمـــاع وأنـس قلوب

وقال مذيلا على بيت ابن وكيع أيضًا[3]:

«هى فى أوجــه الندامى عـقــيق ... وهى مـــثل النظار فى الأقـــداح»

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣١.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣١.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٢.

كـابن نصـر تراه فى الحرب لـيثـا وهو بدر الهـدى وغـيث السمـاح
ذكـره قـد ثنى قـدود الـندامى وأعـاد الحـيـاة فى الأشـبـاح

وقال مما يرسم للغنى بالله(١):

لـلـغـنـى بـالله مـلـك برده بـالعـز مـذهب
دام فى رفـعـة شـان مـاجـلا الإصـبـاح غـيـهب

وقال أيضًا(٢):

يا بـن نصـر لك مـلك ليس تـعـوده الفـتـوح
دمت روحـا للـمـعـالى مـا سـرى فى الجـسم روح

وقال من مقطوعة(٣):

وابن نصـر ليس مـحـيا كـصـبح إن تجلى جـلا دجـى كل كـرب
ذو حـسـام كـأنه لمع برق فى بنان كـأنهـا غـيـث سـحب

ومن أخرى(٤):

وكـأن النجـوم فى غـسـق الليـ ـل جـمـان يلوح فى آبـنوس
وكـأن الصـبـاح فـى الأفق يجلى بحلى الـنجـوم مـثل العـروس
وكـأن الـرياض تهـدى ثـناء للـغـنـى بالله فـوق الـطروس

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٢.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٢.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٢.
(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٢.

ثم قال بعد قصائد كثيرة عيدية:

وقال من أخرى عيدية شاركتها فى كثير من أبياتها قصيدة فتحية تقدمت، أولها

* هى نفحة هبت من الأنصار *

والمختص بهذه:

أضياء هدى أم ضياء نهار   وشذا المحامد أم شذا الأزهار[1]

ومنها بعد كثير:

قسما بهديك فى الضياء وإنه   شمس تمد الشهب بالأنوار[2]

ومنها أيضًا[3]:

كم من لطائف للهدى أوضحتها   خفيت مداركها على الأفكار

كم من جرائم قد غفرت عظيمها   مستنزلا من رحمة الغفار

علمت ملوك الأرض أنك فخرها   فتسابقت لرضاك فى مضمار

ومنها يصف الجيش[4]:

سالت به تحت العجاج سفينة   نفحت بريح العزم من أنصار

أرست بجودى الجود فى يوم الندى   وجرت بيوم الحرب فى تيار

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

ومنها[1]:

ألقى بـأيدى الريح فـضل عـنانه ... فـيكاد يسـبق لمحـة الأبصـار

ومنها[2]:

فهى العراب متى أثيرت فى الوغى ... قد أعـربت عن صنع لطف البارى

ومنها[3]:

إن خاض فى بحـر العجـاج رأيته ... يجـلو دجنتـه بوجـه نهـار

ومنها[4]:

كم فـيـهم من قـار ضـيف طارق ... وضـحت شـواهد فـضـله للقـار

ومنها[5]:

يأيـهـا الملك الـذى أيامـه ... غـرر تلوح بأوجـه الأعـصـار

قـد زارك العيـد السعـيد مـبشـرا ... فـاسـمح لألـف مـثلـه بمزار

لما ازدهتـه عـواطف ألطفـتـهـا ... عطف الإله عـليك عطف سـوار

[فـأتى] يؤمم منـك هديا صـالحـا ... كى يسـتـمـد النور بعـد سـرار

وأتاك يسحب ذيل سـحب أغدقت ... تغـرى جـفـون المزن باسـتعـبـار

جادت بجـارى الدمع من قطر الندى ... فـرعى الربيع لهـا حـقـوق الجـار

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٤.

(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٤.

(٥) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٤، وما بين حاصرتين منه.

فأعـاد وجه الأرض طلقـا مشـرقا ... مـتـضـاحكا بمبـاسـم النوار

لما دعـاك إلى القـيـام بسـنة ... حكمت دواعـى الجـود والإيثـار

فـأفـضت فـينا من نداك مـواهبـا ... حـسنت مـواقـعـهـا على التكرار

فـاهنأ بعـيد عـاد يشـتمل الرضـا ... جـذلان يرفل فى حلى استبشـار

ومنها(١):

لا عذر لـى أنَّ كنت فيـه مقـصرا ... سـدت صـفـاتك أوجـه الأعـذار

فـإذا نظمـت من المناقـب درها ... شـرفنـى منهـا بنـظم درارى

فلذلـك أنظمـهـا قـلائـد لؤلؤ ... لألاؤهـا قـد شـف بالأنـوار

ثم أورد هذا المؤلف قصيدة ميمية طويلة، أولها:

هناء لـه ثغـر الـهـدى يتـبـسم ... وبشـرى بهـا عـرف الرضـا يتنسم

تبـسم ثغـر الـثـغـر عنهـا بشـارة ... فـأعدى ثغـور الزهر منه الـتبـسم

ولا عجب من مـبسم الزهر فى الربا ... فللبرق من خلف السحـائب مبسم

عناية مـن أعطى الخليـفـة رتبـة ... عليـهـا النجـوم النيـرات تحـوم

فـمنه اسـتفـاد الملك كل غـريبـة ... تخط على صـفـح الزمـان وترسم

ومنه تلـقى الهـدى كل خليـفـة ... كـأنهـم مما أفـاد تعـلمـوا

ومنها بعد نيف على ستين بيتًا:

وكم من لواء فى الفـتـوح نشـرته ... وللرعـب جـيش دونه يتـقـدم

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٤.

فـقل لملوك الأرض دونـكم فـقـد		أعلم مـــا لا زال بالنـصـر يـعلم
تسـامت بـه لـلنصـر أشـرف ذمـة		لهـا من رسـول الله عـهـد مكرم
وكم من جهـاد قد أقمت فـروضه		يزار به البـيت العـتـيق وزمـزم
وكم عزمـةٍ جردت منهـا إلى العدا		حـسـامـا به داء الضـلالة يحـسم
وكم بيت مـال فى الجـهـاد بذلتـه		وأقـرضت منه الله مـا الله يعلم
وكم ليلة قـد جـئت فـيـهـا بليلةٍ		من النـقع فـيـهـا للأسـنة أنجم
سـهـرت بهـا والله أجـرها		تؤمن فـيـهـا الخلـق والخلق نوم
وفـوقك من سـعـدٍ لواء مشـهـر		ودونك من عـزم حـسام مـصـمم
إذا أنت جـهـزت الجـيـاد لغـارة		فـإن صـبح الحى أغـبـر أقـتـم
فـمن أشـهب مـهـمـا يكر رأيتـه		صـبـاحـا بـليل النفع لا يـتكتم
وأحـمـر قد أذكى به البـأس جذوة		إذا ابتل عطفـا فى الوغى يتـضـرم
وأشقـر أعدى البرق لونا وسـرعة		ولكن لـه دون البـروق الـتـقـدم
وأصـفـر فى لون العـشى وذيليه		ولون الذى بعـد العـشـيـة يعلم
وأدهم مـثل الليل والبـدر غـرة		وبالشـهب فى حلى المقلـد ملجم
وأشهب كالقرطاس قد خط صفحه		كـتـاب من النصـر المؤزر مـحكم
ورُبَّ جـلاد من جـدالٍ سـطرته		يراع القـنا فـيـه تخط وتـرسم
وقام خطيب السيف فوق رءوسهم		فـأعـجب مـنه أعـجم يتـكلم
فكم من رءوس عن جسـوم أزالها		فـأثكل منـهـا كـل باغ يجـسم

وزرق العيون للأسنة قد بكت ولا دمع إلاّ ما أسيل به الدم
ونهر حسام كلما أغرق العدا تلقتهم منه سريعا جهنم
فأصليت عباد المسيح من الوغى سعيراً به يرضى المسيح ومريم
أبر من التثليث بالله وحده فمن يعتصم بالله فالله يعصم
ونبه سيوفًا ماضيات على العدا وخل جفون المرهفات تهوم
ولله من شهر الصيام مودع على كل محتوم السعادة يكرم
تنزل فيه الذكر من عند ربنا فيبدأ بالذكر الجميل ويختم
ولله فيه من ليالٍ منيرة أضاء بنورها الوحى منهن مظلم
وصابت سحاب الدمع يمحى بمائها من الصحائف أوزار تخط ومأثم
ولله فيه ليلة القدر قد غدت على ألف شهر من الثواب تقدم
تبيت بها حتى الصباح بإذنه ملائكة السبع الطباق تسلم
وبشرى بعيد الفطر أيمن قادمٍ عليك بمجموع البشائر يقدم
جعلت قراه سنة نبوية لها فى شعار الدين قدر معظم
ومن عدوات للإله رفعتها تسدد منها للإجابة أسهم
وفى كل عين من محياك قرة وفى كل كف من نوالك أنعم
إذا أنت لم تفخر بما أنت أهله فلا أبصر المصباح من يتوسم
فما مهد الإسلام غير خليفةٍ على عطفه در المحامد ينظم
فكم بيت شعر قد عمرت بذكره فبات به جادى السرى يترنم

ولسن بيوتنا بل قصوراً مشيدة تطل على أوج العلا وتخيم
وما ضرها أنْ قد تأخر عهدها إذا طال مبناها الذين تقدموا
وإذ أنت مولاها وعامر ربعها فكل فخار تدعيه مسلم
أنا العبد قد أسكنته جنة الرضا فلا زلت فيها خالداً تتنعم
ولا زلت فى الأعياد ساجع روضها إذا احتفلت أشرافها أترنم
بقيت متى يبل الزمان تجده وفى كل يومٍ منك عيد وموسم
ودمت لألف مثله فى سعادةٍ يذل بها باغٍ ويعتز مسلم
ولمّا رأيت الفخر جهد مقصر وأنك أعلى من مديحى وأعظم
ختمت ثنائى بالدعاء وهأنا أقلب فى كف الندى وأسلم

ثم قال: ولما انتقل مولانا الجد إلى رضوان الله ونعيم خلده، وقام مولانا الوالد ولى عهده بالأمر من بعده، أنشد رثاء فى السلف، وهناء فى الخلف، رحمة الله تعالى عليهما:

عزاء فإنَّ الشجو قد كان يُسرف وبشرى بها الداعى على الغور يُشرفُ
لئن غرب البدر المنير محمّد لقد طلع البدر المكمل يوسف
وإنْ رد سيف الملك صونًا لغمده فقد سل من غمد الخلافة مرهف
وإنْ طوت البرد اليمانى يد البلى فقد نشر البرد الجديد المفوف
وإنْ نضب الوادى وجف معينه فقد فاض بحر بالجواهر يقذف
وإنْ صوح الروض الذى ينبت الغنى فقد أزهر الروض الذى هو يخلف

وإنْ أقلعت سحب الحيا وتقشع فقد نشأت منها غمائم وكف
وإنْ صدع الشمل الجميع يد النوى بيوسف فخر المنتدى يتألف
وإنْ راع قلب الدين نعى إمامه فقد هز منه بالبشارة معطف
وقد ملك الإسلام خير خليفةٍ من البدر أبهى بل من الشمس أشرف
يعير محياه الصباح إذا بدا وتخجل يمناه الغمام وتخلف
فمن نور مرآه الكواكب تهتدى ومن فيض جدواه الحيا نتوكف
ولما قضى المولى الإمام محمّد تحكم فى الناس الأسى والتأسف
فلا جفن إلاّ مرسل سحب دمعه ولا قلب إلا بالجوى يتلهف
وقد كادت الدنيا تميد بأهلها وقد كادت الشم الشوامخ ترجف
وقد كادت الأفلاك ترفض حسرة وكادت بها الأنوار تخفو وتكسف
ولكن تلافى الله أمر عباده بوارثه والله بالناس أرأف
فلِلدِّين والدنيا ابتهاج وغبطة وللثغر ثغر بالمنى يترشف
أمان كما تندى الشبيبة نضرة يمد له ظل على الأرض أورف
طلعت على الإسلام فى دولة الرضا فأمنته من كل ما يتخوف
بوجه يرينا البدر عند طلوعه وفى وجنة البدر المنير التكلف
وعزم كما انشق الصبح مصمم ورأى به بيض الصوارم ترهف
وحولك من حفظ الإله كتائب وفوقك من ظل السعادة رفرف
فوالله ما ندرى وللعلم عندنا براهين عن وجه الحقائق تكشف

أوجـهك أم شمس النهـار تطلعت — وكـفك أم سـحب الحيـا تَتَـوَكَّفُ
فكم لك من ذكر جـميل ومفـخر — عـميم على أوج الكواكب يشـرف
يزار به البـيت العتـيق وزمـزم — ويعـرفـه حـتى الصـفـا والمعـرف
ومن يسـأل الأيام تخبـره أنهـا — بقومك تزهى فى الفـخار وتشرف
وهل تهـدم الأيام بنيـان مـفـخـر — تشـيـده آى كـرام ومصـحف
ولو كـانت الأيام قـبل تـنكرت — فـباسـمك يا بدر الهـدى تتعـرف
ألا لا ترعـنا الحـادثـات فـإننا — عـصـابـة توحـيـد به نتـشـرف
وليـس لنا إلاّ التـوكل عـادة — وظن جـمـيل وعـده ليس يخلف
فـمن مـبلغ عنـا الغنى بـربه — وقد سـار للفردوس يحيـا ويتحف
بآية مـا بلغـت دين مـحـمّـد — أمـانى للرحـمن تدنـى وتزلف
وعنك يروى الـناس كل غـريبـة — يروى لنا مـنهـا الغـريـب المصنف
فكسـرت تمثـالا وهدمت بيـعـة — وناقوسـها بالكـفر يهدى ويـهتف
وكم من منـار بالأذان عـمـرتـهـا — فـصـارت به الآذان بعـد تشنف
وسرت وقـد خلفت خـير خليـفة — لك الفـخـر منه والثـناء المخلف
أيوسف قد أرضـيته أجـمل الرضا — وكـان بما ترضى وتـخـتـار يكلف
وكنت لـه يا قـرة العـين قـرة — على بـره المحـتـوم تحـنو وترأف
سـتجـرى على آثاره سـابق المدى — فـيـهدى لـه منك الثناء المضـعف
سـيلقى عدو الديـن منك عزائمـا — إليـه بجـرار لكـتـائـب تزحف

ويأسف لَمَّا يبصر البر يرتمى بفرسانه والبحر بالسفن يقذف
وتفتح من بلدانه كل مقفل يعبد عباد الصليب ويؤسف
فما أرؤس الكفار إلاّ حصائد بسيفك سيف الله تجنى وتقطف
حُسَامُكَ رقراق الصفيح كأنه بكفك من ماء السماء ينطف
ضعيف يصح النصر من فتكانه فيروى لنا منه الصحيح المضعف
ورمحك مرتاح المعاطف هزة كأن قد سقته من دم الكفر قرقف
ولا عيب فيه غير أنَّ سنانه إذا شم ريح النقع فى الحرب يرعف
فإن كعت الأبطال فى حومة الوغى يشير لنا منه البنان المطرف
لقد فخر الإسلام منك ببيعة وزال بها عنه الأسى والتخوف
وألبسته بردا من الفخر ضافيا على عطفه وشى المديح يفوف
وقد نظمت فيه السعود ميامنا كما ينظم العقد النفيس ويرصف
فدمت قرير العين فى كل غبطة بما شئت من آمالك الغر تسعف

وأنشد على لحده المقدس - رحمه الله تعالى - فى المعنى قوله[1]:

ضريح أمير المسلمين محمّد يخصك ربى بالسلام المردد
وحياك من روح الإله تحية مع الملإ الأعلى تروح وتغتدى
وشقت جيوب الزهر فيك كمائم يرف بها الريحان عن خضر ندى
وصابت من الرحمى عليك غمائم تروى ثرى هذا الضريح المنجد

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٥.

وزارتك من حـور الجنان أوانس | نواعم فى كل النعيم المخلد
وجاءتك بالبشرى ملائكة الرضا | كما جاء فى الذكر الحكيم الممجد
وصافح منك الروض أطيب تربة | وعاهد منك المزن أكرم معهد
رضا الله والصفيح الجميل وعفوه | يوالى على ذلك الصفيح المنضد
ويا صدفا قد حاز من جوهر العلا | لكل نفيس بالنفاسة مفرد
أعندك أنَّ الحلم والعلم والحجا | وزهر الحلى أدرجت طى ملحد
وهل أنت إلاّ هالة القمر الذى | بنور هداه الشهب تهدى وتهتدى
ويا عجبا من ذلك الترب كيف لا | يفيض ببحر للسماحة مزبد
لقد ضاقت الأكوان وهى رحيبة | بما حزت من فخر عظيم وسؤدد
قدمت على الرحمن أكرم مقدم | وزودت من رحماه خير مزود
أقام بك المولى الإمام محمّد | مؤمل فوز بالشفيع محمّد
فجاء كما يرضى وترضى به العلا | وأنجز للآمال أكرم موعد
ومدينة ظلال العدل فى كل وجهة | وكف أكف البغى من كل معتدى
وقام بمفروض الجهاد عن الورى | وعود دين الله خير معود
قضى بعد ما قضى الخلافة حقها | وعامل وجه الله فى كل مقصد
وفتح بالسيف الممالك عنوة | ومدت له أملاكها كف مجتدى
وكسر تمثال الصليب وأخرست | نواقيس كانت للضلال بمرصد
وطهر محرابا وجدد منبرا | وأعلن ذكر الله فى كل مسجد

وَدانت له الأملاك شرقا وغربا		وكلهم ألقى له الملك باليد
وطبق معمور البسيطة ذكره		وسارت به الركبان فى كل فدفد
وسافر عن دار الفناء ليجتنى		بما قدم اليوم السعادة فى غد
وقام بأمر الله حق قيامه		بعزمة لا وان ولا متردد
لئن سار للرحمن خير مودع		وحل من الفردوس أشرف مقعد
فقد خلف المولى الخليفة يوسفا		يعيد له غر المساعى ويبتدى
سبيلك فى سبيل المكارم يقتفى		وهديك يا خير الأئمة يقتدى
محمّد جلى الخطب من بعد يوسف		ويوسف جلى الخطب بعد محمّد
ولو وجد الناس الفداء مسوغا		فداك ببذل النفس كل موحد
ستبكيك أرض كنت غيث بلادها		وتبكيك حتى الشهب فى كل مشهد
وتبكى عليك السحب ملء جفونها		بدمع يروى غلة المجدب الصدى
وتلبس فيك النيرات ظلامها		حدادا ويذكى النجم جفن مسهد
وما هى إلاّ أعين قد تسهدت		فكحلها نجم الظلام بإثمد
فلا زلت فى ظل النعيم مخلدا		ونجلك يحيا بالبقاء المخلد
وأوردك الرحمن حوض نبيه		وأصدر من خلفت عن خير مورد
عليك سلام مثل حمدك عاطر		يفض ختام المسك عن تربك الندى
وصلى على المختار من آل هاشم		صلاة بها نرجو الشفاعة فى غد

ثم قال: وقال أيضًا فى هذا الغـرض من رثائه، ومدح مولانا الوالد فى أثنائه:

سلام على الدنيا جـميعا وما فـيها ... غدات نعت شمس الخلافة من فيها
نعت ملك الأمـلاك والكامل الذى ... يكف عـوارى الحادثات ويكفـيهـا
عـميـد بنى الأنصار غـير مـدافع ... ومـحى معـاليهـا ومولى مـواليهـا
وبدر دياجـهـا وشـمس نهـارها ... وبشـر محـياها ونور مـجالـيهـا
خفا الكواكب الوقـاد قد كان نوره ... يجلى من الدهم الخطوب دياجيـها
هوى القمر الوضـاح من أفق العلا ... فـأظلم جـو النيـرات بسـاريهـا
وقد كـسفت شمس الهداية بعـدما ... أبان سـبـيل الحق للـخلق هاديهـا
هو الجبـل الراسى تصدع بعـد ما ... أقـرت به شم الجـبـال رواسـيـهـا
يعـز على دين الهدى أنَّ شـمسـه ... يطول بأطـبـاق التـراب تواريهـا
يعز عـلى زهر النجوم مـتى سرت ... ولا تلمح الهدى الذى كـان يهديها
لأندلـس ثكل عـليـه مـردد ... له لبـست سود المسـوح نواحـيهـا
ثلاثين حـولا بعد خمـس تعودت ... يدافع عنهـا كل خطب ويحمـيهـا
أبكيـه للرايات يـخـفق بـندها ... وفى مـرقاب النصـر المؤزر يعليهـا
أبكيـه للخـيل المغـيـرة بالضـحى ... وقـد أبعد الفـتح المبين مـراميـهـا
ويبكيـه مـعـمور البـسيطة كلهـا ... وما ضم من دانى البـلاد وقاصيـها
وتبكيـه سـحب أخـجلتـهـا بنانه ... وترسل دمع الغيث حـزنن مآقيـها

وتبكيه حتى الشهب فى أفق العلا   وتلبس جلباب الظلام جواريها
عزاء أمير المسلمين فإنها   مقادير رب الخلق فى الخلق يجريها
هو الموت ورد للخليفة كلها   أواخرها تقفو سبيل أواليها
وما بيننا حى وما بين آدم   إلاّ هكذا سوى البرية باريها
وفى موت خير الخلق أكبر أسوة   تصبر أحرار النفوس وتسليها
أمولاى لو كان الفداء مسوغا   فديناك بالدنيا جميعا وما فيها
أمولاى كم من نعمة لك عندنا   إذا نحن رمنا حصرها ليس نحصيها
أمولاى خلفت العبيد إلى الأسى   يناجيك من فرط الشجون مناجيها
وقد مات منا الصبر إلاّ صبابة   بذكرك فى جنح الدجنة نحييها
أمولاى يا مولاى هل أنت سامعى   أبثك ما يشجى القلوب ويدميها
تخفيت بى حتى نضوت شبيبتى   عزيزا وجيها حيثما رمت توجيها
وقد كان ظنى أن تكون جنازتى   يشيعها منك الرضا ويواريها
وقد عشت حتى ذقت فقدك قلما   تبلغ نفس ما تريد أمانيها
ولولا أبو الحجاج نجلك لم يكن   لدين الهدى كرات بحر يزجيها
ولكنه والله يجمل صبره   مناقبك الغر الكرام سيحييها
فخلفتنا منه لأكسر كافل   يحمل أعباء الخلافة كافيها
سريرته الرحمى وسيرته الرضا   وأخلاقه الغر الكريمة تدريها
وسيلتك العظمى وظلك فوقنا   وعمدتنا والله فى العز يبقيها

فما كنت إلاّ الشمس قد غربت لنا وأنوارها بدر التمام يجليها
وما أنت المسك إن تخف ذاته يَنِمُّ بها العرف الذكى فيفشيها
إلاّ قدس الرحمن نفيسا كريمة بكل عزيز فى الوجود نفديها
وبشرى لنا أنَّ السعادة نزلها وأنَّ رضا الله الكريم يرضيها
وحاشا وكلا أن تضيع وسائل سيذخرها الرب الكريم وينشيها
فكم من جهاد رفعت بنوده وقد أثمرت فيها المعالى عواليها
كسرت تماثيل الصليب وأخرست نواقيس كانت بالضلال تناغيها
وكم من منار قد أَعَدْتَ أذانه وأعلن فيه دعوة الحق داعيها
وكم من رياض للكتائب قد غدت تضيق بمستن الجياد نواحيها
وملتف زرع بالأسنة مزهر ولكن به المران تحلو مجانيها
إذا ظمئت منها الذوابل فى الوغى جداول أنهار السيوف ترويها
غرس زكى للجهاد غرسته فصرت إلى دار السعادة تجنيها
ولو لم يكن إلاّ سنين قطعتها رهين شكاة لا تزال تعانيها
صبرت لها صبر الكرام وإنما ذخرت أجورا فضل ربك جازيها
أمالك فى الأنصار خير وسيلة وقد كنت بالنصر العزيز تحييها
وحسبك بالمختار أكرم شافع وسنته والله لا زلت تُحَيِّيها
على علم الدنيا وفخر ملوكها تحية رب لا يزال يواليها
سأبكيه ما دام الحمام مطوقا وما سجعت تبكى الهديل قماريها

وأهديه من طيب السلام معطرا		كما فتقت أيدى التجار غواليها
وأسبل رب العرش سحب كرامة		تَسُحُّ على ذاك الضريح غواديها
ونسأل فتحا للخليفة يوسف		يملكه أقصى البلاد ومن فيها

ثم ذكر هذا المؤلف جملة نظم ابن زمرك فى السلطان أبى الحجاج واستعطافه، وما يَهزّ له لرضا من شمائل أعطافه، ومنها[1]:

بما قد حزت من كرم الخلال		بما أدركت من رتب الجلال
بما خولت من دين ودنيا		بما قد حزت من شرف المعالى
بما أوليت من صنع جميل		يطابق لفظه معنى الكمال
تغمدنى بفضلها واغتفرها		ذنوب فى الفعال وفى المقال

ثم قال: ومن ذلك أيضًا يخاطب أخانا السلطان أبا عبد الله رحمه الله تعالى عليه، متوسلا بقديم ذمامه، والخدم المتعددة من نظامه[2]:

أتعطش أولادى وأنت غمامة		تعم جميع الخلق بالنفع والسقيا
وتظلم أوقاتى ووجهك نير		تفيض به الأنوار للدين والدنيا
وجدك قد سماك ربك باسمه		وأورثك الرحمن رتبته العليا
وقد كان أعطانى الذى أنا سائل		وسوغنى من غير شرط ولا ثنيا
وشعرى فى غر المصانع خالد		يحييه عنى فى الممات وفى المحيا
وما زلت أهدى المدح مسكا مفتقا		فتحمله الأرواح عاطرة الريا

(١) نفح الطيب جـ٧ ص ٢٣٧.
(٢) نفح الطيب جـ٧ ص ٢٣٧.

وقـد أكـثـر العـبـد التـشكى وإنّه | وحقك يا فـخر الملوك قد استـحيا
وما الجـود إلاّ مـيـت غـيـر أنّه | إذا نفخـت يمناك فى روحه يحـيا
فمـن شاء أن يدعو لـدين محـمّد | فـيدعـو لمولانا الخليـفـة بالبـقيا

ثم ذكر قصائد كثيرة ومقطوعات فى مدحه لأخيه أبى عبد الله، إلى أن قال:

وقال أيضًا وقد نزل بالولجة من مرج الحضرة(١):

منزل اليـمـن والرضـا والسـعـود | أنجـزت فـيـه صـادقـات الوعـود
كل يـوم نزاهـة إن تقـضـت | أنشـدتهـا الـسـعـود بالله عـودى
جـمع المسـتعـين وصف الكمـال | بيـن بأس عَـمَّ الملـوك وجـود
فـاهن فى غـبطـة وعـزة ملك | أنت والله فـخـر هذا الوجـود

وقال أيضًا مشيرا لتوليته العلامة(٢):

لك غـرة ود الصـبـاح جـمـالهـا | ومـحاسن تهـوى البدور كـمالهـا
وشـمائل تحكى الـرياض خلالهـا | وأنامل تـرجـو الأنام خـلالهـا
للمـسـتـعـين خـلافـة نصـرية | عـرفت ملوك العـالمين جـمـالهـا
وأنا الذى قـد نال منك مـعالـيهـا | تهـوى النجـوم الـزاهرات منالهـا
تهـديه مـا قـد نلته مـن بعضـهـا | والفـخر كل الـفخـر فيـمن نالهـا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٧.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٨.

فـى كل يـوم منـك مـنة مـنعـم   لو طاولت سـمك العـلا ماطالهـا
بلغت آمـــال العـبـــيـد فــبلغت   فـيك العـبـيد مـن البقـا آمـالهـا

ثم قال: وقال أيضًا وكتبها إليه مع خمسة أقلام(١):

أيا ملكا لـم يبـد للعـيـن حـسنة   سوى ملك قد حل مـن عالم القدس
لك الخيـر خذها كالأنامل خمـسة   تعــوذ مـرآك المكمل بالخـــمس
فـمن أبصرت عـيناه مرآك فليـقل   أعـوذ برب النـاس أو آية الكرسى

ثم قال بعد ذكر قصيدة: وقـال يخاطب مولانا الوالد - رحمة الله عليه - وقد مر مـعه بفحص رية، والثلج قد عم أنديته، وبسط أرديتـه، فى وجهة توجهها مولانا الجد - تغمده الله تعالى برحمته - إلى مالقَة(٢):

يا مــن رتب المعــــالى تـعــتـلى   ومـعـالم الفـخـر المشـيـد تبتنى
ازجـــر بـهـــذا الثلج فَـــألا إنه   ثلج اليـقـين بنصـر مـولانا الغنى
بسط البـيـاض كـرامـة لقـدومـه   وافـتـر ثغـرا عن مسـرة مـعـتنى
فـالأرض جـــوهرة تلوح لمجـــتل   والدوح مـــزهرة تفـوح لمجـــتنى
سبحـان من أعطى الوجود وجوده   ليـــدل منه على الجـواد المحـــسن
وبدائع الأكـــوان فـى إتقـــانهـا   أثر يشــيــر إلى الـبـديع المتـــقن

ثم قال: ومن غير السـلطانيات، مما بز فيه سبقا وتـبريزا، وعرضه على نقدة الـبيان، فـرأت منه كل مذهبـة خلصت إبريزا، مرثيـته للقـاضى المعظم

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٨.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٨.

الشريف أبى القاسم الحسنى من شيوخه، أنجزها الوعد السابق فى المقدمة بها[1]:

أغرى سراة الحى بالإطراق ... نبأ أصم مسامع الآفاق
أمسى به ليل الحوادث داجيا ... والصبح أصبح كاسف الإشراق
فجع الجميع بواحد جمعت له ... شتى العلا ومكارم الأخلاق
هبوا لحكمكم الرصين فإنه ... صرف القضاء فما له من واق
نفش الزمان بصرفه فى صفحة: ... كل اجتماع مؤذن بفراق
ماذا ترجى من زمانك بعدما ... علق الفناء بأنفس الأعلاق
من تحسد السبع الطباق علاءه ... عالوا عليه فى الثرى بطباق
إنَّ المنايا للبرايا غاية ... سبق الكرام لخصلها بسباق
لمّا حسبنا أن تحول أبؤسا ... كشفت عوان حروبها عن ساق
ما كان إلاّ البدر طال سراره ... حتى رمته يد الردى بمحاق
أنف المقام مع الفناء نزاهة ... فنوى الرحيل إلى مقام باقى
عدم الموافق فى مرافقة الدنا ... فثنى الركاب إلى الرفيق الباقى
أسفا على ذلك الجلال تقلصت ... أفياؤه وعُهِدْنَ خير رواق
يا آمرى بالصبر عيل تصبرى ... دعنى عدتك لواعج الأشواق
وذر اليراع تشى بدمع مدادها ... وشى القريض يروق فى الأوراق

(1) نفح الطيب ج٥ ص ١٩٤.

يا حسرتى للعلم أقفر ربعه والعدل جرد أجمل الأطواق
ركدت رياح المعلوات لفقدها كسدت به الآداب بعد نفاق
كم من غوامض قد صدعت بفهمها خفيت مداركها على الحذاق
كم قاعد فى البيد فوق قعوده قعدت به الآمال دون لحاق
لمن الركائب بعدك تنتضى ما بين شأم ترتمى وعراق
تفلى الفلا بمناسم مفلولة تسم الحصى بنجيعها الرقراق
كانت إذا اشتكت الوجى وتوقفت يهفو نسيم ثنائك الخفاق
فإذا تنسمت الثناء أمامها مدت لها الأعناق فى الإعناق
يا مزجى البدن القلاص خوافقا رفقا بها فالسعى فى إخفاق
مات الذى ورث العلا عن معشر ورثوا تراث المجد باستحقاق
رفعت لهم رايات كل جلالة فتميزوا فى حلبة السباق
علم الهدة وقطب أعلام الورى حرم العفاة لمجتنى الأرزاق
رَقَّتْ سجاياه وراقت مجتلى كالشمس فى بعد وفى إشراق
كالزهر فى لألائه والبدر فى عليائه والزهر فى الإبراق
مهما مدحت سواه قيد وصفه وصفاته حمد على الإطلاق
يا وارثا نسب النبوة جامعا فى العلم والأخلاق والأعراق
يا بن الرسول وإنها لوسيلة يرقى بها أوج المصاعد راقى
ورد الكتاب بفضلكم وكمالكم فكفى ثناء الواحد الخلاق

مولاى إنى فى علاك مقصر   قد ضاق علم النجوم نطاقى
ومن الذى يحصى مناقب فضلكم   عد الحصى والرمل غير مطاق
يهنى قبورا زرتها فلقد ثوت   منا مصون جوانح وحداق
خط الردى منها سطورا نصها: لا بد أنك لسلفناء ملاق
ولحق ترجمة الكتاب وصدره   وفوائد المكتوب فى الإلحاق
كم من سراة فى القبور كأنهم   فى بطنها در ثوى بحقاق
قل للسحاب اسحب ذيولك نحوه   والعب بصارم برقك الخفاق
أودى الذى غيث العباد بكفه   يزرى بواكف غيثك الغيداق
إن كان صوبك بالمياه فدرها   در يروض ما حل الإملاق
بشر كثير قد نعموا لما نعى   قاضى القضاة وغاب فى الأطباق
ألبستهم ثوب الكرامة ضافيا   وأرحت من كد ومن إرهاق
يتفيئون ظلال جاهك كلما   لفحت سموم الخطب بالإحراق
عدموا الموافق فى فراقك وانطوى   عنهم بساط الرفق والإرفاق
رفعوا سريرك خافضين رءوسهم   ما منهم إلاّ حليف سياق
لكن مصيرك للنعيم مخلدا   كان الذى أبقى على الأرماق
ومن العجائب أن يرى بحر الندى   طود الهدى يسرى على الأعناق
إن يحملوك على الكواهل طالما   قد كنت محمولا على الأحداق
أو يرفعوك على العواتق طالما   رُفِّعْتَ ظهر منابر وَعِتَاقِ

ولئـن رحلت إلى الجـنان فـإنـنا … نصلـى بنار الوجـد والأشـواق
لو كنت تشـهد حـزن من خلفتـه … لثنى عـنانك كـثـرة الإشـفـاق
أن جَنّ ليل جُنّ مـن فـرط الأسى … وسـوى كـلامك مـاله من راق
فابعث خيالك فى الكرى يبعث به … مـيت السـرور لـشـاكل مـشـتـاق
أغليت يا رزء الـتـصـبـر مـثلمـا … أرخـصـت در الدمع فى الآمـاق
إن يخلف الأرض الغـمـام فـإننى … أسـقى الضـريح بدمـعى المهـراق

ومن أوليات نظمه يخاطب شيخـه الوزير أبا عبد الله بن الخطيب رحمه الله مادحا، قوله من قصيدة مطلعها:

* أما وانصداع النور من مطلع الفجر *[1]

يقول فيها بعد أبيات:

لك الله من فـذ الجلالة أوحـد … تطاوعـه الآمـال فى النهى والأمـر
لك القلم الأعلى الذى طال فـخره … على المرهفات البيض والأسل السمر
يقلـد أجـيـاد الـطروس تمائمـا … بصنـفى لآل من نظم ومـن نثـر
تهيـبك القرطاس فـاحمـر إذ غدا … يقل بحـوراً من أناملك العـشـر
كـأن رياض الطرس خـد مـورد … يطرزه وشى الـعـذار من الحـبـر
فـشـارة على الملـك رائقـة الحلى … بألوية حـمـر وبالصحـف الحمـر
ومـا روضـة غناء عـاهدها الحـيـا … تَحُـوكُ بها وشـى الربيع يد القطر

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٧٥.

تغنى قيان الطير فى جنباتها فيرقصن غصن البان فى حلل خضر
تمد لأكواس العرار أناملا من السوسن الغض المختم بالتبر
ويحرس خد الورد صام نهرها ويمنع ثغر النور بالذابل النضر
يفاخر مرآها السماء محاسنا فتزرى نجوم الزهر منها على الزهر
إذا مسحت كف الصبا جفن نورها تنفس ثغر الزهر عن عنبر الشحر
بأعطر من ريا ثنائك فى السرى وأبهر حسنا من شمائلك الغر
عجبا له يحكى خلال خميلة وتفوق منه الأسد فى موقف الذعر
إذا أضرمت من بأسها الحرب جاحما تأجج منه العضب فى لجى البحر
وإن كلح الأبطال فى حومة الوغى ترقرق ماء البشر فى صفحة البدر
لك الحساب الوضاح والسؤدد الذى نطاق الوصف فيه عن الحصر
تشرف أفق أنت بدر كماله فغرناطة تختال تيها على مصر
تكلل تاج الملك منك محاسنا وفاخرت الأملاك منك بَنُو نَصْر
بعزمة مضمون السعادة أوحد وغرة وضاح المكارم والنجر
طوى الحيف منشور اللواء مؤيدا حمى الإسلام بالطى والنشر
ومدينة ظلال الأمن إذ قصر العدا فيتلى ثناء الملك بالمد والقصر
إذا احتفل الإيوان يوم مشورة وتضطرب الآراء من كل ذى حجر
صدعت بفضل القول غير منازع وأطلعت آراء قُبِسْنَ من الفجر
فإن تظفر الخيل المغيرة بالضحى فعن رأيك الميمون تظفر بالنصر

فـلا زلت للعليـاء تحـمى ذمـارها وتسحب أذيال الفخـار على النسر

وللعلم فخر الديـن والفتك بالعدا بأوت به يا بن الخطيب على الفخر

يهنيك عـيد الفطر من أنت عـيده ويثـنى بما أوليـت من نعم غـــر

جبرت مهيـضا من جناحى ورشته وسهلت لى من جـانب الزمن الوعر

وبوأتنى مـن ذروة العـز مـعـــتلى وشرفتنى من حيث أدرى ولا أدرى

وسوغـتنى الآمال عـذبا مسلـسلا وأسميت من ذكـرى ورفعت من قدرى

فـدهيـر عـيـد بالـســرور وبالمنى وكل ليـالى العمـر لى ليلة القـدر

فأصبحت مغبـوطا على خير نعمة يقل لأدناهـا الكثـيـر مـن الشكر

قال(١):

وكتب إليه جوابا عن رسالة خاطب أولاده بها صدرها:

* مالى بحمل الهوان يدان *

قال جامع هذا الموضوع وفقه الله تعالى:

هذه قد تقدمت فى هذا الموضوع فراجعها.

ثم قال: وكتب إليه جوابا عن آخر كذلك:

حيت صباحا فأحييت ساكنى القصبهْ واسترجعت أنفسا بالشـوق مغتصبهْ

قـضى البـيان لهـا إلاّ نظيـر لهـا فأحرزت من مـعانى فضله قـصبهْ

ناجت طليح سرى لا يستـفيق لها هدت جوارحها واستـوهنت عصبهْ

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٧٨.

فحركته على فتك الكلال به وأذهبت بسرور الملتقى نصبه

وأذكرت عهد مهديها على شحط فعاود القلب من تذكاره وصبه

ما كنت أسمح من دهرى بجوهره لو كان يسم لى بالقلب من غصبهْ

سل أدمع الصب من أغرى السحاب بها وقلبه بجمار الشوق من حصبهْ

فالله يحفظ مهديها ويشكره فوجهها بعصاب الحسن قد عصبهْ

من كان وارث آداب يشعشعها بالفرض إنى فى إرثى لها عصبهْ

هذا الملاذ ملاذ الناس قاطبة سبحان من لغياث الخلق قد نصبهْ

وخاطب كذلك(١):

طالعتها دون الصباح صباحا لما جلت غرر البيان صباحا

ولقد رأيت وما رأيت كحسنها وجها أغر ومبسما وضاحا

عذراء أرضعها البيان لبانه وأطال مغدى عندها ومراحا

فأتت كما شاءت وشاء نجيها تذكى الحجا وتنعم الأرواحا

لا بل كمثل الروض باكره الحيا وسقى به زهر الكمام ففاحا

وطوت بساط الشوق منى بعدها نشرت على من القبول جناحا

وخاطبه كذلك(٢):

يكلفنى مولاى رجع جوابه وما لتعاطى المعجزات وما ليا

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٧٩.

(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٧٨.

أجيبك للفضل الذى أنت أهله ... وأكتب مما قد أفدت الأماليا
فأنت الذى طوقتنى كل منة ... وأحييت آمالى وأكسبت ماليا
وأنت الذى أعدى الزمان كماله ... وصيرت أحرار الزمان مواليا
فلا زلت للفعل الجميل مواصلا ... ولا زلت للشكر الجزيل مواليا

وخاطبه كذلك[1]:

ذرونى فَإِنِّى بالعلاء خبير ... أسير فإن النيرات تسير
وكم بت أطوى الليل فى طلب العلا ... كأنى إلى نجم السماء سفير
بعزم إذا ما الليل مَدّ رواقه ... يكر على ظلمائه فينير
أخو كلف بالمجد لا يستفزه ... مهاد إذا جن الظلام وثير
ذاما طوى يوما على السر كشحه ... فليس له حتى الممات نشور
وإنى وإن كنت الممنع جاره ... لتسبى فؤادى أعين وثغور
وما تعترينى فترة فى مدى العلا ... إلى أن أرى لحظا عليه فتور
وفى السرب من نجد تعلقت ظبية ... تصول على ألبابنا وتغير
وتمنع ميسور الكلام أخا الهوى ... وتبخل حتى بالخيال يزور
أسكان نجد جادها وأكف الحيا ... هواكم بقلبى منجد ومغير
ويا سكنى بالأجرع الفرد من منى ... وأيسر حظ من رضاك كثير
ذكرتك فوق البحر والبعد بيننا ... فمدته من فيض الدموع بحور

---
(١) نفح الطيب ج٦ ص ٧٩.

وأومض خـــفــاق الذؤابـة بارق		فطـارت بقلـبى أَنَّةٌ وزفـــيـــر
ويهفـو فؤادى كلمـا هفت الصـبا		أمـا لفـؤادى فى هواك نصـيـر
ووالله مـــا أدرى أذكـــرك هزنى		أم الكأس مــا بين الخـيــام تدور
فمن مـبلغ عنى النوى مـا يسوءها		وللبـــين حكم يعـــتـدى يـجـور
بأنا غـــدا وبعـده ســوف نلـتـقى		وغـسى ومـنا زائـر ومـــــزور
إلى كم أرى أكنى ووجدى مصرح		وأخفى اسم من أهواه وهو شـهير
أمنجـد آمـالى ومـغلى كـاسـدى		ومـصدر جـاهى والحديث كـثيـر
أأَنْسَى ولا أنسى مـجــالسك التى		بهـــا تلتـقـــينى نضـــرة وســرور
نزورك فــى جنـح الظلام ونـنشـنى		وبيـن يدينـا من حـــديثـك نور
على أننى إن غبت عنك فلم تغب		لطائف لم يـحـجب لهن سـفـور
نروح ونـغـــدو كل يوم وعنـدها		رواح عـلـــينـا دائـم وبـــكـور
فظلك فـوقى حيـثمـا كنت وارف		ومــــورد آمـــالـى لديك نميـــر
وعـــذرا فـــإنى إن أطـلت فـإنما		قـصاراى من بعـد البيـان قصـور

وكتب إليه خاتمة رسالة كذلك(١):

وحقك ما استطعت بعـدك غمضةً		من النوم حتى آذن النجم بالغروب
وعارضت مسرى الريح قلت لعلها		تنم بريـا منك عـاطرة الهــبـوب
إلى أن بدا وجـه الصـــبـاح كـأنه		مـحـيـاك إذ تجلى بغـرته الخطوب

---

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٨٠.

فقلت لقبى استشعر الأنس وابتهج فإنْ تبعد الأجسام لم تبعد القلوب
وسر فى ضمان الله حيث توجهت ركابك لا تخشى الحوادث أن تنوب

ثم قال: وقال - بعد إيراد جملة من نظمه فى النسيب وما يناسبه - يصف مصباحًا[1]:

لقد زادنى وجدًا وأغرى بى الجوى ذبال بأذيال الظلام قد التفا
تشير وراء الليل منه بنانة مخضبة والليل قد حجب الكفا
تلوح سنانًا حين لا تنفح الصبا وتبدو سوارًا حين تثنى له العطفا
قطعت بها ليلى يطارحنى الجوى فآونة يبدو وآونةً يخفى
إذا قلت لا يبدو أشال لسانه وإن قلت لا يخبو الضياء به كفا
إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى وأهدى نسيم الروض من طيبه عرفا
لك الله يا مصباح أشبهت مهجتى وقد شفها من لوعة الحب ما شفا

ثم قال وكتب له صدر رسالة[2]:

أزور بقلبى معهد الأنس والهوى وأنهب من أيدى النسيم رسائلا
ومهما سألت البرق يهفو من الحمى يبادر به دمعى مجيبًا وسائلا
فيا ليت شعرى والأمانى تعلل أيرعى لى الحى الكرام الوسائلا
وهل يجيرنى الأولى كما قد عهدتهم يوالون بالإحسان من جاء سائلا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٨.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٨.

ثم قال بعد أن ذكر عدة قطع:

وقال يصف الزرافة فى قصيدة مدح بها السلطان أبا سالم ملك المغرب - رحمه الله - وقد ورد عليه بها وفد الأحابش فى هدية من ملكهم، ونصها[1]:

لولا تألق بارق التذكار ... ما صاب واكف دمعى المدرار
لكنه مهما تعرض خافقًا ... قدحت يد الأشواق زند أوارى
عل المشوق إذا تذكر معهدًا ... أن يغرى الأجفان باستعبار
أمذكرى غرناطة حلت بها ... أيدى السحاب أزرة النوار
كيف التخلص للحديث ودونها ... عرض الفلاة وطافح زخار
هذا على أنَّ التغرب مركبى ... وتولج الفيح الفساح شعارى
فلكم أقمت غداة زمت عيسهم ... أبغى القرار ولات حين قرار
وطفقت أستقرى المنازل بعدهم ... يمحو البكاء مواقع الآثار
إنا بنى الآمال تخدعنا المنى ... فنخادع الآمال بالتسيار
نتجشم الأهوال فى طلب العلا ... ونروع سرب النوم بالأفكار
لا يحرز المجد الخطير سوى امرئ ... يمطى العزائم صهوة الأخطار
إِمَّا يفاخر بالعتاد ففخره ... بالمشرفية والقنا الخطار
مستبصر مرمى العواقب واصل ... فى حمله الإيراد بالإصدار

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٢.

فأشد ما قاد الجهول إلى الردى	عَمَهُ البصائر لا عمى الأبصار
ولرب مربد الجوانح مزبدٍ	سبح الهلال بلجه الزخار
فتقت كمائم جنحه عن أنجمٍ	سفرت زواهرهن عن أزهار
مثلت على شاطى المجرة نرجسًا	تصطف منه على خليج جارى
فكأنما بدر التمام بجنحه	وجه الإمام بجحفل جرار
وكأنما خمس الثريا راحة	ذرعت مسير الليل بالأشبار
أسرجت من عزمى مصابيحًا بها	تهدى السراة لها من الأقطار
وارتاع من بازى الصباح غرابه	لما أطل فطار كل مطار

[ومنها][1]:

وغريبةٍ قطعت إليك على الونى	بيدًا تبيدها هموم السارى
تنسيه طيبته التى قد أمها	والركب فيها ميت الأخبار
يقتادها من كل مشتمل الدجى	وكأنما عيناه جذوة نار
تشدو بحمد المستعين حداتها	يتعللون به على الأكوار
إن مسهم لفح الهجير أبلهم	منه نسيم ثنائك المعطار
خاضوا بها الفلا فتخلصت	منها خلوص البدر بعد سرار
سلمت بسعدك من غوائل مثلها	وكفى بسعدك حاميًا لذمار
وأتتك يا ملك الزمان غريبة	قيد النواظر نزهة الأبصار

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٣.

موشية الأعطاف رائعة الحلى ... رقمت بدائعها يد الأقدار
راق العيون أديمها فكأنه ... روض تفتح عن شتيت بهار
ما بين مبيض وأصفرٍ فاقعٍ ... سال اللجين به خلال نضار
يحكى حدائق نرجسٍ فى شاهقٍ ... تنساب فيه أراقم الأنهار
تحدو قوائم كالجذوع وفوقها ... جبل أشم بنوره متوارى
وسمت بجيد مثل جذع مائل ... سهل التعطف لين خوار
تستشرف الجدران منه ترائبًا ... فكأنما هو قائم بمنار
تاهت بكلكلها وأتلع جيدها ... ومشى بها الأعجاب مشى وقار
خرجوا لها الجم الغفير وكلهم ... متعجب من لطف صنع البارى
كل يقول لصحبه قوموا انظروا ... كيف الجبال تقاد بالأسيار
ألقت ببابك رحلها ولطالما ... ألقى الغريب به عصا التسيار
علمت ملوك الأرض أنك فخرها ... فتسابقت لرضاك فى مضمار
يتبوءون به وإن بعد المدى ... من جاهك الأعلى أعز جوار
فارفع لواء الفخر غير مدافعٍ ... واسحب ذيول العسكر الجرار
واهنأ بأعياد الفتوح مخولاً ... ما شئت من نصرٍ ومن أنصار
وإليكها من روض فكرى نفحة ... شف الثناء بها على الأزهار
فى فضل منطقها ورونق رسمها ... مستمتع الأسماع والأبصار
وتميل من أصغى لها فكأننى ... عاطيته منها كئوس عقار

وقال رحمه الله تعالى يخاطب كتاب الإنشاء بالمغرب وقد حضر هنالك ميلاد الرسول ﷺ، وأنشدت قصائدهم، واستنجز بعد ذلك وعدهم بتقييد نسخها بمقطوعات مرتجلة أجابوه عنها، منها:

أكتيبة الكتاب أيد جمعكم ... بعناية المولى الخليفة أحمد
لا تمطلوا دين الغريب فأننى ... منكم وإنَّ رغمت لذلك حسدى
زينتم حفل البيان بسحركم ... أَلِيَوْمِ زينةِ سحركم من موعد
فلتسمحوا لى بالقصائد عاجلا ... ولتبلغوا مما أؤمل مقصدى

وقال أيضًا:

أيا علية الكتاب دعوة منصفٍ ... عليكم بكم فى مقطع الحق يستعدى
سمحتم بنظم الدر فى لبة العلا ... فكم راق من سمط هناك ومن وعقد
فما ضركم أنْ تسمحوا ليس بكتابها ... فتستجزلوا شكرى وتستجيبوا حمدى

وقال أيضًا:

ما عذركم أنْ لم تجدوا بعدما ... ملكتم كف الخليفة أحمد
فلتبعثوا لى كل بكر فذةٍ ... تأتى بفخر خلالها وسط الندى

وكتب إليهم فى المعنى أيضًا وقد كان السلطان أبو العباس أعطاه قصيدة من نظمه تلك الليلة:

ظلالكم تندو وموردكم عذب ... وترضون أنَّ أضحى وبالملح لى شرب
وأنتم وما أنتم غمائم رحمةٍ ... تصوب وأحلام العفاة لها تصبو
أفيضوا علينا وأنظرونا بفضلكم ... لنقتبس نورًا لا يخيب ولا يخبو

ألفت الهـوى حتى أنست بجـوره — فكل عذاب نالنى فى الهوى عذب
وقلت لجـسـمى إنه ثـوبك الضنى — وقلـت لقـلبـى إنه إلـفك الحـب
وقالوا صـبا والشيب لاح صبـاحه — فـقلت ببيض كـالصبـاح أنا صب
نهـبت عذارى الحى ليلة عـرضهـا — وقـد جليت منها لمبـصرها شـهب
ولم أر منهـا غيـر رجع حـديثهـا — فتجهل منها العين ما يعرف القلب
عـراب إذا اسـتننت بـشـأو بلاغـةٍ — تقصر من دون اللحـاق لها العرب
وإنْ أسندت مـا بين نجـد وحاجـر — تقول رواة الشـرق يا حبـذا الغرب
فمنعـة صدق للخـلافة قـد ضفت — على من حواه من مـهابتـه حجب
وجـو صقـيل قد جلتـه يد الصبـا — يسافـر طرف الطرف فيه فمـا يكبو
فلولا التى من دونها طاعـة الهوى — لحقت بها حولى الأباريق والشرب
ولكن نهانى الشـيب أنْ أقرب الهوى — إذا لم يتـح ممن أحب لى القــرب
فـلا تمـطلوا دين المعلـل عن غنى — فـجـانبكم سـهل ومنزلكم رحب
وإنَّ لم ترونى كُـفْـئَـهُنَّ ترفـعـا — وصـدكم من دون خطبـهـا خطب
فمـولاى قد أهدى العمـيد عـقيلة — يكالهـا من لفظـهـا اللؤلؤ الرطب
أدارت كـئوسـا من مـدام صبـابة — كما امتزج الصـهباء والبارد العذب
فـوالله لولا مــوعـد يومـه غـد — لواجهتكم منى على مطلبى العتب
أكـتـاب مولانـا الخليـفة أحـمـد — وحسبكم الفخـر العميم به حسب
به اعـتزت الآداب وامـتـد باعهـا — وطالت يداها واستخـف بها العجب

فلو لم يكن بالفضل تنفق سوقها لكان يقال التبر فى أرضه ترب
بقيتم به فى ظل جاهٍ وغبطةٍ تخب إلى لقيا نجيبكم النجب

وقال يراجع الكاتب أبا زكريا بن أبى دلامة منهم، وقد أجابه رحمه الله تعالى عليه(١):

على الطائر الميمون والطالع السعد أتتنى مع الصنع الجميل على وعد
وأحييت يا يحيى بها نفس مغرمٍ يجيل جياد الدمع فى ملعب السهد
نسيت وما أنسى وفائى وخلتى وأقفر ربع القلب إلاّ من الواجد
وما الطل فى ثغر من الزهر باسم بأذكى وأصفى من ثنائى ومن ودى
فأصدقتها من بحر فكرى جواهرا تنظم من در الدرارى فى عقد
وكنت أطيل القول لولا ضرورة دعتنى إلى الإيجاز فى سورة الحمد

* * *

وأنشد السلطان أبا العباس المذكور فى غراب من إنشائه(٢):

أإنسان عين الدهر جفنك قد غدا يحفك منه طائر اليمن والسعد
إذا ما هفا فوق الرءوس شراعه أراك جناحا مُدَّ للجزر والمد

وأنشده فيه أيضًا(٣):

لك الخير شأن الجفن يحرس عينه وهذا بعين الله يحرس دائمًا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٩.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٩.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٠.

تبيت له خمس الثريا معيذة تقلده زهر النجوم تمائمًا

فيا جفن لا تنفعك فى الحفظ دائما وإنْ كنت فى لج من البحر عائما

انتهى ما انتقيت من هذا التأليف الملوكى مع أنى تركت أكثره.

قلت: وإنّما أطلت فى كلام الرئيس ابن زمرك رحمه الله تعالى لوجوه:

أولها: أنَّ الذى ألفت الكتاب من أجله راغب فى ذلك.

الثانى: ولوع كثير من الناس بكلامه، حتى قال شيخنا سيدى الإمام العلامة المؤلف الكبير أبو العباس الشهير ببابا[1] السودانى رحمه الله، بعد أن ذكر فى التعريف به نحو عشرين سطرًا: إنى لم أقف فى أمره على غير هذا، ولم أقف على وفاته. وبالجملة فالذى تكلم خواص الناس فيه من أمره هو ما فى الإحاطة والكتيبة: وأما الجم الغفير فهم بمعزل عما فى الكتابين فضلا عن غيره.

الوجه الثالث: أنَّ ما نقلته من ذلك كان عندى مقيدا فى عدة أوراق، فخفت عليه الدروس، فلذا جمعت بعضه هنا.

الرابع: ما اشتمل عليه من أوصاف الجهاد والخيل وغير ذلك من الغرائب، وليس الخبر كالعيان.

الخامس: ما فى بعضه من أمداح المصطفى ﷺ، وهو المقصود بالذات وغيره تبع، وهو فى مسك ختام هذه الأوجه الخمس، وليس يحتاج إلى دليل نول القمر والشمس.

وقد عن لى أنْ أذكر جملة من موشحاته لغرابتها، ولأن جل ما وقفت عليه منها ينخر فى سلك المعرب، إذ أكثره من مخلع البسيط.

(١) انظر فى ذلك: نيل الابتهاج، ج٢ ص ١٤٦.

فمن ذلك قوله تشوقا إلى غرناطة - أعادها الله - ومادحًا الغنى بالله[1]:

بالله يا قامة القضيب ... ومخجل الشمس والقمر
من ملك الحسن فى القلوب ... وأيد اللحظ بالحور
من لم يكن طبعه رقيقا ... لم يدر ما لذة الصبا
فرب حر غدا رقيقا ... تملكه نفحة الصبا
نشوان لم يشرب الرحيقا ... لكن إلى الحسن قد صبا
فعذب القلب بالوجيب ... ونعم العين بالنظر
وبات والدمع فى صبيب ... يقدح من قلبه الشرر
أواه من قلبى المعنى ... يهفو إذا هبت الرياح
لو كان للصب ما تمنى ... لطار شوقا بلا جناح
وبلبل الدوح إنْ تغنى ... أسهر ليلى إلى الصباح
عساك إنْ زرت يا طبيبى ... بالطيف فى رقدة السحر
أنَّ تجعل النوم من نصيبى ... والعين تحمى من السهر
كم شادن قاد لى الحتوفا ... بمربع القلب قد سكن
يسل من لحظه سيوفا ... فالقلب بالورع ما سكن
خلقت من عادتى ألوفا ... أحن للإلف والسكن

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٠.

غرناطة منزل الحبيب ... وقربها السؤل والوطر
تبهر بالمنظر العجيب ... فلا عدا ربعها المطر
عروسة تاجها السبيكهْ ... وزهرها الحلى والحلل
لم ترض من عزها شريكهْ ... بحسنها يضرب المثل
أيدها الله من مليكهْ ... تملكها أشرف الدول
بدولة المرتجى المهيب ... الملك الطاهر الأغر
تخال من بردها القشيب ... فى حلة النور والزهر
كرسيها جنة العريف ... مرآتها صفحة الغدير
وجوهر الطل فى شنوف ... تحكمه صنعة القدير
والأنس فيها على صنوف ... فمن هديل ومن هدير
كم خرق الزهر من جيوب ... وكلل القضب بالدرر
فالغصن كالكاعب اللعوب ... والطير تشدو بلا وتر
ولائم النصر فى احتفال ... وفرح دين الهدى جديد
سلطانها معمل العوالى ... محمّد الظافر السعيد
ومخجل البدر فى الكمال ... سلطانها المجتبى الفريد
أصفح مولى عن الذنوب ... أكرم عاف إذا قدر
وشمس هدى بلا مغيب ... وبحر جودٍ بلا حسر

مــــولاى يــا عـــاقـــد الـبـنود تظـلل الأوجــه الـصـــبـــاح

أوحـــشت يا نخـبــة الوجــود غـــرناطـة هالة الـســمـــاح

ســـافـرت بالـيـمن والـسـعــود وعـــدت بالفـــتح والنجـــاح

يا ملهــم القلب للغــيــوب ومطعــم النصـــر والـظفــر

أســمــعك الله عن قــريب: «على السـلامـا من السفـر»

وقال أيضًا من الموشحات الفائقة، فى مثل أغراض هذه السابقة، وأشار إلى محاسن من وصف «الدشار»[1]:

نســيـم غـــرناطة علـيل لكـنه يـبــــرئ العـلـيـل

وروضـــهـــا زاهر بلـيل ورشـــفـــه ينـقع الغلـيل

ســــقى بنـجــــد ربا المصـلى مـــبـاكـــرًا روضـهـــا الغـمـــام

فـــجــفنه كـلمــا اســتــهـــلا تبـــسم الـزهر فـى الكمــــام

والروض بـالحـــسن قـــد تجـلى وجـــرد الـنهـــر عن حــســـام

ودوحـــــهــــا ظـله ظلـيل يحـــسن فى ربعــه المقـــيل

والبــرق والجـو مـــسـتطيل يلعب بـالصـارم الصـــقـيل

عـــقـيلة تاجـــهـــا الســـبـيكهْ تـظـــل بـالمـــرقـب المـــنـيـــف

كـــأنهـــــا فـــوقــــه مليـكه كـــرســـيـــهـــا جنـة العـــريف

تطلع مـــن عــــسجـد ســبـيكهْ شـــمــــوســـهـــا كلمـــا تـطيف

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٢.

أبدعك الخالق الجليل　　يا منظرا كله جميل
قلبى إلى حسنه يميل　　وقبلنا قد صبا جميل
وزاد للحسن فيك حسنا　　محمّد الحمد والسماح
جدد للفخر فيك مغنى　　فى طالع اليمن والنجاح
تدعى رشادا وفيك معنى　　يخصك الفأل بافتتاح
فالنصر والسعد لا يزول　　لأنه ثابت أصيل
سعد وأنصره قبيل　　آباؤه عترة الرسول
أبدى به حكمة القدير　　وتوج الروض بالقباب
ودرع الزهر بالغدير　　وزين النهر بالحباب
فمن هديل ومن هدير　　ما أولع الحسن بالشباب
هبت على روضها القبول　　وطرفها بالسرى كليل
فلم يزل بينها يجول　　حتى تبدت له حجول
للزهر فى عطفها رقوم　　تلوح للعين كالنجوم
وللندى بينها رسوم　　عقد الندى فوقه نظيم
وكل واد بها يهيم　　ولم يزل حولها يحوم
شنّيلُها مدّ منها نيل　　والشين ألف لمستنيل
وعين واد تسيل　　من فوق خد له أسيل
كم من ظلال به ترف　　تضفو لها فوقه ستور

ومن زجاج به يشف ... ما بين نور وبين نور
ومن شموس بها تصف ... تديرها بيننا البدور
مزاجها العذب سلسبيل ... يَاهَلْ إلى رشفها سبيل
وكيف والشيب لى عذول ... وصبغه صفرة الأصيل
يا سرحة فى الحمى ظليلهْ ... كم نلت فى ظلك المنى
روضك الله من خميلهْ ... يجنى بها أطيب الجنى
وبرقها صادق المخيلهْ ... ما زال بالغيث محسنا
أنجز لى وعدك القبول ... فلم أقل مثل من يقول
«يا سرحة الحى يا مطول ... شرح الذى بيننا يطول»

ومن ذلك ما كتب به للغنى بالله(١):

أبلغ لغرناطة سلامى ... وصف لها عهدى السليم
فلو رعى طيفها ذمامى ... ما بت فى ليلة السليم
كم بت فيها على اقتراح ... أعل من خمرة الرضاب
أدير منها كئوس راح ... قد زانت الثغر بالحباب
أختال كالمهر فى الجماح ... نشوان فى روضة الشباب
أضحكك الزهر فى الكمام ... مباهيا روضه الوسيم
وأفضح الغصن فى القوام ... إن هب من جوها نسيم

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٤.

بينا أنا والشباب ضافى وظله فوقنا مديد
ومورد الأنس فيه صافى وبرده رائق جديد
إذ لاح فى الفود غير خافى صبح به نبه الوليد
أيقظ من كان ذا منام لما انجلى ليله البهيم
وأرسل الدمع كالغمام فى كل واد به أهيم
يا جيرة عهدهم كريم وفعلهم كله جميل
لا تعذلوا الصب إذ يهيم فقبله قد صبا جميل
القرب من ربعكم نعيم وبعدكم خطبه جليل
كم من رياض به وسام يزهى بها الرائد المسيم
غديرها أزرق الجمام ونبتها كله جميم
أعندكم أننى بفاس أكابد الشوق والحنين
أذكر أهلى بها وناسى فاليوم فى الطول كالسنين
الله حسبى فكم أقاسى من وحشة الصحب والبنين
مطارحا ساجع الحمام شوقا إلى الإلف والحنين
والدمع قد لج فى انسجام وقد وهى عقده النظيم
يا ساكنى جنة العريف أسكنتم جنة الخلود
كم ثم من منظر شريف قد حف باليمن والسعود
ورب طود به منيف أدواحة الخصر كالبنود

والنهر قد سل كالحسام ولراحة الشرب مستديم

والزهر قد راق بابتسام مقبلا راحة النديم

بلغ عبيد المقام صحبى لا زلتم الدهر فى هنا

لقاكم بغية المحب وقربكم غاية المنى

فعندكم قد تركت قلبى فجدد الله عهدنا

ودارك الشمل بانتظام من مرتجى فضله العميم

فى ظل سلطاننا الإمام الطاهر الظاهر الحليم

مؤمن العدوتين مما يخاف من سطوة العدا

وفارج الكرب إنْ ألما ومذهب الخطب والردى

قد راق حسنا وفاق حلما وما عدا غير ما بدا

مولاى يا نخبة الأنام وحائز الفخر فى القديم

كم أرقب البدر فى التمام شوقا إلى وجهك الكريم

ومن موشحاته فى غير المخلع، موطئا على موشحة ابن سهل التى أولها:

«ليل الهوى يقظان»(١)

قوله:

نواسم البستان تنثر سلك الزهر

والطل فى الأغصان ينظمه بالجوهر

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٦.

وراية الإصباح | أضاء منها المشرق
تنشرها الأرواح | فلا تزال تخفق
والزهر زهر فاح | لها عيون ترمق
فأيقظ الندمان | تبصر ما لم يبصر
جواهر الشهبان | قد عرضت للمشترى
قدحت لى زندا | يأيهذا البارق
أذكرتنى عهدا | إذ الشباب رائق
فالشوق لا يهدا | ولا الفؤاد الخافق
وكيف بالسلوان | والقلب رهن الفكر
وسحب الهجران | تحجب وجه القمر
لولا شموس الكاس | نديرها بين البدور
وعرج الإناس | منا على ربع الصدور
لكن لها وسواس | يغرى بربات الخدود
كم واله هيمان | بصبح وجه مسفر
ضياؤه قد بان | من تحت ليل مقمر
يا مطلع الأنوار | كم فيك من مرأى جميل
ونزهة الأبصار | ما ضر لو تشفى الغليل
يا روضة الأزهار | وعرفها يبرى العليل

قـضـيـبك الفـينان يسـقى بـدمع همـر
فـلا عج الأشـجـان فـيض الدمـوع يجـرى
هل فـى الهـوى نـاصـر أو هل يـجـار الـهـائم
لـو كـان لـى زائـر طيـف الخـيـال الحـائم
مـا بت بـالسـاهـر ودمع عـينـى سـاجم
والحب ذو عـدوان يجـهد فى ظلم البـرى
وصـارم الأجـفـان مـؤيد بـالحـور
رحـمـاك فـى صب أذكـرته عـهـد الصـبـا
بـواعـث الحـب قـادت إلـيـه الوصـبـا
لـم تـهـف بـالـقـلـب ريح الصـبـا إلاّ صـبـا
بـلـيـلـة الأردان قـد ضـمـخت بالعنبـر
يشـيـر غـصن البـان منهـا بفـضل المـئـزر
طيـبـهـا حـمـد فـخـر الملـوك المجـتـبى
مـن يـرجـح الـطـود من حلـمـه إذا احـتـبى
قـد جـرد السـعـد منه حـسـامـا مـذهبـا
فـالبـأس والإحـسـان والغـوث للمـسـتنصـر
تحـمـله الركـبـان تحـيـة للمـنبـر
عـصـابـة الكتـاب حق لـهـا الفـوز العظـيم

تخــــتــــال فـى أثواب | ألبسـتـهـا الـظول الجـسـيم
فـــحــســبــهـــا الإنطاب | فى الحـمـد والشكر العـمـيم
خليــفـــة الرحـــمن | لازالت زاهيـة المـظهـر
يا مـــورد الـظمــآن | ورأس مـــال المعـســر
خـــــدها بـلا دعــــوى | تزهى على الـروض الوسـيم
جـــاءت كـــمـــا تـهــوى | أرق مــن لدن الـنســـيــم
قـــــد طارحـت شكــوى | من قـال فـى الليل البــهـيم
«ليل الـهــوى يقـظان | والحب ترب الـســهـــر
والصـــبـر لى خـــوان | والنوم من عـينى برى»

ومن مخلع البسيط فى الصبوحيات قوله سامحه الله تعالى ورحمه ورضى عنه:

ريحـانة الفـجـر قـد أطلت | خـــضـراء بالـزهر تزهر[1]
وراية الـصـــبح إذ أظـلـت | فى مـــرقب الشـرق تنـشـر
فـالشـــهب من غـارة الصـبـاح | ترعـــد خـــســوفـــا وتخـــفق
وأدهم الـليل فـى جــــمــــاح | أعـنـة الـبـــــــرق يُـطـلـق
والأفق فـى ملتـــــقى الـرياح | بأدمـع الغــــيــث يشــــرق

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٨.

والسحب بالجوهر استهلت   فالبرق سيف مجوهر

صفاحة المذهبات حلت   فى راحة الجو تشهر

كم للصبا ثم من مقيل   بطينه الزهر يشهد

والنهر كالصارم الصقيل   فى حلية النور يغمد

ورب قال به وقيل   للطير فى حين تنشد

فألسن الورق قد أملت   مدائحا عنه تشكر

ونسمة الصبح حين كلت   فى سندس الروض تعثر

والكأس فى راحة النديم   يجلو بها غيهب الهموم

أقبست النار فى القديم   من قبل أن تخلق الكروم

والغصن فى ملعب النسيم   للزهر فى عطفه رقوم

فلبة القضب قد تحلت   والطل فى الحلى جوهر

وبهجة الكون قد تجلت   والروض بالحسن يبهر

يذكرنى وجنة الحبيب   والآس فى صفحة العذار

وشارب الشارب العجيب   بين أقاحٍ وجلنار

يدير من ثغره الشنيب   سلافة دونها العقار

حلت لأهل الهوى وجلت   بالذكر والوهم تسكر

كم من نفوس بها تسلت   فما لها الدهر منكر

يا غصن بان يميل زهوا   ريان فى روضة الشباب

لو كنــت تصـــغى لرفع الـشكوى أطلت مـن قـصـة العـتـاب
ومـن لمثـلـى ببث نجـــــوى للبـدر فى رفـرف السـحـاب
عـزائم الصـبـر فـيك حلت وعـقـدة الصـبـر تذخـر
قد أكثرت منك مـا استقلت وليت لـو كنت تشـعـر
كم لـيلـة بتــهـا وبتـا ضـدين فـى سـهـد والرقـاد
أسـامـر النجـم فـيك حـتى علمـت أجـفـانه السـهـاد
أراقـب بدر الـدجى وأنـتـا قـد لحت فى هـالة الفـؤاد
نفـسى وليت مـا تولت دعـها عـلى الشوق تـصبـر
لو سمـتها الهجـر ما تولت ولم تـكن عـنك تنـفـر
علمـهـا الصـبـر فـى الحـروب سلـطانـنا عـاقـد البـنود
مـعـفـر الصـيـد للـجنوب أعـز مـن حـف بـالجنـود
نصـرت بالرعـب فى القـلوب والبـيض لم تبـرح الغـمـود
عنـاية الله فـيـه حـلت بسـعـده الدين ينـصـر
والخلق فى عـصـره تملت غنائـمًـا ليس تحـصـر
مـولاى يـا نكتـه الـزمـان دار بمـا تـرتـضـى الـفـلـك
جلـلت بـاليـمن والأمـان كـل مليـك ومـا مـلـك
لم بدر وصـفى ولا عـيـانى أمـلـك أنـت أم مـلـك
جنودك الغلب حـيث حلت بالنصـر والفـتح تخـفـر

وعـــادة الله فـــيـك دلت　　أنك بـالكفـــر تظـفـــر

يـا آية الله فـى الـكـمــال　　ومـخـــجل البـــدر فى التـــمـام

قـــدمـت بالعـــز والجـــلال　　والدهـــر فى ثغـــره ابتـــسـام

يخـــتـال فى حلة الجـــمـال　　والبـدء قـــد عـاد فى اخـتـتـام

ريحـانة الفـجـر قـد أطلت　　خـضـراء بالزهر تـزهر

وراية الـصـبح إذ أظـلت　　فى مــرقب الشـرق تنـشـر

وقال رحمه الله تعالى وسامحه(١):

قـد طـلعت راية الصـبـاح　　وآذن اللـيل بـالرحـيل

فـبـاكـر الروض باصطبـاح　　واشـــرب على زهره البـلـيل

فـالـورق هبت من السَّـبَـاتِ(٢)　　لمـنـبـــر الـدوح تخـطـب

تســجع مــفـتـنة اللغـــات　　كل عـن الشـــوق يـعـــرب

والغـــصن بعـــد الذهاب يـأتى　　لأكـــؤس الطـل يشـــرب

وأدمع السـحب فى انسيـاح　　فى كل روض لهـــا سـبـيل

والجـو مـسـتـبـشـر النواحى　　يلعب بـالصـارم الصـقـيل

قم فــاغـتنم بهــجـة النـفـوس　　مـــا بـين نـورٍ وبـين نـورِ

وشـــفع الصــبح بالشـــمـوس　　تـديرهـا بـيننـا البـــدور

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٥١.

(٢) تحرف فى الأصل إلى: «السَّنَات» وصوابه من نفح الطيب.

ونبــــه الـشــــرب للـكئــــوس   تمزج مـن ريقــــه الـثــــغــــور
مــا أجـمل الراح فـوق راح   صفراء كالشمس فى الأصيل
تغــادر الصـــدر ذا انشــراح   للأنس فى طيــفــه مـقـيل
ولا تذر خــــمـــرة الجـــفـــون   فكـســــرها فى الهـــوى جنون
ولتـــخش من اســهم العـيـــون   فــــــإنـهـــــا رائـد المنـون
عــرضت منهــا إلى الفـتـــون   وكل خـطب لـهـــا يهـــون
أهـيم بـالغـــــادة الـرادح   والجـسم من حـبـهـا عليل
لو بت منهـــا على اقـتـراح   نقـعت من ريقـــهـا الغليل
أواعــــــــد الـطيـف لـلـمنام   ومــن لـعـــــــــينــى بالمـنـام
أســــهــــر فـى ليله الــتـمـــام   وأنت يـا بدر فـى التــــمــــــام
وألـثم الـزهر فـى الـكمـــــام   عليـــه من ثغــــرك ابتـــســـام
سـفرت عن مـبسم الأقـاح   وريقك العـذب سـلسـبـيل
قل لــى يا ربـة الوشــــاح   هل لى إلى وصل من سبيل
يا كـعــبـة الحـسن زدت حـــسنا   وللـهـــوى حــــولك المـطاف
وغـــــــــصـن بـانٍ إذا تثـنـى   لو حــــــان من زهـرك القـطاف
ألا انـعـطـاف عـلــى المـعـنـى   فــــالغـــصن يـزهو بالانعـطاف
أصـبـحت تزهو على الملاح   بذلـك المنظر الجـــمـــيل
ووجهك الشمس فى اتضاح   لو أنــهــــا لم تـكن تميل

مــــــا الــزهــر إلاّ بـنظـم در تحـــســـد فى حـــسنه العـــقـــود
لــلمـلــك الظـاهــر الأغـــــــر أكـــرم من حف بالـســـعـــود
مـحــمّـد الحــمـد وابن نـصـر وباسـط العـــدل فى الوجـــود
مساجل السحب فى السماح بالغـــيث من رفـده الجليل
ومـخجل البـدر فى الليـاح بغـــرة مـــالهـــا مـــثـــيل
يا مـــشـــرب الحب فى الـقلوب وواهب الصـــفح للصـــفـــاح
نصـــرت بالـرعب فى الحـــروب والرعب أجـــدى من الســـلاح
قـــد لحت من عـــالـم الغـيــوب لم تـعـــدم الفـــوز والنجـــاح
مـراكش نـهـبـة افـتـــتـــاح والصنع فى فـتـحهـا جليل
بشـــراك بالفـتح والنـجـاح والشكر مـن ذلك القـبـــيل

ومن غير المخلع قوله فى الهناء بالشفاء من مرض(١):

فى كئـوس الثغر من خـمر اللعس راحـــــــــة الأرواح
وتغـــشى الروض مـسكـى النفس عــــــاطـر الأرواح
قـد كسـا الأدواح وشـيـا مذهبـا يبــهـر الشــمـســا
عـسـجـد قـد حل من فـوق الربا يبـــهج النفـــســا
فـاتخـذ للهـو فـيـه مـركـبـا تحـلق الأنـســـــا
منبـر الـغـصن عليـه قـد جلس ســــاجـع الأدواح

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٥٣.

حلل السندس خضرا قد لبس	عطفه المرتاح
قم ترى هذا الأصيل شاحبا	حسنه قد راق
ولأذيال الغصون ساحبا	فى حلى الأوراق
ونديمى قال لى مخاطبا	قول ذى إشفاق
عادة الشمس بغرب تخلس	هات الشمس الراح
إنْ أرانا الجو وجها قد عبس	أوقد المصباح
ووجوه الشرب تغنى عن شموس	كلما تجلى
بلحاظ أسكرتنا عن كئوس	خمرها أحلى
مظهرات من خبايا فى النفوس	سورا تتلى
ما زمان الأنس إلا مختلس	فاغتنم يا صاح
وعيون الشهب تذكى عن حرس	تخصم النصاح
ما ترى ثغر الوميض باسما	يظهر البشرا
وثناء الروض هب ناسما	عاطراً نشرا
بث من أزهاره دراهما	قائلاً بُشرى
ركب المولى مع الظهر الفرس	وشفى وارتاح
بجنود الله دأبًا يحترس	إن غدا أو راح
وجب الشكر علينا والهنا	بعضنا بعضًا
فزمان السعد وضاح السنى	وجهه الأرضى

أثمـــرت فـــيـــه الـعـوالى بـالمنى ثمـــــراً غـــضـــا
يجـتنى الإسلام منهـا ما اغـترس سـيـــفـــه الســـفـاح
فى ضـمـيـر النقع منها قـد هجس شــــهـبٌ تلـتـــاح
يا إمـــامًـا بـالحُـســام المُنتـضى نصـــر الحـــقـــا
ثغـرك الوضـاح مـهمـا أومـضـا أخـــجـل البـــرقـــا
وديون الســعـــد منه تقــتــضى توسـع الحـــقـــا
لك وجـه من صـبـاح مـقـتـبس بشـــره وضـــاح
وجـمـيـل الصـفح منه ملـتـمس منعم صـــفـــاح
هاكـــهـا تمـزج لطفـــا بالنســيم كلمـــا هبـــا
قـد أتت بالبـرء والصنع الجـسـيم تـــشـــكـــو الـــرَّبَّـــا
أخجلت من قال فى الـصبح الوسيم مـــغـــرمـا صـــبـــا
غـــرد الطـيـــر فنبـــه مــن نعس يـــا مـــــدير الــراح
وترى الفـــجـــر عن ثـــوب الغلس وانجلى الإصــــبـــاح

وقال فى الهناء بالشفاء أيضًا، من مخلع البسيط[1]:

قــــد أنعم الله بــالشـــفـــاء واســــتكملـت راحـــة الإمـــام
فــلتـنطـق الطـيـــــر بالـهنـاء وليـــضـحـك الزهر فى الكمـــام
وجـــوده بهـــجـــة الوجـــود وبـرؤه راحـــــة النـفـــــوس

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٥٥.

قـــد لاح فى مـرقـب السعـــود واستـبـشرت أوجـه الشـمـوس
فــادوح يـومى إلى الســـجـــود أكـــمـــامـــه حطت الرءوس
والزهر فـى روضـــة الســمــاء كـــالزهــر قـــد راق بابتـــســـام
والصــبح مُـــســتـشـــرف اللواء والبـــدر مـــســتـقـــبل التمـــام
مـــحـــاسن الكون قـــد تجلت جـــمـــالهـــا العـــقل يبـــهـــر
عـــرائـس بالبـــهـــا تحلت والـطل فـى الحلـى جـــوهـــر
وألـسن الـورق قـــــد أملـت مـــــدائـحًـــــا عنه تـشكـر
تســـتـــوقـف الخلـق بالغـنـاء كـــأنهـــا تحـــسن الـكلام
تـــطـــنـــب لله فـى الـــثـــنـــاء تقـــول: سلـمت يا ســـلام
كم مـن ثغـــور لهـــا ثغـــور تبـــسم إذ جـــاءها البـــشـــيـــر
ومن خــــدور بـــهـــا بدور يشـــيـــر منهـــا له المشــيـــر
تقـــول إذ حـــفـــهـــا الســـرور تبـــارك المنعـم القـــديـــر
قـــد أنعـم الله بالبـــقـــاء فى ظل مـــولى بـه اعـتـــصـــام
قـــد صـــادف النجـح فى الدواء فـــالـــداء عنا لـه انفـــصـــام
يـهنيك مـــــولاى بل يـهنـا ببـــرئك الـــدين والـــهـــدى
فـالغـــرب والشـرب منك يعنى بمـــذهـــب الخـطـــب والـــردى
والله لـولاك مـــــا تـهـنـا من فـــيـــه من سطـوة الردى
يا مـــورد الأنفـس الظمـــاء قـــد كـــان يشـــتـــفـــهـــا الأوام

وقـــرة العـــين بـالبـــهـــاء ردتت لـلأعــــــين المنام

لو أبـذل الروح فى البــشـــاره بـذلـت بـعـض الـذى مـلـك

فـــأنت يا نفس مـســتـعــاره مـــولاك بالفــضل جــمـلك

لم أرد إذ أسطر العـــبـــاره أمـــلـك هـــو أم مـــلـــك

لا زلـت مـــــولاى فـى هنـاء تـبـلـغ القــــصــــد والمـرام

ودمت لـلملـك فى اعــتـــلاء تســـحـب أذياله الـغــمـــام

وقال أيضًا يصف مالقة ويمدح الغنى بالله(١):

عـليك يـا ريـة الســـــلام ولا عـــــــدا ربعـك المـطـر

مـــذ حل فى قـــصـــرك الإمـــام فَـــقُـــربُكِ الســؤل والـوطر

كم فـــيك لـلمـــغـــرم المشـــوق من مـنظر يـبـــهج النفـــوس

والـدوح فـى روضـــك الأنـيـق للـشـكـر قـــــد حطـت الرءوس

والجـــو من وجـــهـك الشــريق تحـــســده أوجـــه الشـــمـــوس

وأعـــــــين الـزهر لا تـنـام تستـــعـذب السـهـد والـسـهـر

تنفـث من تحـــتـهـــا الغـــمـــام ترقـــــيك من أعـــين الـزهر

عـــروســـة أنت يا عــــقـــيله تجلـى على مظـهـــر الكمــــال

مـدت لـك الكف مـســتـقـيله تمسـح أعطـافك الشــــمــــال

والبـــحــر مـــرآتك الصـــقــيله تشـف عن ذلـك الجــمــــال

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٥٧.

والحلى زهر له انتظام يكال القضب بالدرر
قد راق من ثغره ابتسام والورد فى خدها خفر
إنْ قيل من بعلها المفدى ومن له وصلها مباح
أقول أسنى الملوك رفداً مخلد الفخر بالصفاح
محمّد الحمد حين يهدى ثناؤه عاطر الرياح
تخبر عن طيبه الكمام والخبر يغنى عن الخبر
فالسعد والرعب والحسام والنصر آياته الكبر
ذو غرة تحسر البدورا وطلعته تخجل الصباح
كم راية سامها ظهورا تظلل الأوجه الصباح
وكم ظلام جلاه نورا أظفر بالفوز والنجاح
الطاهر الظاهر الهمام أعز من صال وافتخر
لسيفه فى العدا احتكام جرى به سابق القدر
يا مرسل الخيل فى الغوار لو تطلب البرق تلحق
لك الجوارى إذا تجارى سوابق الشهب تسبق
تستن فى لجة البحار فالكفر منهن يفرق
فالدين وليقصر الكلام بسيفك اعتز وانتصر
كذاك أسلافك الكرام هم نصروا سيد البشر

وقال من غير هذا البحر فى المحدث[1] بمالقة[2]:

قــــد نظم الشـــمل أتم انتـظام ... واغـتنم الأحـبـاب قرب الحـبـيب
واستضـحك الروض ثغور الكمام ... عن مـبـسم الزهر الـبـرود الشنيب
وعــــــمـم النـور رءوس الربـا ... وجلـل النـور صــــدور البـطاح
وصـافح القـضب نسـيم الصـبـا ... فـالزهـر يرنو عن عـيــون وقـاح
وعــاد للروض زمــان الصـبــا ... فــقـلد النهــــر مكان الـوشــاح
وأطلع القــصـــر بدور التـمــام ... فى طالع الفـتح القـريب الغـريب
خـدورها قـامت مـقـام الغـمـام ... لا أشـتكـى من بعـدها بالمـغـيب
أصبـحت يا رية مجلى الشـموس ... جــمـــالك العــيـن به تبـــهــر
والبِشْـر يسرى فى جمـيع النفوس ... وراية الأنـس بهـــــا تنـشـــــر
والـدوح للـشـكـر تحط الـرءوس ... وأنجـم الزهـر بـهـــــــا تزهـر
وراجع النـهـــر غناء الحــمــــام ... وقــد شــدت تســجع الخـطيب
بمنبــر الغـصن الرشـيـق القـوام ... لما انثـنى يهـــفـــو بقـــد رطيب
يا حـبـذا مـبناك فخـر القـصـور ... بدوحـــة طالـت بروج الســمــا
مـا مـثله فى سـالفات العـصـور ... ولا الذى شـاد ابن مــاء السـمـا
كم فـيـه من مـــرأى بهـيج ونور ... فى مـرتـقى الجـو به قـد سـمـا

---

(1) المحدَث: اسم مبنى عجيب كان بمالقة.

(2) نفح الطيب ج7 ص 258.

خليـــفـــة الله ونـعم الإمــــام   أتحــفك الدهر بصنـع عـجـيـب
يهنيك شــمل قـد غدا فـى التئـام   ممهـد فـى ظل عـيش خــصـيب
نواسم الـوادى بِمِـسْكٍ تـفــوح   ونفـــــحـــــة الند بـه تعـــبق
وبهـــجـــة السكان فــيـــه تلوح   وجـــــوه من نورهـم يشـــرق
وروضـــــه بالســـر منه تبـــوح   بـلابل عـن وجـــــــده تـنطـق
لو أنَّ مـن يفـــهـم عنا الـكلام   فـــــهى تـهنـيك هـناء الأديـب
ونهـــره قـــد سل منه الحـســـام   يـلحـظه الـنـرجس لحـظ المريـب
فـأجـمل الأيام عـصــر الشـبـاب   وأجــمـل الأجـــمل يوم اللـقــا
يا درة القــصــر وشــمس القـبـاب   وهازم الأحـــزاب فى المـلتــــقى
بشـــــرك الرب بحـــــسن المآب   مــتـــعك الله بطـول البــقـــا
ولا يزال القــصــر قــصــر السـلام   يخـتـال فى برد الشـبـاب القشـيب
يتلو عـليك الدهر فى كل عـــام: «نصـــر من الله وفــتح قــريب»

وقال - رحمه الله - من المخلع فى الشفاء(١):

فى طالـع اليــمن والســعـــود   قـــد كـــملت راحـــة الإمـــامْ
فـــأشـــرق النور فى الــوجــود   وابتــــسم الزهـر فى الكـمــــام
قـــــد طلـعت راية الـنجـــاح   وانهــــــزم البـــــأس والعـنا
وقـــــال حـى على الـفـــلاح   مـــــؤذن الفـــــوز بـالمنـى

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٦٠.

فـــالدهر يـأتى بالاقـــتـــراح		مـــســـتـــقـــبـــلا أوجـــه الـــهنا
تخـــــفـــق منشـــــورة البـنود		والســـــعـــد يـقـــدم من أمـــــام
والأنس مـــســتــجـمع الوفــود		واللطف مـــســتــعــذب الجــمــام
وأكــؤس الـطل مــتـــرعـــات		بـأنمل الســـــــــــوسن الـنـدى
والطيـــر مُـــفْـــتَـنَّةُ اللغـــات		تشـــدو بأصـــوات مــعـــبــد
والغـــــــصـن يذهـب ثم يَـأْتِى		بـالسـندس الـغض مـــــرتـدى
والدوح يومـى إلى الســـجــود		شكـرا لذى الأنعـم الجـســـام
والريـح خـــافـــقـــة البـنود		تبـــــارك الروض بالـغـــمــــام
مظـاهر لـلجـــمــــال تجـلى		قـــد هز أعـطافــهـــا الـســـرور
وباهـر الحـــسن قـــد تجـلى		مـــــا بـيـن نـور وبيـن نـور
قـــد هنأت بـالشـــفـــاء مـولى		بعـــصـــره تفـــخـر الـعـصـــور
مـــــا بيـن باس وبـين جـــود		قـــــد مـــهـــــد الأمن لـلأنام
فـــالديـن ذو أعـــين رقـــود		وكـــــــان لا يـطـعم المـنـام
والكأس فـى راحـــة الســـقـــاة		تـروح طورا وتـغـــتـــــدى
يهـــديـكهـــا رائق الـســمـــات		مـــــا بـين بـرق وفـــرقـــد
والشـــمس تذهب لـلبـيـــات		قـــد لبـست ثوب عـــســـجـد
والزهـر فى اليـــانع المجـــرد		يقـــابل الشـــرب بابتـســـام
والروض من حـلبـــة الغـــمــود		قـــد جـرد النهـــر عن الحـســام

مـــــولاى يا أشــــرف الملوك وعــصـمــة الخلق أجــمـعــين

أهديـك من جـــوهـر السـلوك يقـــذفـــه بحـــرك المـعـــين

جـــعـلت تنظـيـــمـــه سـلوكى وأنت لـى المنجــد المـعـــين

تحــيــة الواحـــد المجـيــــد ورحـــــمــــة الله والســـلام

عـــلــيـك مــن راحـــم ودود يا مـــخـجل البــدر فى التـمـام

وقال رحمه الله تعالى من الرمل المجزوء[1]:

وجــــه هذا اليــــوم باسم وشــــــــذا الأزهـار نـاسـم

هاتهـــا صــاح كـــئـوســـا جــــالبــــات للســــرور

وارتقب مـنهـا شـــمـوســـا طـالـعـــــات فـى بـدور

مــــا نرى الروض عــــروســــا فـــى حـــلـــى نـــور ونــــور

وأتـــت رســـل الـنـــواسم تجـــــــتلى هـذى المـواسـم

قـــد أهلت بـالبـــشـــائر أضـــحكت ثـغـــر الأزاهر

سـنحـــت فـى يـمـن طـــائـر ونـظـمـن كــــالجـــواهـر

فــانـشـــروها فـى العـــشـــائر إن هـــذا الــصـــنـــع بــاهـــر

وأشـــيـــعـــوا فـى العـــوالم الـغـنـى بـالله ســــــالـم

أى نـور يـتـــــوقـــــــد أى بـدر يـتـــــــــــــلالا

أى فـــخـــر يتـــخـلد أى غـــــيـث يـتـــــوالـى

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٦١.

إنّمــــا المولى مـــحـــمّـــد رحـــــمـــــة الله تـعـــــالى
كـــفـــه الـبـــحـــر المقـــاسم وبـهـــــا حج المبـــــاسم
خـــيــــر أمـــــلاك الزمـــان من بـنى ســــعـــد ونصـــر
مـــــا تـرى أن الشـــــوانـى فى صـــعـــيـــد الـبـــر تجـرى
قـــــد أطارتـهـــا الـتـــهـــانى دون بـحــــــرى وبـحـــــر
مـــذ رأت بـحـــر النعــــائم كلـهـــــا جـــــار وعــــــام
فـــهنيـــئـــا بالـشـــفـــاء يـــا أمـــــيـــــر المؤمـنين
ولـــنـــا حُـــقّ الـــهـــنـــاء وجـــمـــيع المسلمـــين
إن جـــهـــرنـا بالـدعـــاء يـنـطـق الدهـر أمـــــيـــن
دمت مـــحـــروس المكارم بظـبى الـبـــيـض الـصـــوارم

وقال يهنئ السلطان مـوسى بن السلطان أبى عنان وقد وجـه إليه الغنى بالله أمه وعياله عند تملكه المغرب من قبله:

قـــد نظم الشـــمل أتم انتـظام ولاحت الأقـمار بعـد المغـيب(١)
وأضـــحك الروض ثغـــور الكرام عن مـبـسم الزهر البـرود الشنيب
وعـاود الغـــصن زمـان الصـــبـا وأشـرب الأنس جـمـيع النفـوس
وعـــــــمـم النـور رءوس الربـا وجلل الـنور وجـه الـشـمــوس
وأطرب الغــصن نسـيم الصـــبـا فــالدوح لـلشكر يـحط الرءوس

---
(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٦٣.

واستقبل البدر ليالى التمام		وصافح الصبح بكف خضيب
وراجع الأطيار سجع الحمام		بكل ذى لحن بديع غريب
نواسم الوادى بمسك تفوح		ونفحة الند به تعبق
وبهجة السكان منه تلوح		وَجَوُهُ من نورهم يشرق
وعرفهم بالطيب منهم يفوح		كأنه من عنبر يفتق
والنهر قد سل كمثل الحسام		حبابه تطفو وطورا تغيب
وقال ثغرها قد راق منه ابتسام		يهنئ الأحباب قرب الحبيب
كواكب أبراجهن الخدور		يلوح عنها كل بدر لياح
جواهر أصدافهن القصور		نَظَمَهَا السعد كنظم الوشاح
يا حبذا والله ركب السرور		يبشر المولى بنيل اقتراح
ابتهج الكون بموسى الإمام		واختال فى برد الشباب القشيب
وعاده يخدم مثل الغلام		شبابه قال عاد بعد المشيب
أكرم به والله وفد الكريم		مولاتنا الحرة فى مقدمه
مرضاتها تحظى بدار النعيم		وتوجب التوفيق من منعمه
بشر بالنصر وفتح جسيم		وخيره أجمع فى مقدمه
لقاؤها المبرور مسك الختام		بشرك الله بصنع عجيب
وقصرك الميمون قصر السلام		خص بحفظ من سميع مجيب
مولاى يهنيك وحق الهنا		قد نظم الشمل كنظم السعود

قد فزت بالفخر ونيل المنى وأنجز السعد جميع الوعود
وقرت العين وزال العنا وكلما مر صنيع يعود
فلا يزل ملكك حلف الدوام يحوز فى التخليد أو فى نصيب
يتلو عليك الدهر بعد السلام «نصر من الله وفتح قريب»

وقال رحمه الله فى وصف غرناطة والطرد وغيرها(١):

لله ما أجمل روض الشباب من قبل أن يفتح زهر المشيب
فى عهده أدرت كأس الرضاب حبابها الدر بثغر الحبيب
من كل من يخجل بدر التمام مهما تبدى وجهه للعيون
ويفضح الغصن بلين القوام وأين منه لين قد الغصون
ولحظه يمضى مضاء الحسام ويذهل القلب بسحر الجفون
أبصرت منه إذ يحط النقاب شمسا ولكن ما لها من مغيب
إذا تجلت بعد طول ارتقاب صرفت عنها اللحوظ خوف الرقيب
من عاذرى منه فؤاد صبا للامع البرق وخفق الرياح
يطير إن هب نسيم الصبا تعيره الريح خفوق الجناح
ما أولع الصب بعهد الصبا وهل على من قد صبا جناح
فقلبه من شوقه فى التهاب قد أحرق الأكباد منه الوجيب
والجفن منه سحبه فى انسكاب قد روض الخد بدمع سكيب

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٦٤.

غـــــرناطـة ربع الـهنـا والمنـى وقـــربهـــا الســؤل ونيـل الوطر

وطيـــبــهـــا بالوصل لو أمـكنا لم أقطـع الليل بطـول الســـهـــر

عـمـــا قـريـب حق فـيـــه الهنا بيُـمْـنِ ذى العـود بعـد الســفـر

ويحـــمـــد الناس نجـاح الإياب بل صنع مـــســتـجـد غـــريب

ويكـتـب الفـــأل على كـل باب «نصـــر من الله وفـتح قـــريب».

مـــا لذة الأمـــلاك إلاّ القـنص لأنّه الفـــأل بصـــيـــد العـــدا

كم شـارد جـرع فـيـه الغـصص وأورد المحـــــــروب ورد الـردى

وكم بذا الفحص لـنا من حصص قـــد جـمع البـــأس بهـــا والندى

ومنها أبيات سقطت(١):

مـــولاى مـــولاى وأنـت الذى جـددت للأمـلاك عـهـد الجـلال

والشـــمس والـبـــدر من العـــوذ لما رأت مـنك بديـع الجـــمـــال

والروض فى نعـــمـتـه يغـتـذى بطيب مـا قـــد حـزته من خـلال

بشـــراك بشـــراك بحـــسن المآب تسـتضـحك الروض بثـغـر شنيب

ودمت مـحـروس العـلا والجناب بعـصـمـة الله الســميع المجـيب

وقد طال الكلام؛ ولنجعـل آخر موشحة له رحـمه الله تعالى زهرية فى مدح المصطفى ﷺ، وتكون مسك الختام، وهى:

لو تـرجع الأيام بـعـــد الـذهاب لم تقـدح الأشواك ذكـرى حبـيب

وكل مـن نام بليـل الشـــبـــاب يوقظـه الدهر بصـبـح المشـيب

(١) نفح الطيب جـ٧ ص ٢٦٥.

يا راكب العـــجــز ألا نهـضـــة   قـد ضـــيق الدهر عليـك المجـال
لا تحـــسبن أنَّ الصـــبـا روضـــة   تنام فـــيـــهـــا تحت فـئ الظلال
فـــالعـــيــش نوم والردى يقـظة   والمرء مـــا بينهـــمـا كـــالخـيـــال
والعـمر قـد مر كـمـر السحـاب   والملتـــقـى بالله عـــمـــا قـــريب
وأنت مــخـدوع بلمع الـســراب   تحـسبـــه مـاء ولا تـســتـــريب
والله مـــا الكون بما قـــد حـــوى   إلاّ ظلال تـوهم الـغــــافـــــلا
وعـــادة الظل إذا مـــا اسـتــوى   تبـــصـــره مـــتنـقـــلا زائلا
أنا إلى الله عـــبـــيــد الهـــوى   لم نـعــرف الحـق ولا البـــاطلا
فكل من يرجـو سـوى الله خـاب   وإنما الـفـــوز لعـــبـــد منـيب
يستقـبل الرجـعى بصدق المتـاب   ويرقب الله الشـــهـــيـد القـــريب
سـا حسـرتا مـر الصـبا وانقـضى   وأقـــبل الـشـــيب يقـص الأثر
واخــجلتـا والـرحل قـد قُـوِّضَـا   ومـا بق فى الخُبْـر غـيـر الخَبَـر
وليتـــه لو كنت فـيـمـــا مـضى   أدخـــر الزاد لـطول الســـفــــر
قد حـان من ركب التصـابى إياب   ورائد الـرشـــاد أطال المغــــيب
يا أكـمــه القلب بغـين الحـجـاب   كم ذا أناديك فـــلا تســتـجـيب
هل يــحـــمـل الزاد لدار الكـريم   والمصطفى الـهـادى شـفـيع مطاع
فـجـاهه ذخـر الفـقـيـر العـديم   وحـــبـــه زادى ونعـم المتــــاع
والله ســـمـــاه الرءوف الرحـــيم   فـجــاره المكفـول مـــا إن يضـــاع

عسى شفيع الناس يوم الحساب ... وملجأ الخلق لدفع الكروب
يلحقنى منه قبول مجاب ... يشفع لى فى موبقات الذنوب
يا مصطفى والخلق رهن العدم ... والكون لم يفتق كمام الوجود
مزية أعطيتها فى القدم ... بها على كل نبى تسود
مولدك المرقوب لَمَّا نجم ... أنجز للأمة وَعْدَ السعود
ناديت لو يسمع لى بالجواب ... شهر ربيع: يا ربيع القلوب
أطلعت للهدى بغير احتجاب ... شمسا ولكن مالها من غروب

وليكن هذا آخر ما أردناه، وقصدناه من شأن ابن زمرك وسردناه.

* * *

وسنح لى أن أنتقى بعض كلام ابن خلدون فى تاريخه الكبير فى ذكر الموشحات والأزجال، فنقول:

قال رحمه الله: وأما أهل(١) الأندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التعميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنا منه، وسموه بالموشح، ينظمونه أسماطا أسماطا، وأغصانا أغصانا، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون منا بيتا واحدا، ويلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد، إلى آخر القطعة وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد، وتجاوزوا فى ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس وحمده الخاصة والكافة، لسهولة تناوله وقرب طريقه.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٨ (طبعة بولاق ١٨٦٨م).

وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمّد المروانى، وأخذ عنه ذلك عبد ربه صاحب كاتب العقد، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشحاتهما، فكان أوّل من برع فى هذا الشأن بعدهما عُبادة القزاز، شاعر المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، وقد ذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول: كل الوشاحين عيال على عُبادة القزاز فيم اتفق له من قوله:

بدر تم شمس ضحى   غصن نقا مسك شم

ما أتم ما أوضحا   ما أورقا ما أنم

لا جرم من لمحا   قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذى كانوا فى زمان ملوك الطوائف، وجاء مصليا خلفه منهم ابن ارفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة. قالوا: وقد أحسن فى ابتدائه فى الموشحات التى طارت له حيث يقول:

العود قد ترنم   بأبدع تلحين

وسقت المذانب   رياض البساتين

وفى انتهائه حيث يقول:

تخطر ولا تسلم   عساك المأمون

مروع الكتائب   يحيى بن ذى النون

ثم جاءت الحلبة التى كانت فى مدة الملثمين، فظهرت لهم البدائع وفرسان حلبتهم الأعمى التطيلى، ثم يحيى بن بقى، وللتطيلى من الموشحات المذهبة قوله:

كيف السبيل إلى صبرى وفى العالم أشجان

والركب وسط الفلا بالخرد النواعم قد بانوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها فتقدم الأعمى التطيلى للإنشاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضاحك عن جمان سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

خرق ابن بقى موشحته، وتبعه الباقون.

وذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع ابن زهر يقول: ما حسدت قط وشاحا على قول إلاّ ابن بقى حين وقع له:

أما ترى أحمد فى مجده العالى لا يلحق

أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق

وكان فى عصرهما من الوشاحين للطبوعين أبو بكر بن الأبيض، وكان فى عصرهم أيضًا الحكيم أبو بكر بن باجّة صاحب التلاحين المعروفة.

ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومة ابن تيفلويت صاحب سرقسطة، فألقى عليَّ بعض موشحته:

جرر الذيل أيما جر

فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله:

عقد الله راية النصر   لأمير العلا أبى بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح: واطرباه! وشق ثيابه وقال: ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالأيمان المغلظة ألاًّ يمشى ابن باجة إلى داره إلاّ على الذهب فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه.

ثم قال ابن خلدون بعد كلام: واشتهر بعد هؤلاء فى صدر دولة الموحدين محمّد بن أبى الفضل بن شرف. ثم قال: وابن هردوس الذى له:

يا ليلة الوصل والسعود   بالله عودى

وأبو موهد الذى له:

ما العيد فى حلةٍ وطاق   وشم طيب

وإنّما العيد فى التلاقى   على الحبيب

وأبو إسحاق الزويلى: سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول أنّه دخل على ابن زُهْر وقد أسن وعليه زى البادية، إذ كان يسكن بحصن إستبه، فلم يعرفه؛ فجلس حيث انتهى به المجلس، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه، موشحة وقع فيها:

كـحل الدجى يجـرى من مـقلة الفـجـر علـى الصـبـاح

ومـعـصم الـنهـر فى حـللٍ خـضـر مـن الـبـطـاح

فتحرك ابن زهر، وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبر؛ قال: ومن تكون فعرَّفـه، فقال: ارتفع فوالله ما عـرفتك. قال ابن سعيـد: وسابق الحلبة التى أدركت هو أبو بكر ابن زهر وقد شرَّقت موشحاته وغرَّبت. قال: وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: قيل لابن زهر: لو قيل لك ما أبدع ما وقع لك فى التوشيح؟ فقال: كنت أقول[1]:

مـا لـلمـوله من سـكره لا يفـيق يـا لـه سـكـران

[من غـيـر خـمـر مـا للكـئـيب المشـوق بـنـدب الأوطـان][2]

هل تـسـتـعـاد أيـامـنـا بـالخـليـج ولـيـالـينـا

إذ يسـتـفـاد من الـنسـيـم الأريج مـسـك دارينـا

وإذ يـكـاد حـسن المكان البـهـيج أنْ يُحَـيِّـينـا

نـهـر أظـلـه دوح عليـه أنـيق مـورق فـينان

والمـاء يجـرى وعـائم وغـريق من جـنى الريحـان

واشتـهر بعـده ابن حيـون. إلى أنْ قال ابن خلدون: وبعـد هؤلاء ابن حزمون بمرسـية. ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجى دخل عليـه فى مجلسه: فأنشده موشـحة لنفسه، فقال له ابن حزمـون: ما الموشح بموشح حتى يكون عاريا عن التكلف؛ فقال: على مثل ماذا؟ قال على مثل قولى[3]:

(١) نفح الطيب ٧/ ٩.

(١) التكملة عن مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٠، والنفح ٧/ ٩.

(٣) نفح الطيب ٧/ ١٠.

يا هاجـــرى هل إلى الـوصـــال مــنك ســـــبـــيــل
أو هل تــرى عن هواك ســـــالى قــلـــب الــعــلــيــل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة. قال ابن سعيد: كان والدى يعجب بقوله(١):

إنَّ سـيل الـصـبـاح فى الـشـرق عـــاد بحـــراً فـى أجـــمع الأفق
فـــتـــــداعت نــوادب الورق أتراهـا خـــافـت من الغـــرق
فـــبكت ســـحـــرة عــلى الورق

واشتهر بإشبيلية لذلك العهـد أبو الحسن بن الفضل. قال ابن سعيد عن والده: سمعت سـهل بن مالك يقول له: يا بن الفضل، لك عـلى الوشَّاحين الفضل بقولك(٢):

وا حـــســـرتا لزمـــان مـــضى عـــشـــيــة بــان الهـوى وانقـــضى
وأفـــــرد بالرغــم لا بالرضـــــا وبت علـى جـمـــرات الغـــضى
أعـــانـق بالـفكر تـلك الطـلول وألثم بالـوهم تلـك الرســـــوم

قال: وســمعت أبا بكر بن الـصابونى ينشـد الأستاذ أبا الحـسن الدباج موشحاته غير ما مرة، فما سمعته يقول: لله درك إلاّ فى قوله(٣):

قـــســمــا بالهــوى لذى حـــجــر مـــا الليل المشـــوق من فـــجـــر
جـــمـــــد الصـــبح ليس يـطرد مـا لــليــالى فـــيـمـا أظــن غــد
صـــح يـا لــيـــل أنـك الأبـــد

أو تَقَـــضَّــت قـــوادم الـنســـر فنجـــوم الـــســمـــاء لا تـــسـرى

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٠.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ١٠.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ١٠.

ومن موشحات ابن الصابونى قوله[1]:

ما حـال صب ذى ضنى واكتئاب أمـرضـتـه يا ويـلتـاه الطبـيب
عـامله مـحـبوبه باجـتناب ثم اقـتـدى فيـه الكرى بالحـبيب
جـفـا جـفـونى النوم لكننى لم أبكـه إلاّ لفـقـد الخـيـال
وذا الوصـال اليـوم قـد عـزنى منه كـمـا شـاء وشـاء الوصـال
فلـست بـاللائـم من صـدنى بصـورة الحـق ولا بالمحـال

واشتهر ببر العداوة ابن خلف الجزارى صاحب الموشحة المشهورة[2]:

يد الإصباح قدحت زناد الأنوار من مجامر الزهر

وأبن الخرز البجائى، وله من موشحة:

ثغر الزمان موافق حياك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبتة من بعدها[3]:

هل درى ظبى الحمى أن قـد حمى قـلب صـب حـله عـن مـكنـس
فـهـو فى نار وخـفق مـثلـمـا لعـبت ريح الصـبـا بالقـبس

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس [والمغرب لعصره][4] فقال:

(١) نفح الطيب ٧/ ١١.
(٢) نفح الطيب ٧/ ١١.
(٣) نفح الطيب ٧/ ١١.
(٤) التكملة عن نفح الطيب ٧/ ١١.

جـادك الـغـيث إذا الغـيث همى | يا زمـان الـوصل بالأنـدلس[1]
لم يـكن وصـلك إلاّ حلـمـا | فى الكـرى أو خلسـة المخـتلس
إذ يقـود الدهـر اشـتـات المنى | تـنقل الخطـو علـى مـا يـرسم
زمـرا بين فـرادى وثـنى | مـثلمـا يدعـو الوفـود الموسم
والحـيـا قـد جلل الـروض سنًا | فـثـغـور الزهر فـيـه تبـسم
وروى النعـمـان عن مـاء السـمـا | كـيـف يروى مـالـك عن أنس
فكسـاه الحـسن ثوبا مـعلمـا | يـزدهـى منـه بأبـهـى مـلـبس
فى ليـال كـتـمت سـر الهـوى | بالدجـى لولا شـمـوس الغـرر
مـال نجم الـكأس فـيـهـا وهوى | مـستـقـيم السـيـر سـعـد الأثر
وطر مـا فـيـه من عـيب سـوى | أنه مـر كلمـح البـصـر
حـيـن لَذَّ النوم مـع حلو اللـمى | هجم الـصـبح هـجـوم الحـرس
غـارت الـشـهب بنـا أو ربمـا | أثرت فـيـنا عـيـون الـنرجس
أى شىء لامـرئٍ قـد خـلصـا | فـيكـون الروض قـد مكن فـيـه
تنـهب الأزهار منـه الفـرصـا | أمنت مـن مكره مـا تـتـقـيـه
فـإذا المـاء تناجى والحـصى | وخـلا كل خلـيل بأخـيـه
تبـصـر الورد غـيـور برمـا | يكتـسـى من غـيظه مـا يـكتـسى
وترى الآس لبـيـبـا فـهـمـا | يسـرق السـمع بأذنـى فـرس
يَأُهَـيْلَ الحى من وادى الـغـضى | وبـقلـبى مـسـكن أنـتم بـه

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١١.

ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تعتقدوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما يتلاشى نفسا فى نفس
حبس القلب عليكم كرما أفترضون عفاء الحبس
وبقلبى منكم مقترب بأحاديث المنى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذهب فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى جال فى النَّفْس مجال النَفَسِ
سدد السهم وسمى ورمى ففؤادى نهبة المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمد ممتثل فى ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما لم يراقب فى ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما ومجازى البر منها والمُسِى
ما لقلبى هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
كان فى اللوح له مكتتبا قوله: «إنَّ عذابى لشديد»
جلب الهم له والوصبا فهو للأشجان فى جهد جهيد
لاعج فى أضلعى قد أضرمها فهى نار فى هشيم اليبس

لم يدع في مـهـجـتـي إلاّ ذما كـبـقـاء الصـبح بعـد الغلس
سلمي يا نفس في حكم القضا واعـمري الوقت برجعي ومتاب
دعك من ذكرى زمان قد مضى بين عتبى قد تقضت وعتاب
واصرفي القول إلى المولى الرضا ملهم التوفيق في أم الكتاب
الكريم المنتهى والمنتمى أسد السرج وبدر المجلس
ينزل النصر عليه مثلما ينزل الوحي بروح القدس

قال[1]: وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات. ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصري، التي اشتهرت شرقا وغربا، وأولها:

يا حبيبي[2] ارفع حجاب النور عن العذار
ننظر المسك على الكافور في جلنار
كللي يا سحاب التيجان الربا بالحلي
واجعلي سوارها منعطف الجدول

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه، وتصريع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا على طريقته بلغتهم الحضرية، من غير أن يلتزموا فيه إعرابا، واستحدثوا فنا سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال، بحسب لغتهم المستعجمة.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٤ ونفح الطيب ج٧ ص ١٤.
(٢) تحرف في المطبوع إلى: «حبيبي» والصواب عن المصدرين المذكورين.

وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان وإن كانت قيلت قبله بالأندلس لكن لم تظهر حلاها ولا انسبكت معانيها ولا اشتهرت رشاقتها إلاّ فى زمانه وكان لعهد الملثمين وهو إمام الزجالين على الإطلاق

قال ابن سعيد: ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب. قال: وسمعت أبا الحسن بن جحدر الإشبيلى إمام الزجالين فى عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة وقد خرج إلى متنزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر فقال[1]:

وعريش قد قام على دكان ... بحال رواق

وأسد قد ابتلع الثعبان ... فى غلظ ساق

وفتح فَمُّو بحال إنسان ... به الفواق

وانطلق يجرى على الصفاح ... وألقى الصياح

وكان ابن قزمان مع أنه قرطبى الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية وينتاب نهرها.

ثم ذكر ابن خلدون عنه وعن جماعة حكاية وكلاما إلى أن قال: وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مَدْغَلِّيس وقعت له العجائب فى هذه الطريقة فمن قوله فى زجله المشهور:

ورذاذ دق ينزل ... وشعاع الشمس يضرب

فترى الواحد يفضض ... وترى الآخر يذهب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٤، ونفح الطيب ج٧ ص ١٥.

والنبـات يشـرب ويسكر   والغصون ترقص وتطرب
وتـريــد تجـئ إلـيــنـا   ثم تســتـحى وتـهـرب

ومن محاسن أزجاله قوله:

* لاح الضياء والنجوم حيارى *

ثم قال ابن خلدون[1]: وظهر بعد هؤلاء فى إشبيلية ابن جحدر الذى فضل على الزجالين فى فتح ميورقة بالزجل المشهور الذى أوله:

من عاند التـوحيد بالسـيف يمحق   أنـا برئ ممـن يعـــاند الحـق

قال ابن سعيد: لقيته ولقيت تلميذه البعبع صاحب الزجل المشهور الذى أوله:

يا ليـتـنى إن رِيْت حـبـيـبـى   أفــتل اذنـو بالرســيــلا
ليـش أخــذ عنق الـغــزيل   وســرق فم الحــجــيــلا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الآداب ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر فى الملة الإسلامية غير مدافع فمن محاسنه فى هذه الطريقة:

امـزج الأكـواس وامـلالى نجـدد   مــا خـلق المال إلاّ أن يـبــدد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششترى منهم:

بـيـن طـلوع وبـيـن نـزول   اخـــتـلطت الـغـــزول
ومــضى مـن لم يـكن   وبـقـــمـن لم يـزول

(١) المقدمة ص ٥٢٦.

ومن محاسنه أيضًا قوله في ذلك المعنى:

البعد عنك يا بنى أعظم مصابى

وحين حصل لى قربك نسيت أقاربى

وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمّد بن عبد العظيم، من أهل وادى آش، وكان إماما فى هذه الطريقة، وله من زجل يعارض به مدغليس فى قوله:

* لاح الضياء والنجوم حيارى *

بقوله:

حل المجون ياهل الشطارا مذ حلت الشمس بالحمل

ثم ذكر ابن خلدون جملة من هذا الزجل وقال بعد ذلك: وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هى فن العامة بالأندلس من الشعر وفيها نظمهم حتى إنهم لينظمون بها فى سائر البحور الخمسة عشر لكن بلغتهم العامية ويسمونه الشعر الزجلى. إلى أن قال: وكان من المجيدين فى هذه الطريقة لأول هذه المئة الأديب أبو عبد الله اللوشى وله من قصيدة يمدح فيها السلطان ابن الأحمر:

طل الصباح قم يا نديم نشربو ونضحكو من بعد ما نطربو

ثم سردها ابن خلدون وهى طويلة جدا(١).

ثم قال: ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنا آخر من الشعر فى أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضًا وسموه عروض

(١) وردت بطولها فى مقدمة ابن خلدون ج١ ص ٥٢٧.

البلد وكان أول من استحدثه بينهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذهب الإعراب [إلاّ قليلا](١) مطلعها:

أبكانى بشاطى النهر نوح الحمام ... على الغصن فى البستان قريب الصباح(٢)
وكف السحر تمحو مداد الظلام ... وماء الندى يجرى بثغر الأقاح
باكرت الرياض والطل فيه افتراق ... سر الجوهر فى نحور الجوار
ودمع النواعر ينهرق انهراق ... يحاكى ثعابين حلقت بالثمار
لووا بالغصون خلخال على كل ساق ... ودار الجميع بالروض دور السوار
وأيدى الندى تخرق جيوب الكمام ... وتحمل نسيم المسك عنها رياح
وعاج الضياء يطلى بمسك الغمام ... وجر النسيم ذيلو عليها وفاح
رَايتِ الحمام بين الورق فى القضيب ... قد ابتلت ارياشو بقطر الندى
ينوح مثل ذاك المستهام الغريب ... قد التف من ثوبو الجديد فى ردا
ولكن بفاه أحمر وساق خصيب ... ينظم سلوك جوهر ويتقلدا
جلس بين الأغصان جلسة المستهام ... جناحا توسد والتوى فى جناح
وصار يشتكى ما فى الفؤاد من غرام ... منها ضم منقارو لصدرو وصاح
فقلت احمام أحرمت عينى الهجوع ... أدى ما تزال تبكى بدمع سفوح
قال لى بكيت حتى صفت لى الدموع ... بلا دمع نبقى طول حياتى ننوح

(١) التكملة عن مقدمة ابن خلدون.

(٢) ابن خلدون ج١ ص ٥٢٩.

على فرخ طار لى لـم يكن لو رجوع — ألفت البكا والحـزن من عهـد نوح
كـذاك هو الوفـا كـذا هو الذمـام — انظر للجفون صـارت بحال الجراح
وأنتم من بـكى منكم إذا تم عـــام — يقـول قد عـيـانى ذا البكا والنواح
فقلت احمـام لو خضت بحر الضنى — كـان تبكى وترثى لى بدمع هتـون
ولو كـــان بقـلبك مـــا بقلـبى أنا — رماد كان يصير تحتك فروع الغصون
اليوم لى نقاسى الهجر كم من سنا — حتى لا سبيل جـمله ترانى العيون
ومما كســا جسمى النحـول والسقم — أخافنـى نحولى عن عيـون اللواح
لو جتنى المنايا كـان نموت فى المقام — ومن مات بعد يا قـوم لقد استراح

ثم قال ابن خلدون: فـاستحسنه أهل فاس، وولعـوا به، ونظموا على طريقته، وتركـوا الإعراب الذى [ليس](١) من شأنهم، وكـثر شيـاعه بينهم، واستحفل فيه كثـير منهم، ونوعوه أصنافا، إلى المزدوج، والكازى، والملعبة، والغزل؛ واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها، وملاحظاتهم فيها.

فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع، من فحولهم، وهو من أهل تازا(٢):

المال زينة الـدنيـا وعـز الـنفـوس — يبـــهى وجـوهـا ليس هى باهيـــا
فـهـا كل من هو كـثـيـر الفلوس — ولوه الكـلام والرتبـــة العـــاليـــا
يكبروا من كثر ماله ولو كان صغير — ويصـغر عـزيز القـوم إذا يفـتقـر
من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يغـير — وكـاد ينفقع لـولا الرجوع للقـدر

(١) التكملة عن مقدمة ابن خلدون.
(٢) ابن خلدون ج١ ص ٥٣٠.

حتى يلتجى من هو فى قومه كبير ... لمن لا أصل عندو ولا لو خطر
لقد ينبغى نحزن على ذى العكوس ... ونصبغ عليه ثوبى من راس خابيا
أدى صارت الأذناب أمام الرءوس ... وصار يستفيد الواد من الساقيا
ضعف الناس عمل ذا أو فساد الزمان ... ما ندريو على من نكثرو ذا العتاب
أدى صار فلان اليوم يصبح بو فلان ... ولو ريت وكيف حتى يرد الجواب
عشنا والسلام حتى رأينا عيان ... أنفاس السلاطين فى جلود الكلاب
كبار النفوس جدا ضعاف الأسوس ... هم فى ناحيا المجد فى ناحيا
يروا أنهم -والناس يروهم تيوس- ... وجوه البلد والعمد الراسيا

ثم ذكر ابن خلدون كلاما آخر لابن شجاع. ثم قال: وكان منهم على ابن المؤذن بتلمسان. وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزرهون من نواحى مكانسة رجل يعرف بالكفيف، أبدع فى مذاهب هذا الفن؛ ومن أحسن ما علق له بمحفوظى قوله رحلة السلطان أبى الحسن وبنى مرين إلى إفريقية، يصف هزيمتهم بالقيروان، ويعزيهم عنها، ويؤنسهم بما وقع لغيرهم، بعد أن عيبهم على غزاتهم إلى إفريقية فى ملعبة من فنون هذه الطريقة، يقول فى مفتتحها، وهو من أبدع مذاهب البلاغة فى الإشعار بالمقصد فى مطلع الكلام وافتتاحه، ويسمى براعة الاستهلال:

سبحان مالك خواطر الأمرا ... بنواصيها فى كل حين وزمان(1)
إن طعناه أعظم لنا نصرا ... وإن عصيناه عاقب بكل هوان

(1) ابن خلدون ج1 ص 531.

إلى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص:

كن مرعى قل ولا تكن راعى ... فالراعى عن رعيته مسئول[1]
واستفتح بالصلاة على الداعى ... للإسلام والرضى السنى المكمول
للخلفا الراشدين والأتباع ... واذكر بعدهم إذا تحب وقول
أحجاجا تخللوا الصحرا ... ودروا شرح البلاد مع السكان
عسكر فاس المنيرة الغَرًا ... أين سارت به عزائم السلطان
أحجاج بالنبى الذى زرتم ... وقطعتهم لو كلاكل البيدا
عن جيش الغرب جيت نسألكم ... المتلوف فى افريقيا السودا
وأمير كان بالعطا يزودكم ... ويدع برية الحجاز رغدا
قام كل كلسد صادف الجزرا ... ويعجز شوط بعد ما لحقان
وتركوا دم ولهب فى الغبرا ... أدى صار إذ غار له سيحان
لو كان ما بين تونس الغربا ... وبلاد الغرب سد الاسكندر
مبنى من شرقها إلى غربا ... طبقا بحدبد وثانيا بصفر
لا بد للطير كان يجى بنبا ... أو يأتى الريح عنهم بفرد خبر
ما أعوصها من أمور وما شرا ... لو تقرا كل يوم على الوديان
لجرت بالدم وانصدع حجرا ... وهوت الاجراف وجفت الغدران
ادرى لى بعقلك الفحاص ... وتفكر لى بخاطرك جمعا

(١) ابن خلدون ج١ ص ٥٣١.

إن كـان يعلم حـمـام ولا رقـاص   عن السلطان شـهـر وقـبله سـبعـا
بكتـاب عـبد المهيـمن القـواص   وعـلامـات تنشر عـلى الصمـعـا
إلا قـوم عـاريين بلا سـتـرا   مـجـهـولين لا مـكان ولا إمكان
لم يدريوا كـيف يصـيروا الكسـرا   أو كـيـف دخلوا مـدينة الـيـروان
أمـولاى بو الحسن خطينا البـاب   بقـضـة سـيـرنا إلـى تونس
فى غنى كـنا عن الجـريد والزاب   وايش لك بعرب إفـريقيـة القونس
مـا بلغك عـن عـمـر بن الخطاب   الفـاروق فـاتح القـرى المونس
ملك الشام والحجـاز وتاج كسرى   ولم يفـتح من افـريقـيـا دكـان
كـان إذا تذكـر لـه كـره ذكـرا   ويقـول اسـمـهـا يفـرق الإخـوان
هذا الفـاروق زمـرد الأكـوان   صـرح فى افريقـيـا بذا التصـريح
وبقت حـمى إلـى زمن عـثـمـان   وفـتحـهـا ابن الزبيـر عن تصحـيح
لما دخلـت غنايمـهـا الـديوان   مـات عثـمان وانـقلب علينا الريح
وافـتـرق النـاس على ثلاث أمـرا   وبقى مـا هو السكوت عنو إيمـان
إذا كـان ذا فـى مـدة البـررا   إيش نعـمل فى أواخـر الأزمـان
وأصـحاب الجـفـر فى كـتيـبـاتا   وفى تاريـخ كَـاتْبـا وكـيـوانا
تذكـر فى صـحـفـهـا وأبيـاتا   شـق وسطـيح وابـن مـرانـا
ابن مـرين إذا انكـبت برايـاتا   لجـدار تونس فـقـد سـقط شـانا
قـد ذكـرنا مـا قـال سـيـد الوزرا   عـيسى بـن الحسن الرفـيع الشـان

قـــال لى رينـا وانا بهـــا أدرى لكن إذا جاء القضا عمت الأجفان
ويقـــول لك مـــا رمى المـرينيـــا من حـضرة فاس إلى عـرب دياب
راد المولى يـمــوت أبو يحـــيى سلطان تـونس وصـاحـب العناب
ولقـــد كـــان قـبـل ذا الأشـيـــا جـعل اولاد أبو الحـــسن أنسـاب

ثم أخذ فى ترحيل السلـطان وجيوشه إلى آخر رحلتـه ومنتهى أمره مع أعراب إفريقية وأتى فيها بكل غريبة من الإبداع.

وأما أهل تونس فاستحدثوا فن الملعبـة أيضًا على لغتهم الحضرية إلى أن أكثره ردىء ولـم يعلق بمحفوظى [منه شىء](١) لرداءته.

وكان لعامة بغداد أيضًا فن من الشعر يسمونه المواليا، وتحته فنون كثيرة، يسمون منهـا القوما، وكان وكـان، و[منه مفرد ومنه فى بيتـين ويسمونه](١) دوبيت، على اخـتلاف الموازين المعتـبرة عندهم فى كل واحـد منها، وغـالبا مزدوجة من أربعة أغـصان، وتبعهم فى ذلك أهل مصر والقـاهرة، وأتوا فيها بالغرائب، وتجاروا فـيها بأساليب البلاغـة، بمقتضى لغتهم الحضـرية، فجاءوا بالعجائب.

ورأيت فى ديوان الصفـى الحلى من كلامه أن المواليـا من بحر البـسيط وهو ذو أربعة أغصان وأربع قواف يسمى صوتا وبيتين وأنه من مخترعات أهل واسط وأن كان وكـان فى قافـية واحدة وأوزان مـختلفـة فى أشطاره والشطر الأول من البيـت أطول من الشطر الثانى ولا تكون قـافيتـه إلاّ مردفـة بحرف العلة وأنه من مخترعات البغداديين وأنشد فيه.

---

(١) التكملة عن ابن خلدون.

ثم ذكر ابن خلدون عدة مقطعات من المواليا ومنها[1]:

ناديتـها ومـشـيبى قـد طوانى طى   جودى على مقبله فى الهوى يا مى
قالت وقد تركت داخل فؤادى كى   ما ظن القطن يغـشى فم من هو حى

ومنها:

يا حادى العيس ازجـر بالمطايا زجر   وقف على منزل أحبابى قبيل الفجر[2]
وصح فى حيهم ما من يريد الأجر   ينهض يصلى على ميت قتـيل الهجر

ومنها:

عينى التى كنت أرعـاكم بها باتت   ترعى النجوم وبالتسهـيد اقتاتت[3]
وأسـهم البين صـابتنى ولا فـاتت   وسلوتى -عظم الله أجركم- ماتت

ثم قال: ومن الذى يسمونه ذو بيت:

قـد أقـسم من أحـبـه بـالبـارى   أن يبـعث طيـفـه مع الأسـحـار
يا نار أشـــواقى به فـــاتـقــدى   ليـــلا عـــســاه يهــتـدى بـالنار

واعلم أن الذوق من معرفة البلاغة منها كلها إنما يحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبـته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه فى اللغة العربيـة فلا يشعر الأندلسى بالبلاغة التى فى شـعر أهل المغرب ولا المغربى بالبلاغة التى فى شعر أهل الأندلس والمشرق ولا المشرقى بالبلاغة التى

---

(١) ابن خلدون، المقدمة ص ٥٣٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة ص ٥٣٣.

(٣) ابن خلدون، المقدمة ص ٥٣٣.

(٤) ابن خلدون، المقدمة ص ٥٣٤.

فى شعر أهل الأندلس والمغـرب لأن اللسان الحضرى وتركيـبته مختلفـة فيهم وكل واحد منهم مدرك بلاغـة لغته وذائق محاسن الـشعر من أهل بلدته وفى خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات للعالمين.

انتهى كلام ابن خلدون فى ديوان العبر ببعض الاختصار.

قلت: كأن بمنتـقد ليس له خبـره يسدد سهـام الاعتراض ويتولى كـبره ويقول: ما لنا وإدخـال الهزل فى معرض الجد الـصراح؟ والذى أحوجنا إلى ذكر هذا المنحى والأليق طرحه كل الاطراح؟ فنقول فى جوابه على الإنصاف:

لم تزل كتب الأعـلام مشحونة بمثل هذه الأوصاف وليـس مرادهم إيثار الهزل على غيره، وإنما ذلك من باب تـرويح القلب، وهو أعون على خيره، وللسلف فى مثل ذلك حكايات يطول جلبهـا، ولا يقدح ذلك فى سكينتهم، ولا يتوهم لسببه سلبها ويرحم الله تعالى عياض إذ قال:

قل للأحـبـة والحـديث شـجـون   مـا ضر أن شـاب الوقـار مجـون

الأبيات الآتية فى محلها.

وليس قصـدنا نحن بهذا، عَلِمَ الله غـرضا فاسدا، نـنفق منه فى سوق الهزل كاسـدا، وإنما غرضنا صحيح، وزنـدنا غير شحيح. علـى أن المقصود الأعظم مدح النبى ﷺ بهذه الأوزان، وكل مـا سيق وسيلة إلى ذلك مما راق أوزان.

واعلم أيهـا الناظر، أذهب الله عن ساحـتك الأشجـان، أنَّ كثـيرا من الأئمة مدحوا بذلك المبعوث رحمة إلى الإنس والجان صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاما يتضوع نشرهما فى المشارق والمغارب، ويتألق نورهما فيهتـدى به قائلهما لقضاء الأغراض والمآرب. فـمن ذلك قول بعض من كرع من منهل حبه العذب المشارب، من موشح لم أقف منه إلاَّ على قوله:

البلبل فى الرياض لما نشدا بالقول شدا
والغصن له يميل حتى سجد مما وجدا
قد مَدّ له الأكف من غير ندا يمتاح ندى
والورق شدت بصوتها الملحان دون العلق
لمّا ذكر بأطيب الألحان رب الفلق
يا أشرف مرسل به الله هدى من رام هدى
بالمدح لديك عبد وهاب غدا يرجوك غدا
يا من مديحه جلا كل صدا ممن رصدا
يا ملجأ كل خائف أو جانى بالذنب شقى
لا زال حماك روضة للجانى والمنتشق
يا عُرْبَ تهامة حماكم أربى فيه العربى
فالسعى لغير أرضكم لم يجب حث النجب
فالفضل لكم مع كمال الحسب عند النسب
من مدحكم تصرمت أحزانى والفرح بقى
عندى أبدا وفوحت أوزانى مسك العبق

ومن ذلك قول بعض العدول من أهل العصر القريب من عصرنا رحمهم الله تعالى(١):

يا عُرَيْبَ الحىّ من حى الحمى أنتم عيدى وأنتم عرسى

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٦٢.

لم يحـل عنك ودادى بعـــدمـــا   حلـت لا وحـــيـــــاة الأنـفس

من عـذيرى فى الـذى أحببـتـه   ملك الـقلب شـــديد الـبـــرحـــا

بدر تم أرسـلت مــــــقلـتـــه   ســـهم لحظ لفـــؤادى جـــرحـــا

إن تبـــــدى أو تـثنى خـلتـــه   غـصن بان فـوقه شـمس ضـحى

تطلع الـشـمس عـــشـاء عنـدمـا   تتـــــحـلى منه أبـهى مـلبـس

وترى اللـيل أضــاء منـهــزمــا   وترى الصـــبح أضـاء فـى الغلس

يا حـيـاة النفـس صل بعـد النوى   وألهـــا مـضنى شـــديد الشـــغف

قـد براه السـقم حتى ذا الهـوى   كـــاد أن يـفــضى بـه للتـلف

آه من ذكـــرى حـــبيب باللوى   وزمــــان بالمنى لم يـســـعف

كنت أرجـــو الطيف يأتى حلـمـا   عـــائدا يا نفـس من ذا فَـــا يأْسى

هل يعـود الطيف الصـبا مـغرمـا   ســاهـرا أجـــفــــانه لم تنـعس

هـمـت فـى أطلال لـيـلـى وأنـا   لـيس فـى الأطـلال لى مـن أرب

مـــا مـــرادى رامــــة والمنحى   لا ولا ليلـى وســـعـــدى مطـلبى

إنما ســـؤلى وقـــصـــدى والمنى   ســيـــد العـــجـم وتاج العـــرب

[أحــمـد المخـتـار طه من سـمـا   الشـريف ابن الشـريف الكيس][1]

خـــاتم الرسـل الكريم المنتـــمى   طـاهـر الأصـل زكـى الـنـفـس

ولم أقف من هذه الموشحة على غير هذا القدر، وهو عجيب، عارض موشحتى ابن سهل وابن الخطيب السابقتى الذكر.

(١) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب ج٧ ص ٦٣.

ومن ذلك جملة موشحات، انتقيتها من كلام الشيخ الإمام الصالح الزكى الصوفى، أبى عبد الله محمّد بن أحمد بن الصباغ الجذامى، وقد ألف ذلك بعض الأئمة فى تأليف رفعه للسلطان المرتضى صاحب مراكش، وأطال فيه من موشحات هذا الشيخ وسائر نظمه، ولم أذكر من موشحاته إلاّ الغرر، على أنها كلها غرر، فمن ذلك قوله رحمه الله:

ألف المضنى الشجونا وارتضى الأحزان دينا
فوق صفح الوجنتين أهمل الدمع الهتونا
يقطع الأيام حزنا وبكاء وعويلا
فارحموا صبا معنى قلبه يذكى غليلا
ملهب الأحشاء مضنى بالنوى أضحى عليلا
ذاب شوقا وحنينا وسقاما وأنينا
يا له من حلف بين يرتضى فيك المنونا
أترى عهدا تقضى منكم هل لى يعود
فمتى عنى ترضى قد بَرَى جسمى الصدود
لم أطق والله نهضا فبحق الحق جودوا
وارحموا صبا مهينا كم شكى البين سنينا
وشئون المقلتين تسكب الدمع المعينا
قد ذوى غصن الشباب ومضى عمرى وولى
آن لى وقت الإياب كم أسلى النفس جهلا

هذه عـــرس المتـــاب   فى قـبــاب الوصـل تجلى

حـــسنوا فـيـهـا الـظنونا   وادخـلـوهـا آمـنـيـنـا

قـــد وصلـنا كـل بيـن   وعـــفـــونا ورضـــينا

نحــــو هـاتيـك الربـوع   فـاجـهـدوا كـد الحـمـول

وإلى قـبــر الـشـفـيع   أعــملوا سيـر الرحـيل

إن تكـن خلى مـطيـــعى   يَمِّــمَنْ خــيــر رســول

كن لـى يا رب مـــعـــينا   وصل الـصب الحـــزيـنا

قــبل أن يحــين حـينى   وأرى المـوت يقـــــينـا

نم ريحـــان التـــدانى   وســرت ريح الوصـــال

قـد صــفـا ورد الأمـانى   فـانتــهض نحـو المـعـالى

صـــاح كم هذا الـتـوانى   فـاسـتـمـع عـذب المقـال

وبـلـيـنـا وابـتـلـيـنـا   وِاشْ يقــول النـاس فـينا

قم بـنا يـا نور عـــيـنى   نجـــعـل الشك يـقـــينا

وقوله فى التشوق إلى مكة وطيبة، على ساكنها الصلاة والسلام:

زهر شـــيب المـفـــارق   تفـتــحت عنـه الكمـام

فــابك الـزمـان المفـارق   وحـاك فى النـوح الحـمـام

عـوضت بالصـبح الأصـيل   وقـد عـرا البـدر انكسـاف

ألم بـالغـــصن الـذبول   وكـــان لدنـا ذا انعـطاف

ريح الصبـــا كـــان تميل كأن سـقى صرف الـسلاف

حـــتى رمى القلـب راشق وفـــوقت نحـــو السـهـــام

ولســـــان الحـــال نـاطق يخـــبـــرنى أن لا دوام

يا بـدر أيام الشـــبـــاب هل للأفـــول منك طـلوع

أضـحى فـــؤادى ذا المذاب حليـف أشـجـــان فـــزوع

ونار حـــزنى فى ألتـــهـاب تـذكى بـأحـنـاء الضـلـوع

فـإن هـفـا البـرق خـــافق ذكـرت عـهـــدى بالخـيـام

وإن تـأوه عـــــــــاشـق ساجلـت فى دمعى الغـمام

ولى الشـبـــاب وانقـــضى فـدمع عـينـى فى انهـمـال

وفى الحـشى جمـر الغضـا لفـــقـــد هاتيك الـليـــال

يا عـــهـــد أيام الـرضـــا هل رَجْـعَـةٌ تُدْنى الوصـال

تحـيـــا بهـــا نـفس وامق مـضنى الفـؤاد مسـتـهـام

نحـــو العـــذيـب وبارق يحـــدو به حـادى الغـــرام

يهـيـــجـــه لمع البـــوارق من طيـــبـة حـــين تشـــام

فـــإن تـعـــقنى العـــوائق ألصـــقت خـدى بالـرغـام

يـا دار هـل يـــدنـو المزار فـيـعـقب الليـل الصبـاح

لهـــفى علـى بعـــد الديار وقـص أريـــاش الجـنــاح

مـــتى أرى أحـــدو الـقطار فـــقـــد برانى الانـتـــزاح

أشـــدو المطايا الســـوابق مـــزمـــزمـــا عنـد المقـــام
ثغـــــر الزمـــان المـوافق حـــيـــاك منه بــابتـــســـام

وقوله رحمه الله:

رســـــــوم ظـــاهر الـبلـى بـكل رسـم طاسـمْ عنـوانْ
وربعــــــهم مـــا أشـكلا منهـــا لك حـازم تبــيـان
قف بالـديار واعـــتـــبـــر إن كنت مـن أهل العـــبـــر
وانظـر لهــــا وازدجـــر فـــإنَّ فـــيـــهـــا الأجـــر
كم مـــــعلـم قـــد دثر فـــلـم يـــبن مـــنــه أثـــر
تبـكيــــه ورق الـفـــــلا وفى بُكَا الحـمـام أشـجـان
فلـنـنتـــــدب إلى الـطلا فـفى فـؤاد الهـائم أحـزان
ســـمـــاعـــا من الوجـــود عنه تـفـــاهم العـــقـــول
فـــغـــيــبـيـــة وشــهـــود كـــلاهمـــا عـــين الـدليل
حـــتـى مـــتى يا مــــريد تخـتــال فى ثوب الخـمـول
تـشـكـــو لـنـــا الـعـــلـلا وأنت بـالمآثـم جــــــذلان
فلـذ بعـــــز الـعــــــلا فـــعندنا للنـادم إحـــســـان
فـنـــاء أهـل الــطـريـق هـو الوجــــود المـطلـق
فكـل مـــعـنى دقـــيق بوصـــــفـــهم يـحـــقق
أنـوارهم فـى شـــــريـق بهـــا اسـتـــضــا الموفق

قد أوضحوا السُّبُلا فهم لنا فى العالم برهان
فاجنح إليهم ولا تُغْفِل للمواسم إبان
يا ناسيا لوصلنا أيقظ من النوم الجفون
سلم إلينا فعلنا ما كان منه أو يكون
لا حول إلا حولنا فانف الشكوك والظنون
يا غادرا قد سلا أقصر فليس يجمل سلوانْ
لله ما أجملا من بات وهو بالهوى نشوان
يا طالبا للندى يبغى السماحة والنوال
يمم - فديت - أحمدا بدر العلا شمس الكمال
وعد عمن شدا واستغرق المدح وقال:
إن جئت أرض سلا تلقاك بالمكارم فتيان
هم سطور العلا ويوسف بن القاسم عنوان

وقوله رحمه الله:

بأرض طيبة معهد شوقى إليه مجدد
هل لى بتلك الطلول
من زورة ومقيل
يا قبر خير رسول
متى يراك فيسعد صب ببعدك مكمد

مذ قد براه انتزاح
وقص منه الجناح
له إليك ارتياح
بالغرب أضحى مقيد   والضعف والشيب يشهد

ربع التواصل أقوى
فمن على الهجر يقوى
قد صير الجسم نضوا
سهم بعاد مسدد   لقد رمانى فأقصد

متى يتاح التدانى
لمكمد القلب عانى
يشدو بكل لسان
عسى الذى كنت أعهد   مما تقضى يجدد

يا بغيتى يا مرادى
أشكوك فرط بعادى
فى كل وادٍ أنادى:
مالى غيرك مقصد   فكيف بالهجر أقصد

فوضت أمرى إليكا
فذاك وقف عليكا

مـــالـى شـــفـــيع لـديكا

إلاّ بكـائى ســــرمـــــد   فمن عـلى الحزن[1] يسـعد

بى فـــافـــعـل مـــا تشـــا

أضـــحى لى منك الرجـــا

فـــــكـــــل داء دوا

وكل رأيـى مـــســـدد   وكل أمــــر مـــرشـــد

وقوله رحمه الله:

قـم وناج الله فـى داجى الـغلـس   تنـتـــشى الأرواح

والتـمس للعـــفـو فيـه ملتـمس   وانتـــبـه قـد فـــاح

عـرف أزهار الرضـا ثـم اقـتبس   نــور رشــــد لاح

وانتـشق يا صـاح أرواح السـحـر   يا لهـــا مـــشـمـــوم

عـــرفـــه إن هب فى إثـر الزهر   ينـعش المـزكــــوم

مـــرغ الخـــد ونادى بالـنحـــيب   واهمـل الأجـــفـــان

قف بمغناهـم وقـوف مـسـتـريب   حـــالف الأشـــجـــان

واشك إن وافقـت إصغاء الطـبيب   علـة الهـــــجـــران

فـعـــسى بالوصل تحـيـى مـا دثر   ويطـيب الـنعــــيم

فـالنوى مـــا إن عليـه مـصـطبـر   والبــــعـــــاد ألـيم

يا رحـيم الخلـق رحـمـاك فـقـد   جـئت مـغنى رحـيب

(١) فى سائر الأصول: «الحسن» ولعل ما أثبتناه أولى.

ليس لـلعـبـــد على النـار جلد وهو عــبـد مـريب

عـبـد سـوء لحمـاك قـد قـصـد يشـــتكى بالـذنوب

من لـه يوم تـرامى بـالشـــرر زفـرات الجـحـيم

فـيـهاب الخـلق من خيـر البـشـر عـافـنى يا رحـيم

أنا مـا بين مـقـامين مـقـيم أورثانـى شـجـا

فى فـؤادى من دمـوعـى كلوم قـلمـا ترتجـى

واعـتــلاقى بـجناب الكـريم مـشـعـر بالنجـا

هأنا فـى الحـالتـين فى خـطر والـفـؤاد سـليم

سلك التـوحـيـد فـيـه بـالنظر سـبـل نهج قـويم

أحليف الحـزن تشكـو بالعـبـاد لـذ بمجـد أثيـل

فى قـبـاب المجـد تحـظى بالمراد حـيث حـل الرسـول

عنده يـشـفى صـداه الـفـؤاد واسـألن مـن يقـول:

«ليتنـى رملـة الحَرَّهْ»

وقوله رحمه الله:

نـأت بـى الأوطـان عن حـضرة الإحسان ولا مـعـين

فـمن لـذى أحـزان لطيـبـة قـد كـان لـه حـنـين

شـطـت بـى الـدار فـيـا شـوقـاه لـيـثـرب

أحـبـابه سـاروا والبـين أقـصـاه بـالمغـرب

فـى قلبـــــه نـار | تذكـــيـــه أمـــراه | فلـتـــعـــجب
لو ســابق الإخــوان | فى ذلـك الميـــدان | أضـــحى مكـيـن
فـحـالـف الأشـجـان | واصحب مع الأحـيان | قلـبـــا حـــزين
للـمـــورد العـــذب | والمنـهـل السـلـسـل | شـــدوا الرحـــيل
فـيــا ظمـا قـلبى | لــذلــك المـنـهــل | هل مـن مـــقـــيل
بســاحـــة القـــرب | فـيـبـرد السلسل | حـــــر الـغـليـل
إنَّ أمـكـن الإمـكـان | أنْ يكـرع الظمـــآن | مـن المعـــيـن
فى مـشرب الرضـوان | فـذاك ســعــد دان | لـــلـــرائـــديـــن
يا حـــادى الظـعن | وســـائـق الركـب | إلى الـعـــقـــيق
أســفـت للبــين | فـــهل إلى القــرب | يـلـــفـى طـريـق
مـــتـى النوى تـدنى | من مطـلع الشـــهب | قلـبـــا خـــفـــوق
فـيـثـــرب بسـتـــان | للـروح والريحـــان | فـــيـــه فنـون
ودوحــــه المـزدان | تحـيـــا به الأكـــوان | فـى كل حـــيـن
يا خـــيـر مـــرسـول | للحـــر والعـــبــد | بالمـعـــجـــزات
نداء مـــخـــبـــول | نادى عـلى بـعـــد | خـــوف الممـــات
أنتـم منـى ســـولى | وأنتم قـــصـــمـدى | ولى صـــفـــات
تمجـــهــــا الآذان | وتقـتـضى الهـجـران | فـــمـــا يـكون
من ذى شـجونٍ عـان | يحـكى بدوح البـــان | شـــادى الغـــصـــون

يا صاح والقصد أنْ يظفر الأواه بقصده
إنَّ شفك البعد فثق بعفو الله عن عبده
ودع فتى يشدو واللهو قد ألهاه عن رشده
جنان يا جنان اِجْنِ من البستان الياسمين
وخل الريحان بحرمة الرحمن للعاشقين

وقوله رحمه الله تعالى:

لأحمد المصطفى مقام
جل علا فلا يرام
بنوره يهتدى الأنام
فأى شمس وأى بدر قد أطلعته لنا السعود
بنوره تشرق الشموس
فى حبه تخلع النفوس
يأيّها المسمع الرئيس
أدر علينا كئوس فخر من ذكره تعط ما تريد
أمدح خير الورى نعيم
نحن أناس بها نهيم
يا مادحيه بالله قوموا
خوضوا بنا موج بحر فخر من مات فيه فهو شهيد

الشطح فى حله مباح

ونحن قوم لنا ارتياح

قلوبنا حشوها جراح

من نأى مغناه ليت شعرى   متى يرى قبره العميد

إنْ سمح الدهر بالوصول

لقبر خير الورى الرسول

السيد الأرفع الجليل

فثم نخلع ثياب طهر   وتوفى روحى لمن تريد

وقوله أيضًا:

لهفى على عمرى مضى   والشيب فى الفود بدا   وما قضيت الغرضا

أيام ريعان الشباب   ولت ولم تنو الإياب

فنار حزنى فى التهاب   ودمع عينى فى انسكاب

يا عهد أيام الرضا   هل رجعة تشفى الصدى   حقا وتبقى المْرَضَا

إنْ كنت من أهل الصفا   دع عنك أوصاف الجفا

واذكر لرسم قد عفا   وهِمْ بمدح المصطفى

الهاشمى المرتضى   تاج العلا شمس الهدى   لا تبغ منه عوضا

وشم ربوعا للحبيب   وانزل بمغناه الرحيب

ولذ بمرعاه الخصيب   فهو لما تشكو الطبيب

ناد به معرضا هل تقبلون مكمدا قد كان عنكم اعرضا

رمت فؤادى النوى وغصن عمرى قد ذوى
والشوق قلبى قد كوى واهًا على فقدى القوى
قضى النوى ما قد قضى هل يستطيع الجلدا قلب على جمر الغضى

لقد تناءت الديار وشط بى عنها المزار
لو كان لى حكم اختيار ما قر بى عنها قرار
ما شاءه حكم القضا يجرى ولو طال المدى فلا تكن معترضا

وقوله رحمه الله:

أطلع الصبح راية الفجر فتبدى المكتوم من سرى
إنْ تكن باحثا عن الأسرار فانتشق صاح نفحة الأسحار
وأطل فى الأصائل الأذكار فهى أذكى من عاطر الأزهار
أين طيب المسك شذا الزهر فى دجى الليل من شذا الذكر

آه من أدمعى ومن حزنى فجعة البين كم ترى تضنى
جسم مشتاق دمى الجفن يا عذولى عليهم عنى
عبراتى تنهل كالقطر وفؤادى يذكى على الجمر

شفنى الوجد فاجبروا صدعى يوم بنتم عن ساحتى سلع
خدد الخد ساكب الدمع إنْ تعودوا متيم الجزع
بدل العسر منه باليسر وأتته السعود بالبشر

ليس للعبد منكم بُدٌّ   قد براني وشفني البعد
من لصب أذابه الوجد   بات في دوح حزنه يشدو
في هواكم لقد فنى عمرى   فالطفوا بى وأمنوا ذعرى
سيدى أنت ملجأ الصب   فَأَجِرْ مِنْ ضنى النوى قلبى
إنْ تكن لى أو إنْ تكن حَسْبِى   فيك أشدو مقال ذى عجب
جرر الذليل أيما جر   وصل الشكر منك بالشكر

وقوله رحمه الله تعالى:

لأحمد بهجهْ   كالقمر الزاهر   فى أبراج السعد
علاؤها يسبى   بنوره الباهر   كل سنى مجد
فى عالم القدس   قدس علياه   ففاق فى الحمد
بالبدر والشمس   يزرى محياه   فجل عن ند
للجن والإنس   أرسله الله   يهدى إلى الرشد
أذل بالحجهْ   وأمره الظاهر   من خان للعهد
بالشرق والغرب   ثناؤه العاطر   أندى من الند
يا خير مرسول   من خيرة الخلق   أذابنى البعد
إليك يا سُولِى   قد قادنى شوقى   فكم أرى أشدو
بصوت مخبول   حكى غنا ورق   هيجا الوجد
غرقت فى لجهْ   وليس لى ناصر   على جوى البعد

إلا يا حـــــــبى وأدمــع الــنـــاظــر تـنهـل فى الخـــــــد
إنَّ عـــــاقـنى ذنـبى عــن ذلـك المــغـنـى فلـيس لـى حـــــول
وكـــيف بالقـــرب للـهـــــائـم المُضْـنَى وبـينـنـا ســــــبل
تـذيـــب بـالــكـرب جـسـمـا ذوى حـزنًا وشـــفــه الخــــبل
إلـيكـم وجـــــــه وجـهـــا غـدا حـــائر والدمـع فى الخـــــد
ينهـل كــالســحب وزفـــرة الخـــاطر تـلهـب بالـوقـــــد
يا ســـامع الـنجــوى إلـيك أوصــــابـى تشـكو بـأوجـــــالى
تركــــتنى نـضـــوا ألـوذ بالبـــــــاب مــــقـــسم البـــال
إنْ كـــان بـالبـلوى لطـول أغـــيـــابى أســــأتم حـــــالى
فــــقـلبكـم رَجَّـــهْ بهـــا أرى حـــاســـر إنْ لـم تـكـن نـدى
أعـــــــوذ بالحـب من أمـــرك الآمـــر بالبـعــد لـلعـبـد
بحـب من تحـــــدى لقـــبــره النـجب الســـيــد الطـاهر
هم دائـمــا وجـــدًا يـأيّهــــــا الصـب وعـــد عن خـــاطر
من قـــــال إذ أودى بـقلبـــــه الحـب قـــولا غـــد ســائر
بدائع الـبـــهـــجـــهْ ونــزهـة الـنـاظـر وجـنـة الخـــلـــد
وبغـــيـــة القـلب وراحـــة الخــــاطر فـى ذلك الخـــــد

وقوله، رحمه الله تعالى:

لأحـمـد تعنو الأقـمـار فـعـدد فـخـاره
وانظـم ثناه أشـعـار ولازم وقـاره
لأحـمـد بـدر الأفق وشـمس المـعـالى
تـأجج نـار الـشـوق وكـيف احتـيـالى
لئـن فـاز أهـل السـبق بذاك الـكـمـال
وحلـوا بهـاتيـك الدار وحـازوا جـواره
فـفـى القلب نـار الأفكار قـد أذكت أواره
حـادى الـركب بلغ عـنى سـلامـا كـثيـراً
وقل مـغـرم ذو حـزن قد أضـحى أسـيرا
أصـمـتـه سـهـام الـبـين لم يلف نصـيـرا
وقـد أبـعـدته الأقـدار والحـزن أثاره
فى الـقلب تـنائى الأقـطار يضـرم نـاره
إذا لاح لمـع البـرق من اكنـاف نجـد
دعـانـى إليـه شـوقى وإفـراط وجـدى
إلى قـبـر خـيـر الخلق سـأجهـد جهـدى
لعـلى أقـضـى الأوطار وأعطـى مـزاره
فـعنـى تمحـى الأوزار إذا زرت داره

يا حـــادى شـوقى زمــزم بذكــر الحبــيب
يا حـــر وجـــدى ضــرم نيــران الوجــيب
يــا دمع عـــــينى ارقـم بخــد الكـثـيب
رســـوم سطور التـــذكـار لــربـــع أنــاره
سنا نـور وجـه المخـتـــار قــد أعلـى مناره
أيا رب بـالمخـــــتـــــار والصحب الكرام
قـــرب قـــرب نـائى الدار من ذلـك المقـــام
واغـفـر قـــول ذى إصـرار غنـى فى هيـــام
مـن يـرونى دار الـعـطـار بـــذرا المـــنـــاره
ثيـــابى ومـا تَحْـسوِى الدار نعطـه البــشــاره

وقوله رحمه الله تعالى:

آه من فـــرط الوجــيب أورثت قـلبى خــبـــلا
زفــرات شـــوق مــدنف منـكم لم يـعط وصــــلا
قـــد أذابتـــه الشـــجـــون والـــبـــكـــاء والأنـــيـــن
نـحـــــوكـم له حـنيـن أبـــدا بـــه يـــديـــن
دمع خـــديه الهـــتـــون دمــيــت منه الجـــفـــون
يا ســـقــامى يــا طبيـــبى عــــفـــــوكم عنـى أولى
لم تــزل باللـطف تـوصف فـــأنل عـبــدك فـضـــلا

لم تـزل بى فى أمــــورى سـيـدى مـــولى لطيـفــا
أنت مـــولاى نصـــيـرى فـاجبـر العـبد الضـعـيفـا
من عـذيرى أو مــجـيـرى إن أطلت بـى الوقــوفــا
يا ليـــومى العــصـــيب وســجل الصــحف يـتلى
وقـلـوب الخلـق تـرجـف ولنـار الخـــــوف تصـلى
بـالـــنبـى بـالــعـلـــى بالرفـــيع القـــدر أحـمــد
وعــــتـــــيق الـرضى وأبى حـــفص المـمــجــد
والشـــهــــيـــد وعـلى غــــرر الفـــجــر المـؤبد
نحـو سـاحــات الحـبـيب فلتـــيــــســـر لى سـبــلا
فـمــتى بالقــرب أسـعـف أو أرى لــــذاك أهـــــلا
يا حـــداة العـــيـس عنى فــاحـملوا نـحـو العـقـيق
أســـفى وطـول حـــزنى وبكـائى وشـــهــــيـــقى
علـنى بــالخـــيـف أجـنى زهـر إبان الـلحـــــوق
هل لـصـب من نـصـــيب فـيـعـود الـهـجـر وصـلا
يا زمـــان القــــرب اِعْطِفْ وأنل مــضـناك شـــمـــلا
سـيــدى قـد ذبت حـــزنا لا تخـيـب فـــيك قـصـدى
وأنلـنى مـنك حـــســـنى قـــد بـرانى طول بعــــدى
واغــــتـفـــر قـــول مــعنًّى هائمـــا يشكو بـوجــدى

يا فـلان إنَّ زرت حِـبِّى ... اِفْـتِل اذنو وبـالرسـيـلا

ليش أخـذ عنـق الخـشـيف ... وسـرق فم الحـجـيـلا

انتهى ما قصدته من موشحة هذا الشيخ النبوية.

وأما نظمه فى غير الموشحات، فمنه قوله رحمه الله:

هب النسيم بـطيب ذكـر الهـادى ... فـتـأرجت نفـحـات عـرف النادى

يا شـادِيا يشـدو بمدح مـحـمّـد ... كـرر فـديتك مـدحـه يا شـادى

كـرر على الأسمـاع ذكر مـحمّـد ... فلـذكـره برد عـلى الأكـبـاد

وأعـد علينا نظم فـخـر هلال من ... بهـر الورى مـن حـاضـر أو بادى

هو ذروة المجـد الأثيـل وقطبـه ... هو صـفـوة الأشـراف والأمـجـاد

هو بحـر جود فـاض عـذب نواله ... وصـفـت مـوارده لـدى الوراد

هو خـيـر خلق الله والمختـار من ... أعـلى نجـار جـل عن أنـداد

هو منتـهى أملى وملجـأ مفـزعى ... هو شـمس إيمـانى وبدر رشـادى

هو عـصـمتـى مما أخاف وحـبـه ... يوم القـيـامـة للخطوب عـمـادى

إشـراق كل الـنيـرات وحـسـنهـا ... من نور حـسن شـهـابـه الوقـاد

لا تعـجـبـوا فعنايـة المختـار قـد ... خـرقت قيـاس العـقل فى المعتـاد

شـوقى إلى ذاك المـقـام أثاره ... حـزن تلهب لفـحـه بفـؤادى

يا ويح مكتـئب ومـا قـد شـفـه ... من فـرط أحـزان وطول بعـاد

كم رام قـرب الدار مـن أحـبـابه ... لو أسـعف المقـدور بالإسـعـاد

كم رام أن يشفى بزورته ظَما | قلب إلى تلك المعاهد صادى
أيام أطلع بدر حسن شبابه | من فوق ناعم غصنه المياد
فالآن قد لعبت به أيامه | وعدت عليه للمشيب عوادى
شيب وضعف وانتزاح مواطن | فمتى الدهر نيل مرادى
لهفى على عمر تصرم وانقضى | أفنيت فيه طارفى وتلادى
فلأنزحن مدافعى أسفا على | ما قدمته يدى ليوم معادى
يا حادى الأضعان يأمل طيبةً | اقصص فديتك قصتى يا حادى
وانزل بهاتيك الربوع وقف على | نادى الندامى إن عرضت وناد:
هذا أسير بعادكم أجفانه | تجلى بفيض الدمع سحب عهاد
فمتى على بعد الديار وشحطها | يحظى بوصلكم حلف سهاد
فعليكم منى سلام طيب | ما ناح غريد بسرحة وادى

وقوله رحمه الله:

سأنظم من فخر النبى محمّد | لآلئَ لا يبلى جديد نظامها
تضوع طيبا عرفها فكأنه | تضوع أزهار بدت من كمامها
سجايا أبت إلاّ السماكين منزلا | ففاق على العلياء علق مقامها
خلال إذا لاحت قباب لدى علا | تنيف فتعلوها قباب خيامها
إذا يمموا يوما إمام مكارم | فأحمد قد أضحى إمام إمامها
فكم ذو علا أو ما لدرك مقامها | فمر ولم يدرك مرامى مرامها

وكم ظامِئٍ قــد رام يروى بريهــا فــآب وقد أضـحى عليـل أوامهـا
لذاك العـلا قلبى مشـوق بحبـهم وقد شـوقت نفسى بطول مـقامـها
فلله عــيـــن لا تمـل بكـــاءها وقــد حـرمت فـيـه لذيذ منامـهـا
ونفس علـى بعـد الدار قـــريحـة تطارح فى البلوى حمـام حمامـها
وعـمر مـضت أيام شـرخ شبـابه وَقَدْ قَدَّ صرف الدهر غـصن قوامها
فيا نسمة الأسـحار من نحو يثرب ألمى بنفس قـــد ذوت بضـرامـهـا
ويا حـادى الأظعان نحـو قبـابهم ألاَ فاخصص العليـا بطيب سلامها

ومن ذلك قوله رحمه الله مخمسا شعرا لغيره:

ألا هل إلى وادى العـقـيق طريق
فـقد هاج شـوقـا للديار مشـوق
يقـول وفى الأكـباد منـه خفـوق
دموعى على وادى العـقيق عـقيق ولى زفــرة تحـدو بـهـا وتســوق
إذا مـا حدا فى ظلمـة الليل دالج
تحـركنـى نحـو العـقــيق لواعج
وعندى من الشـــوق المبـرح هائج
وفى كبـدى من لوعة البـين لاعج يهــيج بهـــا بين الضلوع حـــريق
وَلَمَّا جرت بى نحو طيـبة أسعدى
وبلغت آمـالى وأوتيت مـقصـدى

وأوردنى التـوفـيق أعظـم مـورد

نظرت فـقالوا إنَّ ذا قـبـر أحمـد   وذاك أبو حــفص وذاك عــتــيق

فـما ذاك إلاّ أننى شـممت بارقـا

ففت الجـوى منى ضلوعا خوافـقا

وأبديت وجـدا للـعـوائد خـارقـا

فمـا ملكت عينى دمـوعا سـوابقا   ولا هدأت لى زفـرة وشــهــيق

بذكـرك يا خـيــر الأنام تلذذى

وباسمك من خطب البـعاد تعوذى

وما زال قلبى بامـتداحك يَغْـتَذِى

ألا يا رسـول الله حـبـك منقـذى   وإنى لفـى بحــر الذنوب غــريق

عليك مدى الأحيـان تنهل أدمعى

وفيك وإن أبعدت مـا زال مطمعى

شــفـيــعى حــبى للنبـى المرفع

وهل تحـرقن النار قلـبى وأضلعى   وحـسبك فـى قلبى وأنـت رفــيق

ثناؤك ريحـانى ومـسـكى ومندلى

عليك رســول الله كل مـعــولى

حنانـيك للقلـب المتـيم فــابذل

فكم فـيه من مـثقـال حبـة خردل   وربك بالوعــد الكريـم حـقــيق

قلت: ولنجعل آخر ما أوردناه من أمداحه النبوية قوله:

تركت امتداح العالمين ولذت من　　مدائح خير الخلق بالعروة الوثقى
سأجعلها كهفى وحصنى وملجئى　　لعلى بالأمداح أستوجب العتقا

نسأل الله بجاه هذا النبى الشرف القدر العظيم المزية أن يعتقنا من النار ويجيرنا فى الدنيا والآخرة من كل مصيبة ورزية وأن يسهل علينا زيارته العظيمة البركات وأن يلطف بنا فى السكنات والحركات.

* * *

وقد عن لى لمّا ذكرت كلام ابن خلدون فى الموشحات أن أذكر كلام الإمام ابن خاتمة.

قال رحمه الله تعالى فى كتابه «مزية ألمرية» فى باب محمّد ما نصه:

«محمّد بن عبادة يكنى أبا بكر ويعرف بالقزاز، وأحسبه من أهل مالقة، كان من صدور الأدباء، ومشاهير الشعراء والألباء، وممن له باع فسيح، فى طريقة التوشيح، حتى طار اسمه فيها كل مطار، واشتهر بها نظمه أى اشتهار. وهذه الطريقة من مخترعات أهل الأندلس، ومبتدعاتهم الآخذة بالأنفس، هم الذين نهجوا سبيلها ووضعوا محصولها.

قال أبو الحسن بن بسام: وأوّل من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغنى محمّد بن محمود القبرى الضرير، وكان يصنعها على أعاريض أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة، غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامى أو العجمى، يسميه المَرْكَزْ ويضع عليه

الموشحة، من غـير تضمين فيهـا ولا أغصان. وقيل إنَّ أبا عمـر بن عبد ربه صاحب كتاب العقد هو أوّل من سبق إلى هذا النوع من الموشحات.

وحكى الكاتب أبو الحسن على بن سعيد العنسى فى كتابه «المقتطف من أزهار الطرف» أنَّ الحـجارى ذكر فـى كتابه «المسـهب فى غرائـب المغرب» أنَّ المخترع لها بجزيرة الأندلس المقدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد الله المروانى وأخـذه عنه أبو عمـر بن عبـد ربه صاحب العـقد ثم غلبـهما عـليه المتأخـرون. وأوّل من برع فيه منهم عـبادة بن القزاز شـاعر المعتـصم صاحب ألمرية.

قال الأسـتاذ أبو الحسن على بى سعـد الخير البَلَنْسِىّ فى كـتابه: «نزهة الأنفس وروضة التأنس فى توشيح أهل الأندلس» ضـمنه عشرين وشاحا على طريقاتهم فى الإجادة والإحسان.

العُباديون ثلاثة: ابن ماء السماء، وهو عـبادة بن عبد الله بن محمّد بن عبادة بن ماء السماء بن أفلح بن الحسين بن سعيد بن قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى الأنصارى، من أهل مـالقة. وعبادة بن محمّد بـن عبادة بن الأقرع ومحمّد بن عبادة القزاز هذا.

قال الأستـاذ أبو جعفر: وكـان محمّد بن عـبادة من شعراء المعـتصم، فوشحه منها بكل در منتظم، وعقـد بمعنى البلاغة والبراعة ملتم. ومن أظرف ما وقع له فى المديح من التوشيح موشحته التى أولها:

كم فى قدود البان   تحت اللمم   من أقمار   عواطى

ومن أظرف ما وقع له من خلالها من حسن الالتئام وسهولة النظام، ما يندر وجود مثله فى منثور الكلام، وذلك فى أحد مراكزها حيث يقول:

لما غـــدا قـــادرا أضـحى قليل المعـذله

يا حـــاكـمـا جـائرا قـتلت من لا ذنب له

سطوت بالهيمان ظلمـا ولم تستبصر يا ساطى

خفف سطوة الرحمن إذا حكم بين البرى والخاطى

ويخرج فى هذه الموشحة على قوله:

ما أملح المهرجان وفل ينم كالعنبر للسواطى

والفلك كالعقبان والمعتصم بالعسكر فى الشاطى

ثم قال ابن خاتمة: «ومن شعره ما أنشد أبو أحمد جعفر بن إبراهيم بن الحاج المعافرى فى كتابه محك الشعر ونسبه إليه:

أودع فـؤادى حرقا أو دع ... ذاتك تردى أنت فى أضلعى

وارم سهام اللحظ أو كفها ... أنت بما ترمى مصاب معى

موقعها قلبى وأنت الذى ... مسكنه فى ذلك الموضع

وله رحمه الله[1]:

انظر إلى البدر الذى لاح لك ... فى وسط اللجة تحت الحلك

قد جعل البحر سماء له ... واتخذ الفلك مكان الفلك

وحضر مجلس المعتصم ابن صمادح وبين أيديهم ورد مصبوب فبرز من داخل وردة منها الحيوان الأخضر الموجود فى الورد وتسميه العرب القيقزان فقال له المعتصم: صفه فقال:

---

(١) فى النفح لم ينسب له إلا الشطر الأول أما باقى الأشطر (فى وسط اللجة تحت الحلك. . . مكان الفلك) فهو لابن قابلة السبتى.

وأخضر حمادى فى الورد لائح　　على صفح ورد حسنه متناهى

كما أخذت حسناء فص زمرد　　بصفرة مسواك وحمرة شفاه

وكتب يوما إلى المعتصم وقد تأخرت صلات شعرائه:

يأيها الملك الذى حاز العلا　　معن أبوه وخاله المنصور

بفناء قصرك عصبة أدبية　　لا زال وهو بشملهم معمور

زفوا إليك بنات أفكارهم　　واستبطئوك فهم لهن قصور

انتهى كلام ابن خاتمة رحمه الله تعالى.

* * *

رجع

وحيث انتهينا إلى هذا المقدار من الخروج عن أصل الترجمة فلنثن العنان إلى ما ألمنا به أولا مع ذكر سبتة أعادها الله فنقول:

إنَّ بعض الفقهاء يذكر فى شأن سبتة حديثا عن رسول الله ﷺ قد اختلف الناس فى أمره وقد حدث به الفقيه أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن يحيى السراج، عن جده العلامة أبى زكريا السراج، قال أخبرنا أبو البركات محمّد بن إبراهيم قال: أخبرنا إبراهيم بن أحمد الغافقى، حدثنا محمّد بن عبد الله بن أحمد الأزدى، حدثنا محمّد بن حسن بن عطية، هو ابن غازى، حدثنا أبو الفضل عياض، حدثنا أحمد بن قاسم أبو العباس الصنهاجى، شيخ لا بأس به أنبأنا أبو على بن خالد، وأبو عبد الله محمّد بن عيسى قالا حدثنا عبد الله محمّد بن على بن الشيخ، حدثنا وهب بن مسرة، عن محمّد بن وضاح، عن سحنون، عن أبى القاسم، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر قال:

«مدينة بالمغرب سمعت رسول الله ﷺ يقول إنها على مجمع بحرى المغرب وهى مدينة بناها سبت بن سام بن نوح عليه السلام واشتق لها اسما من اسمه فهى سبتة ودعا لها بالبركة والنصر فلا يريد أحد بها سوءا إلاّ رد الله دائرة السوء عليه».

هكذا ذكره الشيخ الإمام الحافظ سيدى أبو عبد الله محمّد ابن الشيخ العالم الربانى، سيدى الحسن بن مخلوف التلمسانى - رحمه الله - فى شرحه للشفاء، ورواه عن شيخه أبى عبد الله السراج المذكور، بالسند المذكور، وقال إثره: تردد رأى القاضى عياض فى هذا الحديث ففى الغنية: «أنا براء من

عهدة هذا الحـديث». وفيه: «هذا حديث موضـوع. وابن الشيخ لا يتهم ولا أدرى من أين دخل عليه هذا». وفى المدارك: «هو حديث رواه ابن الشيخ عن وهب بن مسرة يرفعه إلى مالك عن نافع عن ابن عمر:

أنَّ فى أقصى المغرب على ساحل من سواحل البحـر مدينة تسمى سبتة أسسها رجل صالح اسـمه سبت واشتق لها اسما من اسمـه ودعا لها بالنصر والظفر فما رامها أحد بسوء إلاّ رد الله بأسه عليه».

وذكـر أشيـاء على من رامـها بـسوء ثم قـال: وهكذا كله يصـدق هذا الحديث. انتهى.

وكانت سـبتة مطمح همم ملوك الـعدوتين، وقد كـان للناصر المروانى صاحب الأندلس عناية واهتم بدخولها فى إيالته، حتى حصل له ذلك، ومنها مَلَكَ المغرب حسبما هو مذكـور فى أخباره، وكان تملكه إياها سنة تسع عشرة وثلاث مائة، وبها اشتد سلطانه وملك البـحر بعدوتيه، وصار المجاز فى يده، وتوطدت طاعـته بـأرض المغرب، وكـان أول من سـما إلى ذلك من أمـلاك الأندلس، منذ سكنها الإسلام، فـاستظهر بها على أمره، وخلفهـا ميراثا لمن بعده من ولاة الأندلس، وأكـرم وجوه أهل سبـتة الذين جنحوا إلى طاعـته، ورفع منازلهم، وقضى حـوائجهم، ووصلهم، وخلع عليهم وعلى قـاضيهم حسين بن فتح.

والناصـر أوّل من تسمى بأمـير المؤمـنين من بنى أميـة بالأندلس، لأن الدولة عظمت فى أيامـه حين اختل نظام ملك العـباسيـن بالمشرق، وتغلبت عليه الأعاجم، ولم يـتسم أحد من سلفه بالأندلس إلاّ بالأمـير، وكان ملكه بالأندلس فى غـاية مـا يكون من الضـخامـة ورفعـة الشـأن، وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به

من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم، إلاّ وجرت إليه، أو وفدت خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية. وقد سرد الإمام ابن حيان من ذلك فى تاريخه الكبير ما هو معلوم، وذكر هو وغيره أنَّ صاحب مدينة القسطنطينية العظمى هاداه، ورغب فى موادعته.

وكان وصول أرسال صاحب القسطنطينية عظيم الروم قسطنطين بن ليون فى شهر صفر سنة ثمان وثلاثين[1] وثلاث مئة، وتأهب الناصر لورودهم، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه، وأحسن قبول وأكرمه، وأخرج إلى لقائهم ببجانة يحيى بن محمّد بن الليث وغيره، لخدمة أسباب الطريق، فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة، خرج إلى لقائهم القواد فى العدد والعدة والتعبية، فتلقوهم قائدا بعد قائد، وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصيين: ياسرا وتماما، إبلاغا فى الاحتفاء بهم فلقياهم بعد القواد، فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم بسط الناصر وإكرامه، وأنزلوا بمنية ولى العهد الحكم، المنسوبة إلى نصر بعدوة قرطبة فى الربض، ومنعوا وحموا من لقاء الخاصة والعامة، وملابسة الناس جملة، ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالى ووجه الحشم، فصيروا على باب قصر هذه المنية ستّة عشر رجلاً لأربع دول، لكل دولة أربعة منهم، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة، لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، فى بهو المجلس الزاهر، قعودًا حسنا نبيلا، فقعد عن يمينه من بنيه، ولى العهد الحكم، ثم عبد الله، ثم عبد العزيز أبو الأصبغ، ثم مروان، وقعد عن يساره المنذر، ثم عبد الجبار، ثم سليمان، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلا لم يطق الحضور

(١) نفح الطيب ١/ ٣٦٤.

وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم، وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور، فوصل [رسل](١) ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك، وفخامة السلطان، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية، وهو فى رق مصبوغ لونا سماويا، ومكتوب بالذهب بالخط الإغريقى، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضًا، مكتوب بفضة بخط إغريقى أيضًا، فيها وصف هديته التى أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب، وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده. وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش، عليه غطاء ذهب، فيه صورة قسطنطين الملك، معمولة من الزجاج الملون البديع وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج، وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه(٢):

«قسطنطين ورومانس المؤمنان بالمسيح، الملكان العظيمان، ملكا الروم».

وفى سطر آخر:

«العظيم الاستحقاق للفخر، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله تعالى بقاءه».

وفى خمس بقين منه نقل هؤلاء الرسل من منزلهم بمنية نصير بالربض، إلى دار إبراهيم الفتى، بداخل قرطبة.

---

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ١/ ٣٦٨.

وفى آخر هذا الشهر أعاد الناصر لدين الله القعود الثانى لرسل ملك الروم، بقصر الزهراء، فاحتفل لذلك أيضًا، واستكمل له الأهبة، وبالغ فى الزينة، وقعد على باب السدة صاحب المدينة، مع من ضم إليه من العرفاء والشرط والحرس، وهم صفوف قيام، وقام مع سور القصر سماط من الموالى، فى الملابس الحسان والسلاح الشاك، وألزم الفصلان كلها جملا من العبيد والحشم والبوابين وغيرهم فى أشكل زينهم.

ثم أعاد القعود لهم بالزهراء، وهذا القعود الثالث كان يوم الخميس لثلاث بقين منه، على ما تقدم فى الأهبة والاحتفال فى الزينة.

وفى النصف من جمادى الأولى منها أدخل الناصر لدين الله هؤلاء الرسل على نفسه، فى مجلس خاص، قعد لهم فيه بقصر الزهراء، فى المجلس المشرف على الرياض، فلما خرجوا من عنده أدخلوا فى ديار الصناعات والعدة بأكناف الزهراء، ودار السكة، وطيف بهم بأرجائها، ثم صرفوا إلى دار نزولهم، فاتصل مقامهم بقرطبة فى كرامة موصولة، وعطايا متوالية، إلى أن كملت الهدية التى كوفئ بها الطاغية مرسلهم، وأُسلمت إليهم، مع أجوبتهم، وأمروا بالرحيل.

وجلس لهم الناصر لدين الله فى النصف من شوال من السنة بعدها، فدخلوا للوداع، وجددت لهم الخلع، وانطلقوا لسبيلهم، متعجبين مما رأوه من عز الإسلام.

وفى سنة سبع وعشرين وثلاث مئة لثمان خلون من شهر جمادى الأولى، وردت على الناصر لدين الله هدية وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد العظيمة الشأن، التى اشتهر ذكرها إلى الآن، ووقع الإجماع على أنه لم يُهَادَ أحد من ملوك الأندلس بمثلها، فأعجب الناصر وأهل مملكته جميعا،

وأقروا أن نفسا لم تسمح بإخراج مثلها ضربة عن يدها، وكتب مع هديته هذه رسالة حسنة، بالاعتراف للناصر لدين الله بالنعمة، والشكر عليها، واستحسنها الناس وكتبوها. وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا، وأسمى منزلته على سائر الوزراء جميعا فأضعف له رزق الوزارة، وبلّغه ثمانين دينارا فى الشهر وبلغ مصروفه إلى ألف دينار فى السنة، وثنى له العظمة، لتثنيته له الرزق فسماه ذا الوزارتين لذلك، وكان أوّل من سمى بذلك بالأندلس امتثالا لاسم صاعد بن مخلد الوزير، وزير بنى العباس ببغداد، وأمر بتصدير فراشه في البيت، وتقديم اسمه فى زمام الارتزاق فى أوّل التسمية، فعظم مقداره فى الدولة جدا.

وتفسير هديته هذه على ما ثبت فى كتابه للناصر: وذلك من المال العين خمس مائة ألف دينار، ومن العود المرتفع أربع مائة رطل، منها فى قطعة واحد مائة وثمانون رطلا، ومن المسك الذكى المفضل فى جنسه مائتا أوقية واثنتا عشرة أوقية، ومن العنبر الأشهب الذى بقى على خلقته ولم تدخله صناعة مائة أوقية، منها قطعة عجيبة الشكل أربعون أوقية، ومن الكافور المرتفع النقى الذكى ثلاث مئة أوقية، ومن أنواع الثياب ثلاثون شقة، وبقج خاصية للباسه، بيضا وملونة، وخمس ظهائر شُعَيْبِيَّة[1]، خاصية له، وعشرة فراء من عالى الفنك، منها سبعة بيض خراسانية، وثلاثة ملونة، وستّة مطارف عراقية خاصية له، وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته، ومائة ملحفة زهرية لرقاده، وعشرة قناطير شد فيها مائة جلد سمور، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول، وألف رطل من لون الحرير، قبض جميع ذلك صاحب الطراز، وثلاثون بساطا من صوف مختلفة الصناعات، طول كل بساط منها عشرون ذراعا، ومائة مصلى من وجوه الفراش المختلفة الصناعات، من جنس البسط، وخمسة عشر نخا من عمل الخز المقطوع

(١) نوع من الأقمشة.

شطرها، وسائرها من جنس البسط الوجوه، ومن السلاح والعدة مائة تجفاف، بأبدع الصناعات، وأغربها وأكملها، وألف تُرْس سلطانية، ومائة ألف سهم، ومن الخيل مائة فرس، منها من الخيل العراب المتخيرة لركابة خمسة عشر فرسا، وخمسة من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة، لمراكب الخلافة، مجالس سروجها خز عراقى، وثمانون فرسا مما يصلح للوصفاء والحشم، وخمسة أبغل عالية الركاب، وأربعون وصيفا، وعشرون جارية من متخير الرقيق، بكسوتهم وجميع آلاتهم.

وفى الكتاب: كان قد أمرنى أيده الله بابتياعهم من المال الأخماس قبل، فابتعتهم من نعمته عندى، وصيرتهم من بيتى، ومع ذلك عشرة قناطير سكر طبرزذ، لاَ سُحَاق فيه.

وفى آخر الكتاب: ولما علمت تطوع مولاى - أيده الله تعالى - إلى قرية كذا بالقنبانية المنقطعة الغرس فى شرفها، وترداده - أيده الله تعالى - لذكرها لم أهنأ بعيش حتى أعملت الحيلة فى ابتياعها بأحوازها وأكتبت وكيله ابن بقية الوثيقة فيها باسمه، وضمها إلى ضياعه، وكذلك صنعت فى قرية شيرة من نظر الجيان، عندما اتصل بى من وصفه لها، وتطلعه إليها، فما زلت أتصدى لمسرته بها، حتى ابتعتها الآن بأحوازها، وجميع منازلها وربوعها، واحتاز ذلك كله الوكيلة ابن بقية، وصار فى يده له أبقاه الله سبحانه، وأرجو أنه سيرفع فيها فى هذه السنة آلاف أمداد من الأطعمة إن شاء الله تعالى.

ولما علمت نافذ عزمه - أبقاه الله تعالى - فى البنيان، وكلفه به، وفكرت فى عدد من الأماكن التى تطلع نفسه الكريمة إلى تخليد آثاره فى بنيانها، مَدّ الله فى عمره، وأوفى بها على أقصى أمله، علمت أنَّ أسه وقوامه الصخر والاستكثار منه، فأثارت لى همتى ونصيحتى حكمة حيلة أحكمها

سعدك وجدك اللذان يبعثان ما لا يتوهم علمه، حيلة أقيم لك بها فى عام واحد عدد ما كان يقوم على يد عبدك ابن عاصم فى عشرين عاما، وينتهى تحصيل النفقة فيه إلى نحو الثمانين ألفا، أعجّل شأنه فى عام سوى التوفير العظيم الذى يبديه العيان قبلا إن شاء الله تعالى، وكذلك ما ثاب إلى فى أمر الخشب لهذه المنية المكرمة، فإن ابن خليل عبدك المجتهد الدءوب انتهى فى تحصيل عدد ما تحتاج إليه، ثلاث مائة ألف عود، ونيف على عشرين ألف عود، على أنّه لا يدخل منه فى السنة إلاّ نحو الألفى عود، ففتح لى سعدك رأيا أقيم له بتمامه جميع هذه الخشب العام على كماله، بورود الجليبة لوقتها، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفا إلى الستين ألفا.

انتهى ما بعث به الوزير ابن شهيد ملخصا.

ومن الغريب ما يحكى أنَّ أمير المؤمنين أراد الفصد، فقعد فى البهو بالمجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيب المبضع، وجس عضد الناصر، فبينما هو كذلك إذ أطل زرزور، فصعد على إناء ذهب بالمجلس وأنشد:

أيها الفاصد رفقا ... بأمير المؤمنينا

إنما تفصد عرقا ... فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف وسر به غاية السرور، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور، فذكر له أنَّ السيدة الكبرى مرجانة، أم ولده ولى عهد الحكم المستنصر بالله، صنعت ذلك، وأعدته لذلك الأمر، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار.

والناصر المذكور[1] هو البانى لمدينة الزهراء العظيمة المقدار. وكان يعمل فى جامعهـا حين شرح فيه من حذاق الفعلة كل يـوم ألف نسمة، منها ثلاث مئة بناء، ومائتـا نجار، وخمس مائة من الأجراء وسار أهل الصنـائع، فاستتم بنيانه وإتقـانه فى مدة ثمانيـة وأربعين يوما، وجـاء غاية الإتقان، من خمسـة أبهاء عجيبة الصنعـة. وطوله من القبلة إلى الجوف، حاشى المقصورة، ثلاثون ذراعا، وعرض البـهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغـرب ثلاث عشرة ذراعا، وعـرض كل بهـو من الأربعة المكتنفـة له اثنتا عـشرة ذراعـا، وطول صحنـه المكشوف من القـبلة إلي الجوف ثلاث وأربعـون ذراعًا، وعـرضه من الشرق إلى الغرب إحدى وأربعون ذراعًا، وجمـيعه مفروش بالرخام الخمرى؛ وفى وسطه فوارة يجـرى فيهـا الماء؛ فطول هذا المسجد أجـمع من القبلة إلى الجوف - سـوى المحراب - سـبع وتسعون ذراعًـا، وعرضـه من الشرق إلى الغرب تسـع وخمسـون ذراعًا، وطول صـومعتـه فى الهواء أربعـون ذراعا، وعرضها عشر أذرع فى مثلها.

وأمر الناصر[2] لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد؛ فصنع فى نهاية من الحسن، ووضع فى مكانه منه، وحظرت حوله مقصـورة عجيبة الصنعة. وكـان وضع هذا المنبـر فى مكانه من هذا المسـجد عند إكـمـاله، وذلك يوم الخميس لسبع بقين من شعبان من سنة تسع وعشرين وثلاث مئة.

وكان فى صدر[3] هذه السنة كمل الناصر بنيـان القناة الغريبة الصنعة، التى أجرى فيها الماء العذب من جبل قرطـبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة،

(١) نفح الطيب ١/ ٥٦٤.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٦٤.

(٣) نفح الطيب ١/ ٥٦٤.

فى المناهر المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجرى ماؤها بتدبير عجيب، وصنعة غريبة محكمة، إلى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصورة، بديع الصنعة، شديد الروعة، لم يشاهد أوفى منه ولا أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر، مطلى بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان، لهما وميض شديد. يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد، فيمجه فى تلك البركة من فيه، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره، وثجاجة صبه، فتسقى من مجاجة جنان هذا القصر على سعتها، ويستفيض على ساحاته وجنباته، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه، فكانت هذه القناة وبركتها، والتمثال الذهب الذى يصب فيها، من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر، لبعد مسافتها، واختلاف مسالكها، وفخامة بنيانها، وسُمّو أبراجها، التى يترقى الماء فيها، ويتصوب من أعاليها.

وكان مدة العمل فيها، من يوم ابتدئت من الجبل إلى أنْ وصلت [أعنى القناة] إلى هذه البركة، أربعة عشر شهرًا. وكان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاق الذى اتصل واستمر، يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وكانت للناصر فى هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة، أفضل فيها على عامة أهل مملكته، ووصل المهندسين والقوام بصلات حسنة جزيلة.

واستمر العمل فى مدينة الزهراء من عام خمسة وعشرين وثلاث مئة [إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكم، وذلك نحو من أربعين سنة](١).

ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما ذكره آنفًا، كانت أول جماعة صليت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان، وكان الإمام

(١) نفح الطيب ج١ ص ٥٦٥ وما بين حاصرتين منه.

لها فيه القاضى [أبا عبد الله][1] محمّد بن عبد الله بن أبى عيسى. ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة، وأوّل خطيب خطب به القاضى المذكور.

ولمّا بنى الناصر[2] قصر الزهراء. المتناهى فى الجلالة والفخامة، وأطبق الناس على أنّه لم يبن مثله فى الإسلام البتة، وما دخل إليه أحد قط من سائر البلاد النائية، والنحل المختلفة، من ملك وارد، ورسول وافد، وتاجر، وجهبذ، وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة، إلاّ وكلهم قطع أنّه لم ير له شبيها، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله، حتى إِنّه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه، وتحدث عنه؛ والأخبار عن هذا تتسع جدا، والأدلة عليه تكثر، ولو لم يكن فيه إلاّ السطح الممرد، المشرف على الروضة، المباهى بمجلس الذهب والقبة وعجائب ما تضمنته من إتقان الصنعة، وفخامة الهمة، وحسن المستشرف، وبراعة الملبس والحلة، ما بين مرمر مسنون، وذهب موضون، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص، لا تهتدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها؛ فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة، كيما يُرِى الغافلين عنه من عباده، مثالاً لما أعده لأهل السعادة فى دار المقامة، التى لا يسلط عليها الفناء، ولا تحتاج إلى الكرم، لا إله إلاّ هو المنفرد بالكرم.

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٦٥.

وذكر المؤرخ أبو مروان بن حيان[1] صاحب الشرطة، أن مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، ما بين كبيرة وصغيرة، حاملة ومحمولة، ونيف على ثلاث مئة سارية زائدة؛ وفسر بعضهم هذا النيف بثلاث عشرة منها ما جلب من دينة رومة، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية؛ وأنَّ مصاريع أبوابها، صغارها وكبارها، كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه، والله أعلم، فإنها كانت من أهول ما بناه الإنس، وأجله خطراً، وأعظمه شأنًا.

وقال بعض المؤرخين: وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبع مئة وخمسين فتى، ودخالتهم من اللحم كل يوم، حاشى أنواع الطير والحوت، ثلاثة عشر ألف رطل؛ وعدة النساء بقصر الزهراء، الصغار والكبار وخدم الخدمة، ستّة آلاف وثلاث مائة امرأة وأربع عشرة. ورأيت فى بعض الدواوين - وهو الصواب إن شاء الله - أنَّ عدد الصقالبة ثلاثة آلاف وسبع مئة وخمسون، [وجعل بعضهم مكان الخمسين سبعة وثمانين][2]، وعدد النساء بقصر الزهراء مثل ما ذكرنا أوّلاً.

ثم قال بإثره: وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان. والله تعالى اعلم.

وقال ابن حيان[3]: ألفيت بخط ابن دحون الفقيه، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس: بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بنيان الزهراء أوّل سنة

---

(١) نفح الطيب ١/ ٥٦٩.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

(٣) نفح الطيب ١/ ٥٦٧.

خمس وعشرين وثلاث مائة، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستّة آلاف صخرة، سوى المنصرف فى التبليط، فإنه لم يدخل فى هذا العدد. وكان يخدم فى الزهراء كل يوم ألف وأربع مئة بغل، منها أربع مئة زوامل الناصر لدين الله، ومن الدواب الأكرية الراتبة للخدمة ألف بغل، لكل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر، يجب لها فى الشهر ثلاثة آلاف مثقال. وكان يرد الزهراء من الجير والجص فى كل ثالث من الأيام ألف ومئة حمل، وكان فيها حمامان، واحدة للقصر والثانية للعامة.

وذكر بعض أهل[1] الخدمة فى الزهراء أنّه قدر النفقة فيها فى كل عام بثلاث مائة ألف دينار، مدة خمسة وعشرين عامًا [التى بقيت من دولة الناصر، من حين ابتدأها، لأنه توفى سنة خمسين]، وحصل جميع الاتفاق فيها، فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال.

قال: وجلب إليها الرخام من قَرطاجَنّة وإفريقية وتونس، وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين وعلى ابنا جعفر الإسكندرانى. وكان الناصر يصلهم على كل رخمة، صغيرة أو كبيرة بعشرة دنانير.

وقال بعض المؤرخين الأثبات[2]: كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية، وكان عدد السوارى المجلوبة من إفريقية ألف سارية، وثلاث عشرة سارية، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية. وأهدى إليه ملك الروم مئة وأربعين سارية، وسائرها من مقاطع الأندلس: طَرّكونة وغيرها؛ فالرخام المجزع من ريَّة، والأبيض من غيرها،

(١) نفح الطيب ١/ ٥٦٨ والتكملة منه.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٦٨.

والوردى والأخضر مـن إفريقية، من كنيـسة سفاقس. وأما الحـوض المنقوش المذهب الغـريب الشكل، الغـالى القيـمة، فـجلبـه إليه أحـمد اليـونانى من القـسطنطينية، مع ربيـع الأسقف القـادم من إيلياء؛ وأمـا الحوض الصـغيـر الأخـضر المنقـوش بتمـاثيل الإنسان، فـجلبـه أحمـد من الشام، وقـيل من القسطنطيـنية مع ربيع الأسقف أيضـًا، وقالوا إنّه لا قيـمة له، لفرط غـرابته وجماله، وحمل من مكان إلى مكان، حتى وصل فى البـحر، ونصبه الناصر فى بيت المنام، فى المجلس المستشرف الشرقى، المعروف بالمؤنس، وجعل عليه أثنى عشر تمثـالاً من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفـيس الغالى، مما عمل بدار الصناعة بقرطبـة: صورة أسد إلى جانبه صورة غـزال، إلى جانبه صورة تمساح، وفيما يقـابله ثعبان وعقاب وفيل، وفى المجنبتيـن حمامة، وشاهين، وطاوس، ودجاجة، وديك، والثانى عشر لم يحضرنى اسمه الآن، وكل هذا من ذهب مـرصع بالجوهر النفـيس، ويخرج الماء من أفـواهها. وكان المـتولى لهذا البنيان المذكـور ابنه الحكم، لم يتكل فيه الناصر على أمين غـيره، وكان يخبز فى أيامه كل يوم برسم حـيتان البحيرة ثمان مائة خـبزة وقيل أكثر، إلى غير ذلك مما يطول تتبعه.

وكان الناصر[١] قد قسم الجباية أثلاثًا، ثلث للجند وثلث للبناء، وثلث مدخر. وكانـت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خـمسة آلاف ألف، وأربع مئة ألف، وثمـانين ألف [دينار]، ومن الستوق والمستـخلص سبع مائة ألف، وخمسة وسـتين ألف دينار، وأما أخماس الغنائم فلا يحـصيها ديوان.

(١) نفح الطيب ٥٦٩/١ والتكملة عنه.

وقيل إنَّ مبلغ تحصيل النفقة فى بنيان الزهراء مائة مدى من الدراهم القاسمية، بكيل قرطبة. وقيل إنَّ مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مديا وستّة أقفزة، من الدراهم المذكورة. واتصل بناء الزهراء أيام الناصر خمسًا وعشرين سنة، شطر خلافته، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها، وكانت خمسة عشر عاما وأشهرًا. فسبحان الباقى بعد فناء الخلق، لا اله إلاّ هو.

وكانت قرطبة إذ ذاك أم المدائن، وقاعدة الأندلس، وقرارة الملك، وكان عدد شرطاتها أربعة آلاف وثلاثة مئة، وكانت عدة الدور التى فى القصر الكبير أربع مئة دار [ونيفا وثلاثين][1]، وكانت عدة دور الرعايا والسواد بها، والواجب على أهل المبيت فى السور، مئة ألف دار، وثلاثة عشر ألف دار، حاشى دور الوزراء وأكابر الناس والبياض، وعدد أرباضها ثمانية وعشرون، وقيل أحد وعشرون؛ ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمان مئة وسبعة وثلاثون مسجدًا؛ وعدد حمامات المبرزة للناس سبع مئة حمام، وقيل ثلاث مئة؛ ووسط الأرباض قصبة قرطبة، التى تختص بالسور دونها. وأما اليتيمة التى كانت فى القص فى المجلس البديع؛ فإنها كانت من تحف قصر اليونانيين، بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية.

وكان القاضى منذر بن سعيد البلوطى ممن يكرمه الناصر ويجله، وولاه قضاء جماعته؛ وكان أوّل الأسباب فى معرفته بالناصر، وزلفاه لديه، أنَّ الناصر لمّا احتفل بالجلوس لدخول رسل ملك الروم الأعظم صاحب القسطنطينية عليه بقصر قرطبة، الاحتفال الذى اشتهر ذكره فى الناس، حسبما تقدم بعض الإلماع به، أحب أنَّ يفوم الخطباء والشعراء بين يديه، لتذكر جلالة

(١) التكملة من نفح الطيب.

مقـعده، وعظيم سلطانه، وتصف مـا تهيأ له من تـوطيد الخلافـة فى دولته. وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، ويقدمه أمام نشيد الشعراء، فأمر الحكم صنيعه الفقيه الكسيبانى بالتأهب لذلك وإعداد خطة بيـن يدى الخليفة وكـان يدعى من المقدرة على تأليـف الكلام ما ليس فى وسع غيره وحضر المجـلس السلطانى، فلما قام يحاول التكلم بما رآه بهره هول المقام، وأبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظة بل غشى عليه وسقط إلى الأرض، فـقيل لأبى على البـغدادى إسـماعـيل بن القـاسم القالى صـاحب الأمالى والنوادر وهو [حينئذ][1] ضيف الخليفة الوافد عـليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة: قم فـارقع هذا الوهى فقام فحـمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه مـحمّد ﷺ ثم انقطع به القول، فوقف ساكـتا مفكرا فى كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه، فلمـا رأى ذلك منذر بن سعيد وكان ممن حضر فى زمرة الفقهـاء قام من ذاته [بدرجة من مرقاته][1] فوصل افتتاح أبى على لأول خطبـته بكلام عجـيب، وفصل مـصيب، يسحـه سحـا كأنما يحـفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكـان الذى انتهى إليـه أبو على البغـدادى فقال:

أمـا بعد حـمد الله والثنـاء عليه، والتـعداد لآلائه، والـشكر لنعمـائه والصلاة على محمّد صفيه وخاتم أنبـيائه، فإن لكل حادثة مقام، ولكل مقام مقـال، وليس بعد الحق إلاّ الضلال، وإنى قـمت من مقـام كريم، بين يدى ملك عظيـم، فأصغوا إلىَّ معشر الملأ بأسماعكم والقنوا عنى بأفئدتكم، إنَّ من الحق أن يقـال للمـحق صـدقت، وللمـبطل كـذبت، وإنَّ الجليل تعـالى فى سمـائه، تقدس بصفـاته وأسمائه، أمـر كليمه موسى ﷺ وعـلى نبينا وعلى جميع أنبـيائه، أن يذكر قومه بأيام الله عز وجل عندهم وفـيه وفى رسول الله

(١) التكملة من نفح الطيب.

ﷺ أسوة حسنة، وإنى أذكـركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافـة أمير المؤمنين، التى لمت شعـثكم، وأمنت سربكم، ورفعت قـوتكم، بعد أن كنتم قليلا فكثَّركم، ومسـتضعفين فقواكم، ومسـتذلين فنصركم ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إِمـامتكم أيام ضربت الفـتنة سرادقها على الآفـاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال، ونكد العيش والتقتـير، فاستبـدلتم بخلافته من الشدة الرخـاء، وانتقلتم بيمن سيـاسته إلى تمهيد [كنف][1] العافـية بعد استـيطان البلاء. أنشدكم بالله معـاشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها، والسُّبُل مخوفة فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها، ألم تكن البـلاد خرابا فعمرها، وثغور المسلمـين مهتضمة فـحماها ونصرها، فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافـيه جمع كلمتكم بعد افتراقا بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غـيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يدا على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم، فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقـها من عـقالها، ألم يـتلاف صلاح الأمـور بنفسـه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره [بالقوة][1] والمهجة والأولاد، واعتـزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفـض الدعة وهى محـبوبة، وترك الركون إلى الراحـة وهى مطلوبة، بطوية صحـيحـة وعزيمة صـريحة. وبصيرة نافذة ثاقبة، وريح هابة غالـبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسـيف منصور، تحت عدل مشهور، متـحملا للنصب، مسـتقلا لما ناله فى جـانب الله من التعب، حـتى لانت الأحوال بعد شـدتها وانكسرت شـوكة الفتنة عند حدتـها، ولم يبق لها غارب إلاّ جَـبَّه، ولا نَجمَ لأهلها قرن إلاّ جده، فأصبحتم بنعمة الله إخوانا، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم

(١) التكملة من نفح الطيب.

على أعدائه أعوانا، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم، بخلافته أبواب [الخيرات و][1] البركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ﴿... لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً... ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال] لن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر وما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية دليلها قائم، وجفنها غير نائم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴿٥٥﴾﴾ [النور] الآية. وليس فى تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه واسألوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم فى خلافة أمير المؤمنين، أيده الله بالعصمة والسداد، وألهمه بخالص التوفيق إلى سبيل الرشاد، أحسن الناس حالا، وأنعمهم بالا، وأعزهم قرارا، وأمنعهم دارا، وأكثفهم جمعا، وأجملهم صنعا، لا تهاجون ولا تذادون، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم، وابن عم نبيكم ﷺ فإن من نزع يدا من الطاعة، وسعى فى تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقد علمتم أنَّ فى التعلق بعصمتها [والتمسك بعروتها][2]، حفظ الأموال وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدهماء، وأنَّ بقوم تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، ووضحت الأحكام، وبها سد الله الخلل، وأمن السبل، ووطأ الأكناف، ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القرار

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

واطمأنت بكم الدار فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿ ... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ... ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء] الآية. وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين، الساعين فى شق عصاكم، وتفريق ملاكم الآخذين فى مخاذلة دينكم وهتك حريمكم وتوهين دعوة نبيكم ﷺ وعلى جميع النبيين والمرسلين. أقول قولى هذا وأختتم بالحمد لله رب العالمين واستغفر الله الغفور الرحيم، فإنه خير الغافرين.

فخرج الناس يتحدثون عن حسن مقام منذر وثبات جنانه، وبلاغة لسانه. وكان الخليفة الناصر لدين الله أشدهم تعجبا منه فأقبل على ولى عهده ابنه الحكم يسأله عنه، ولم يكن يثبت معرفة عينه، وقد سمع باسمه فقال له الحكم: هو منذر بن سعد البلوطى. فقال: والله لقد أحسن ما شاء فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار، فيتلافى الوهى، فإنه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته، إنه لأعجب وأغرب، فكان سبب اتصاله به، واستعماله له.

وذكر ابن أصبغ الهمدانى عن منذر القاضى أنه خطب يوما وأراد التواضع فكان من فصول خطبته أن قال:

حتى متى وإلى متى أعظ ولا أتعظ، وأزجر ولا أزدجر، أدل الطريق على المستدلين، وأبقى مقيما مع الحائرين، كلا إن هذا لهو البلاء المبين ﴿ ... إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ... ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف] الآية. اللهم فرغنى لما خلقتنى له، ولا تشغلنى بما تكفلت لى به، ولا تحرمنى وأنا أسألك، ولا تعذبنى وأنا استغفرك، يا أرحم الراحمين قال:

وكان الخليفة الناصر[١] لدين الله كَلِفًا بعمارة الأرض، وإقـامة معالمها، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك، وعـزة السلطان، فأفضى به الإغراق فى ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء، البناء الذى شاع ذكره، واسـتفرغ وسعه فى تنميقهـا، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعـها، فأراد القاضى منذر أن يغض منه بما يتـناوله من الموعظة بفـصـل الخطاب والحكمـة، والتـذكـيـر بالإنابة والرجوع، فأدخل فى خطبـته فصلا مبتـدئا بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشـعراء]. ولا تقـولوا: «سواء علينا أوعظت أم لـم تكن من الواعظين». «قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أتقى» وهى دار القرار ومكان الجزاء.

ووصل ذلك بكلام جزل، وقـول فصل، ومضـى فى ذم تشييـد البنيان والاستـغراق فى زخرفـته، والإسراف فى الإنفـاق [عليه][٢] فجـرى طلقا، وانتزع فيه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ... ﴿١٠٩﴾﴾ [التـوبة] الآية؛ وأتى بما يشاكل المعنـى من التخـويف بالموت، والتحـذير من فجـأته، والدعاء إلى الزهد فـى هذه الدار الفانيـة، والحض على اعتـزالها، والرفض لهـا، والندب إلى الإعـراض عنها، والإقـصـار عن طلب اللذات، ونهى النفس عن اتباع هواها، فأسـهب فى ذلك كله، وأضاف إليه آى القرآن ما يطابقـه، وجلب من الحديث والأثر ما يشـاكله، حتى ادكر من حـضر من الناس وخضـعوا ورقوا، واعتـرفوا وبكوا، ودعوا، وأعلنوا التـضرع إلى الله

---

(١) نفح الطيب ١/ ٥٧٠.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

والتوبة، والابتهـال فى المغفرة، وأخذ خليفتـهم من ذلك بأوفر حظ وقد علم أنه المقصـود، فبكى وندم على مـا سلف له [من فرطه][1] واستـعاذ بالله من سخطه، إلاّ أنه وجد على المنذر بن سعيد لغلظ ما تقرعه به، فشكا ذلك إلى ولده الحكم بعد انصرافه، وقال: والله قد تعمدنى منذر بخطبته، وما عنى بها غيرى، فـأسرف علىّ، وأفرط فى تقريعى، ولم يحسن السـياسة فى وعظى، فزعزع قلبى، وكاد بعـصاه يقرعنى، واستشاط غيظـا عليه، فأقسم إلاّ يصلى خلفه صـلاة الجمـعة خاصـة، فجـعل يلتزم صـلاتها وراء أحمـد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة بالزهراء، وقال له الحكم: وما الذى يمنعك من عـزل المنذر من الصلاة بك والاسـتبـدال منه إذ كرهـته؟ فـزجره وانتهره وقال له: أمثل منذر بن سعـيد فى خير وفضله وعلمه - لا أم لك - يعزل لإرضـاء نفس ناكبـة عن الرشد، [سالكة غـير القـصد][2]؟ هذا ما لا يكون وإنى لأستحيـى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى الصلاة الجمعة شـفيعا مثل منذر، فى ورعـه وصدقه، ولكنه قـد أحرجنى فأقـسمت، ولوددت أنى أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى.

وقحط الناس آخـر مدة الناصر، فأمـر القاضى المذكور منذر بن سـعيد بالبروز إلى الاستـسقاء بالناس، فتأهب لذلك، وصـام بين يديه أياما [ثلاثة] تنفلا وإنابة ورهبـة، فاجتمع له الناس فى مصلى الربض بـقرطبة بارزين إلى الله تعالى فى جمع عظيم، وصـعد الخليفة الناصر فى أعلى مصـانعه المرتفعة

---

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

من القصر، ليشارف الناس ويشاركهم فى الخروج إلى الله تعالى، والضراعة له، فأبطأ القاضى حتى اجتمع الناس، وغصت بهم ساحة المصلى، ثم خرج نحوهم ماشيا متضرعا مخبتا متخشعا، وقام ليخطب، فلما رأى بدار الناس إلى ارتقابه واستكانتهم من خيفة الله، وإخباتهم له، وابتهالهم إليه، رقت نفسه، وغلبته عيناه، فاستعبر وبكى حينا، ثم افتتح خطبته بأن قال:

يا أيها الناس، سلام عليكم ثم سكت، ووقف شبيه الحصر، ولم يك من عادته، فنظر الناس بعضهم إلى بعض، لا يدرون ما عراه، ولا ما أراد بقوله، ثم اندفع تاليا قوله تعالى: ﴿... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام] استغفروا ربكم إنّه كان غفارا واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه، وتزلفوا بالأعمال الصالحات لديه.

قال الحاكى: فضج الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء، ومضى على تمام خطبته، فقرع النفوس بوعظه، وانبعث الإخلاص بتذكيره، فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء منهمر، روى الثرى، وطرد المحل، وسكن الأزل، والله لطيف بعباده.

وكان له فى خطب الاستسفاء استفتاح عجيب، ومن أن قال وقد سرح طرفه فى ملأ الناس، عندما شخصوا إليه بأبصارهم فهتف بهم كالمنادى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وكررها [عليهم][1]، مشيرا بيده فى نواحيهم: ﴿... أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر]. فاشتد وجد الناس، وانطلقت أعينهم بالبكاء، ومضى فى خطبته.

---

(١) التكملة من نفح الطيب.

قال القاضى أبو الحسن[1]: ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر، فى إنكاره عليه الإسراف فى البناء، أن الناصر اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصية، التى كانت مائلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء، قراميد مغشاة ذهبا وفضة، أنفق عليها مالاً جسيما، وقرمد سقفها به، وجعل سقفها صفراء فاقعة، إلى بيضاء ناصعة، فتستلب الأبصار بأشعة أنوارها، وجلس فى إثر تمامها يوما لأهل مملكته، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك: هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك لأوحد فى شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره، فأبهجه قولهم وسره. فبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد واجما ناكس الرأس، فلما أخذ مجلسه، قال له كالذى قال لوزرائه، من ذكر السقف المذهب، واقتداره على ابتداعه، فأقبلت دموع القاضى تتحدر على لحيته وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أنَّ الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين. قال: فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له: انظر ما تقول، وكيف أنزلتنى منزلتهم. فقال له: نعم أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف]. فوجم الخليفة وأطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله سبحانه. ثم أقبل على منذر وقال له: جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك

(١) نفح الطيب ١/ ٥٧٣.

خيرا وعن الدين والمسلمين أجمل الجزاء، وكَثَّر فى الناس أمثالك فالذى قلت هو الحق. وقام عن مـجلسه ذلك [وهو يستغـفر الله تعالى][1]، وأمر بنقض سقف القبيبة وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها. انتهى.

وحكى غير واحـد أنّه وجد بخط الناصر رحمـه الله: أيام السرور التى صفت له دون تكدير يوم كـذا من شهر كذا من سنة كـذا ويوم كذا من كذا. وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما.

فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعـدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها. هذا الخليـفة الناصر حلف السعـود، المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستّة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصف له إلاّ أربعة عشر يوما، فسبـحان ذى العزة القائمة، والمملكة الدائمة، تبارك اسمه تعالى لا اله إلاّ هو.

وحكى أنّه - أعني الناصر[2] - لمّا أعذر لأولاد ابنه أبى مـروان الأكبر عبيد الله، اتخـذ لذلك صنيعا عظيما بقصـر الزهراء لم يتخلف عنه أحد من أهل مملكته، وأمر أن ينذر لشهوده الفقـهاء المشاوَرون، ومن يليهم من العلماء والعدول، ووجوه الناس، فتخلف من بينهم الفقيه المشاور أبو إبراهيم المذكور الذكر فى كتب النوازل والأحكـام، وافتقد مكانه لارتفاع منزلتـه، فساء ذلك الخليفة الناصر ووجد على أبى إبراهيـم، وأمر ابنه ولى العهد الحكم بالكتاب إليه، والتفنيد له، فكتب إليه الحكم رقعة نسختها[3]:

---

(١) التكملة من نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ١/ ٣٧٦.

(٣) نفح الطيب ج١ ص ٣٧٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وتولاك، وسددك ورعاك، لما امتحن أمير المؤمنين مولاى وسيدى أبقاه الله الأولياء الذين يستعد بهم، وجدك متقدما فى الولاية متأخرا عن الصلة، على أن قد أنذرك أبقاه الله، خصوصا للمشاركة فى السرور الذى كان عنده، لا أعدمه الله توالى المسرة، ثم أُنْذِرْتَ من قبل إبلاغا فى التكرمة، فكان على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليه فيه المعذرة، واستبلغ أمير المؤمنين فى إنكاره ومعاتبتك عليه، فأعيت عليك عنك الحجة. فعرِّفنى أكرمك الله ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته، ومشاهدة السرور الذى سُرَّ به ورغب المشاركة فيه [لنعرّفه][1]، أبقاه الله بذلك، فتسكن نفسه العزيزة إليه، إن شاء الله تعالى».

فأجابه أبوه إبراهيم:

«سلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.

قرأت أبقى الله سيدى، هذا الكتاب وفهمته، ولم يكن توقفى لنفسى، إنّما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه، لعلمى بمذهبه، ولسكونى إلى تقواه واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم، فإنهم كانوا يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها، ولا بما يغض منها، ويطرق إلى تنقصها، فيستعدون بها لدينهم ويتزينون[2] بها عند رعاياهم، ومن يفد عليهم من قصادهم، فلهذا تخلفت، ولعلمى بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى.

قال فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبى إبراهيم إسحاق

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج١ ص ٣٧٦.

(٢) فى سائر الأصول: «ويتزيّون» والمثبت من نفح الطيب ج١ ص ٣٧٧.

أعجـبه واستحـسن اعتذاره، وزال مـا بنفسه عليـه. وكان الفقـيه أبو إبراهيم المذكور معظما عند الناصر وابنه الحكم، وحق لهما أن يعظماه.

وقد حكى الفقـيه أبو القاسم مفرج بن محـمّد بن مفرج(١) قال: كنت أختلف إلى الفقيـه أبى إبراهيم رحمه الله فيمن يختلف إليـه للتفقه والرواية، فإنى لعنده فى بعض الأيام فى مجلسه، بالمسجـد المنسوب لأبى عثمان، الذى كان يصلى فـيه قرب داره، بجـوفى قصر قـرطبة، ومجلسـه حافل بجمـاعة الطلبة، وذلك بين الصلاتين، إذ دخل عليه خصى من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفـة الحكم، فوقف وسلم وقال له: يا فـقيه أجب أمـير المؤمنين أبقاه الله فإن الأمر خرج فيك، وها هو قـاعد ينتظرك، وقد أمرت بإعجالك، فالله الله. فقال له: سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ولا عجلة فارجع إليه - وفقه الله - وعرفـه عنى أنك وجدتنى فى بيت من بيـوت الله عز وجل مع طلاب العلم أسمـعهم حـديث ابن عمه رسـول الله ﷺ فهم يقيـدونه عنى، وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعـهود لهم، فى رضاء الله وطاعته، فذلك أوكـد من مسيـرى إليه السـاعة، فإذا انقـضى أمر من اجـتمع إلىَّ من هؤلاء المحتسبين فى ذات الله، الساعيـن فى مرضاته، مشيت إليه إن شاء الله تعالى.

ثم إِنّه أقبل على شأنه، ومضى الخصى يهينم مـتضاجرا من توقفه، فلم يك إلاّ ريثما أدى جوابـه وانصرف سريعا ساكن الطيش. فقـال له: يا فقيه، أنهيت قـولك على نصه إلى أمير المؤمـنين أبقاه الله فأصغى إليـه، وهو يقول [لك](٢): جزاك الله خيرا عن الدين، وعن أميـر المؤمنين، وجماعة المسلمين

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٧٧.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

وأمتعهم بك، وإذا أنت أَوْعَبْتَ فامض إليه راشدا إن شاء الله تعالى، فقد أُمِرْتُ أن أبقى معك حتى ينقضى شغلك، وأذكرك تمضى معى. فقال له: حسن جميل، ولكنى أضعف عن المشى إلى باب السدة، ويصعب على ركوب دابة لشيخوختى وضعف أعضائى، وباب الصناعة الذى يقرب إلى من أبواب القصر المكرم أحوط لى وأرفق بى، فإن رأى أمير المؤمنين أيده الله تعالى أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منهَ هوّن على المشى، وودُع جسمى، وأحب أن تعود فتنهى إليه ذلك عنى حتى تعرف رأيه فيه وكذلك تعود إلىَّ، فإنى أراك فتى سديدا، فكن على الخير معينا.

ومضى عنه الفتى ثم رجع بعد حين وقال: يا فقيه قد أجابك أمير المؤمنين إلى ما سألت، وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قِبَله، ومنه خرجت إليك، وأُمرت بملازمتك مذكرا بالنهوض عند فراغك، وقال: افعل راشدا وجلس الخصى جانبا حتى أكمل أبو إبراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادته غير منزعج ولا قلق، فلما انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه ثم مشى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب، وقضى حاجته من لقائه، ثم صرفه على ذاك الباب، فأعيد إغلاقه على إثر خروجه.

قال مفرج: ولقد تعمدنا فى تلك العشية إثر قيامنا عن الشيخ أبى إبراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدُبْر القصر، لنرى الذى تجشم الخليفة له فوجدناه كما وصف الخصى مفتوحا، قد حفه الخدم والأعوان منزعجين، ما بين كناس وفراش متهيئين لانتظار أبى إبراهيم، فاشتد عجبنا لذلك، وطال تحدثنا عنه. انتهى.

هكذا هكذا تكون المعالى　　　طرق الجد غير طرق المزاح

وكان الخليفة الحكم المستنصر[1] المذكور قام بأعباء الملك أحسن قيام، لما توفى والده الناصر فى يوم الأربعاء لثلاث وقيل لاثنين - مضين من شهر رمضان من سنة خمسين وثلاث مائة، واستقرت الخلافة به حتى لم يعدم من الناصر إلاّ شخصه، واعتلى سرير الملك ثامن وفاة أبيه يوم الخميس، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له ودعا الناس إلى بيعته، واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته وضبط قصوره وترتيب أجناده.

وأول ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر كجعفر صاحب الخيل والطرز وغيره من عظمائهم، وتكفلوا بأخذها على من وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم [وغيرهم][2]، وأوصل إلى نفسه فى الليل دون هؤلاء الأكابر من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء فبايعوه، فلما كملت بيعتهم وبيعة أهل القصر، تقدم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض فى أخيه شقيقه أبى مروان عبيد الله المتخلف لعلته، بأن يلزمه الحضور للبيعة دون معذرة، وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حدير بالنهوض أيضًا فى أبى الأصبغ عبد العزيز شقيقه الثانى، فمضيا اليهما كل واحد منهما فى قطيع من الجند، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال فى الخيل، للإتيان بغيرهما من الإخوة، وكانوا يومئذ ثمانية، فوافى جميعهم الزهراء فى الليل، فنزلوا فى مراتبهم بفصلان دار الملك، وقعدوا فى المجلسين الشرقى والغربى، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التى فى السطح المرد، فأول من

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٧٧.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

وصل إليه الإخوة فبايعوه وأنصتوا لصحيفة البيعة، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها، ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة، وقعد الإخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله إلاّ عيسى بن فطيس فانه كان يأخذ البيعة على الناس، وقام الترتيب على الرسم فى مجالس الاحتفال المعروفة، فاصطف فى المجلس الذى قعد فيه أكابر الفتيان يمينا وشمالا إلى آخر البهو كل منهم على قدره فى المنزلة، عليهم الظهائر البيض شعار الحزن، قد تقلدوا فوقها السيوف، ثم تلاهم الفتيان الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية صفين منتظمين فى السطح، وفى الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان، لابسين البياض بأيديهم السيوف يتصل بهم من دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم، ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة، صفوف العبيد الفحول شاكين فى الأسلحة الرائقة والعدة الكاملة، وقامت التعبية فى دار الجند والترتيب من رَجَّالة العبيد، عليهم الجواشن والأقبية البيض، وعلى رءوسهم البيضات الصقلية، وبأيديهم التراس الملونة والأسلحة المزينة، انتظموا صفين إلى آخر الفصيل. وعلى باب السدة الأعظم البوابون وأعوانهم، ومن خارج باب السدة فرسان العبيد إلى باب الأقباء، واتصل بهم فرسان الحشم، وطبقات الجند والعبيد والرماة، موكبا إثر موكب، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء فلما تمت البيعة أُذن للناس بالانفضاض إلاّ الإخوة والوزراء و[أهل](١) الخدمة، فإنهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتمل جسد الناصر رحمه الله إلى قصر قرطبة للدفن هنالك فى تربة الخلفاء.

---

(١) التكملة من نفح الطيب.

وفى ذى الحجة[1] من سنة خمسين المذكورة تكاثرت بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب، من أهل طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها، فتوصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء والقاضى منذر بن سعيد والملأ وأخذت عليهم البيعة، ووقعت الشهادات فى نسخها.

وفى آخر صفر[2] من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر موليه محمدا وزيادا ابنى أفلح الناصرى فى كتيبة من الحشم والخدم لتلقى غالب الناصرى صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أدفونش الخبيث فى الدولة المتملك على طوائف من أُمم الجلالقة، والمنازع لابن عمه المملك قبله شانجه بن ردمير، وتبرع هذا اللعين أُردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته غير طالب إذن، ولا مستظهر بعهد، وذلك عندما بلغه من اعتزام المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو إليه، وأخذه فى التأهب له، فاحتال فى تأميل المستنصر بالله والارتماء إليه وخرج قبل أمان يعقد له، أو ذمة تعصمه فى عشرين رجلاً من وجوه أصحابه، تكنفهم غالب الناصرى الذى خرج إليه، فجاء به نحو مولاه الحكم، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم إلى قرطبة، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشام بن محمّد بن عثمان المصحفى، فى جيش عظيم كامل التعبية، وقدموا إلى باب قرطبة فمروا باب قصرها، فلما انتهى أردون إلى ما بين السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله، فأشير إلى ما

(١) نفح الطيب ١/ ٣٨٨.

(٢) نفح الطيب ١/ ٣٨٨.

يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة فخلع قلنسوته، وخضع نحو مكان القبر ودعا ثم رد قلنسوته إلى رأسه.

وأمر المستنصر بإنزال أُردون فى دار الناعورة، وقد كان تقدم فى فرشها بأنواع الغطاء والوطاء وانتهى من ذلك إلى الغاية، وتوسع له فى الكرامة ولأصحابه، فأقام بها الخميس والجمعة، فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتبعية الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والأسلحة والزينة، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفا فى المجلس، فيهم القاضى منذر بن سعيد، والحكماء والفقهاء، فأتى محمّد بن القاسم بن طُمْلُس بالملك أُردون وأصحابه، وعالى لبوسه ثوب ديباجى رومى أبيض، وبَلْيُوَال من جنسه وفى لونه، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه، فيهم وليد بن خيزران قاضى النصارى بقرطبة، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما فدخل بين صفى الترتيب يقلب الطرف فى نظم الصفوف ويجيل النظر فى كثرتها، وتظاهر أسلحتها، ورائق حليتها، فراعهم ما أبصروه وصلبوا على وجوههم وتأملوا ناكسى رءوسهم غاضين من جفونهم، قد سكرت أبصارهم حتى وصلوا إلى باب الأقباء أول باب قصر الزهراء، فترجل جميع من كان خرج إلى لقائه، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابها حتى انتهوا إلى باب السدة، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشى على الأقدام، فترجلوا ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمّد بن طملس، فأنزل فى برطل البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التى

بدار الجند على كرسى مرتفع مكسو الأوصال بالفضة، وفى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجة بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى، فقعد أردون على الكرسى وقعد أصحابه بين يديه، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه، فتقدم يمشى وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح، فلما قابل المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله، وقف وكشف رأسه وخلع برنسه وبقى حاسرا إعظاما لما بان له من الدنو إلى السرير، واستنهض فمضى بين الصفين المرتبين فى ساحة السطح إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو، فلما قابل السرير خر ساجدا سويعة ثم استوى قائما، ثم نهض خطوات وعاد إلى السجود، ووالى ذلك مرارا إلى أن قُدِّم بين يدى الخليفة وأهوى إلى يديه، فناوله إياها وكرر راجعا مقهقرا على عقبه إلى وساد ديباج مثقل بالذهب، جعل له هنالك ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير، فجلس عليه والبهر قد علاه، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه، فدنوا ممتثلين فعله فى تكرير الخنوع، وناولهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا مقهقرين، فوقفوا على رأس ملكهم ووصل بوصولهم وليد بن خيزران قاضى النصارى بقرطبة فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم، وأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده [أمامه وقتا](1) كيما يفرخ روعه، فلما رأى أن قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال: ليسرك إقبالك ويغبطك تأميلك، فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته.

فلما ترجم له [كلامه](1) إياه تطلق وجه أردون وانحط عن رتبته، فقبل البساط وقال: أنا عبد أمير المؤمنين مولاى المتوزك على فضله، القاصد إلى

(١) التكملة من نفح الطيب ج١ ص ٣٩١.

مجده، المُحكِّم فى نفسه ورجاله، فحيث وضعنى من فضله، وعوضنى، من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة.

فقال له الخليفة: أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك عن أهل ملتك ما يغبطك وتتعرف به فضل جنوحك إلينا، واستظلالك بظل سلطاننا.

فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة، وابتهل داعيا وقال: إنَّ شانجة ابن عمى تقدم إلى الخليفة الماضى مستجيرا به منى، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم، وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته، وأنكرت سيرته، واختارنى لمكانه من غير سعى منى - علم الله ذلك - ولا دعاء إليه، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا، فتطول عليه رحمه الله، بأن صرفه إلى ملكه، وقوى سلطانه وأعز نصره. ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التى أسديت إليه وقصر فى أداء المفروض عليه وحقه وحق أمير المؤمنين مولاى من بعده، وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطانى، وموضع احتكامى، محكما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى، ومن تحويه من رعيتى، فشتان ما بيننا من قوة الثقة ومطرح الهمة.

فقال الخليفة: قد سمعنا قولك، وفهمنا مغزاك، وسوف يظهر من إقراضنا إياك على الخصوصية فوق شأنه، ويترادف من إحساننا إليك به أضعاف ما كان من أبينا رضى الله عنه إلى نِدِّك، وإن كان له فضل التقدم بالجنوح إلينا، والقصد إلى سلطاننا، فليس ذلك مما يؤخرك عنه، ولا ينقصك مما أنلناه، وسنصرفك مغبوطا إلى بلدك، [ونشد أَوَاخِيَّ ملكك][(1)] ونُملِّكك

(١) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب ج١ ص ٣٩٢.

جميع من انحاش إليك من أمتك، ونعقـد لك بذلك كتابا يكون بيدك، نقرر به حدّ مـا بينك وبين ابن عمك، ونقبـضه عن كل ما يصرفـه من البلاد إلى يدك، وسيـرادفك عليك من إفضالنا فـوق ما احتسـبته. والله على مـا نقول وكيل.

فكرر أردون الخضوع، وأسهب فى الشكر، وقام للانصراف مقهقرا، لا يولى الخليفة ظهره، وقد تكنفه الحفدة من جلة الفتيان، فأخرجوه إلى المجلس الغربى فى السطح وقد علاه البُهْر، وأذهله الروع من هول ما باشره، وجلالة ما عاينه من فخـامة الخليفة وبهاء العزة. فلمـا أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منـه، انحط ساجدا إعظاما له، ثم تقدم الفتيان به إلى البـهو الذى بِجَـوْفى هذا المجلس، فـأجلسوه هناك على وسـاد مثـقل بالذهب، وأقبل نحوه الحاجب جعفر، فـلما بصر به قام إليه وخضع له وأومأ إلى تقبيل يده، فقبضها الحاجب عنه، وانحنى إليه فعانقه وجلس معه، فغبطه ووعده من إنجاز عدات الخليفة له بما ضـاعف سروره؛ ثم أمر الحاجب جعفر فصـبت عليه الخلع التى أمـر بها الخليـفة، وكـانت دُرّاعة منسوجـة بالذهب وبرنسا مثلهـا، له لوزة مفرغة من خالص التـبر مرصعة بالجـواهر والياقوت، ملأت عين العلج تجلة فخر ساجـداً وأعلن بالدعاء؛ ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً فخلع عليهم على قدر استحقاقهم؛ فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم. وخر جمـيعهم خاضعـين شاكرين، ثم انطلق الملك [أردون](1) وأصحابه وقـدم لركابه فى أول البهو الأوسط فرس من عتـاق خيل الركاب، عليـه سرج حلى، ولجـام حلى مفـرع، وانصـرف مع ابن طملس إلى قصـر الرصافـة، مكان تضييـفه وقد أعـد له كل ما يصلح لمثله من الآلـة والفرش والماعون، واستقر الملك أردون وأصحابه فيمـا لا كفاء له من سعة التضييف،

---

(1) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب.

وإرغاد المعاش، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الإسلام فيه، ما أفضوا فى التبجح به، والتحدث عنه أيامًا.

وكانت للخلفاء والشعراء بمجلس الخليفة فى هذا اليوم مقامات حسان وإنشادات لأشعار محكمة متان يطول القول فى اختيارها.

فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المردى من قصيدة طويلة:

ملك الخليفة آية الإقبال ... وسعوده موصولة بنوال[1]

فالمسلمون بعزة وبرفعة ... والمشركون بذلة وسفال

ألقت بأيديها الأعاجم نحوه ... متوقعين لصولة الرئبال

هذا أميرهم أتاه آخذا ... منه أواصر ذمة وحبال

متواضعًا لجلاله متخشعًا ... متبرعًا لما يرع بقتال

سينال بالتأميل للملك الرضا ... عزًا يعم عداه بالإذلال

لا يوم أعظم للولاة مسرة ... وأشده غيظا على الأقيال

من يوم أردون الذى إقباله ... أمل المدى ونهاية الإقبال

ملك الأعاجم كلها ابن ملوكها ... والٍ نماه الأعاجم وال

إن كان جاء ضرورة فلقد أتى ... عن عز مملكة وطوع رجال

فالحمد لله المنيل إمامنا ... حظ الملوك بقدرة المتعالى

هو يوم حشر الناس إلاّ أنهم ... لم يسألوا فيه عن الأعمال

---

(١) نفح الطيب ج١ ص ٣٩٣.

أضحى الفضاء مفعما بجيوشه والأفق أقتم أغبر السربال

لا يهتدى السارى لليل قتامه إلاّ بضوء صوارم وعوالى

وكأن أجسام الكماة تسربلت مذ غبرت منه جسوم صلال

وكأنما العقبان عقبان الفلا منقصة لتخطف الضلال

وكأن منتصب القنا مهتزة أشطان نازحةٍ بعيدة جال

وكأنما خيل التجافيف اكتست ناراً توهجها بلا إشعال

وتتبع مثل هذه الأخبار لا آخر له؛ والله المستعان.

وكان القاضى منذر بن سعيد السابق ذكره، سمع بالأندلس من عبيد الله ابن يحيى بن يحيى ونظرائه(١)، ثم رحل حاجًا سنة ثمان وثلاث مائة، فسمع من عدة أعلام، منهم محمّد بن المنذر النيسابورى، سمع عليه كتابه المؤلف فى اختلاف العلماء، المسمى بالإشراف، وروى بمصر كتاب العين للخليل عن أبى العباس بن ولاد، وروى عن أبى جعفر بن النحاس؛ وكان متفننًا فى ضروب العلوم، وغلب عليه التفقه بمذهب أبى سليمان داود بن على الأصبهانى، المعروف بالظاهرى؛ فكان منذر بن سعيد يؤثر مذهبه، ويجمع كتبه، ويحتج لمقالته، ويأخذ به فى نفسه وذويه؛ فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه، بالذى استقر عليه العمل فى بلدهم، وحمل عليه السلطان أهل مملكته.

وله تواليف مفيدة؛ منها كتاب أحكام القرآن؛ والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك فى الفقه والكلام والرد على أهل المذاهب؛ وكان خطيبًا بليغًا عالمًا

---

(١) نفح الطيب ج٢ ص ٢١.

بالجدل، حاذقًا فيـه، شديد العارضة حاضر الجواب، عتـيده، ثابت الحجة ذا شارة عجيبة، ومنظر جميل، وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب، وانحطاط لهم، وإقبـال عليهم؛ وكان مع وقـاره التام فيه دعـابة مستـملحة، وله نوادر مستحسنة، لولا السآمة لجلبنا منها طرفًا. وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر فى شهـر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاث مـائة، ولبث قاضـيًا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى وفـاته، ثم للخليفة الحكم المستنصر، إلى أن توفى رحمه الله، عـقب ذى الحجة سنة خمس وخـمسين وثلاث مئـة، رحمه الله ورضى عنه. ودفن بمقـبرة قـريش بالربض الغربى من قـرطبة، أعـادها الله، جَوْفِىَّ مسجد السيدة الكبرى بقرب داره.

قال القـاضى أبو الحسن: كان شـيخنا القـاضى أبو عبد الله بن عـياش الخزرجى يستحسن من كلام القاضى منذر قوله فى التزكية:

اعلم أنَّ العـدالة من أشد الأشيـاء تفاوتًا وتبـاينًا، ومتى حـصلت ذلك عرفت حـالة الشهود، لأن بين عـدالة أصحاب الـنبى ﷺ وعدالة التابعـيين رضى الله عنهم بَوْنًا عظيـمًا وتبـاينًا شديدًا، وبين عـدالة أهل زماننـا وعدالة أولئك مـثل ما بين السـماء والأرض؛ وعدالة أهل زمـاننا على ما هى عـليه بعيدة التـباين أيضًا. والأصل فى هذا عندى، والله الموفق، أنَّ من كـان الخير أغلب عليه من الشر، وكان متنزها عن الكبائر فواجب أن تعمل شهادته، فإنَّ الله تعالى قد أخبرنا بنص الكتاب أنَّ من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية، وقال فى مـوضع آخر: «فأولئك هم المفلحـون»؛ فمن ثقلت مـوازين حسناته بشىء لم يدخل النار؛ ومن استوت حسناته وسـيئاته لم يدخل الجنة فى زمرة الداخلين أولاً، وهم أصحاب الأعراف، فذلك عقوبة لهم، إذ تخلفوا عن أن

تزيد حسناتهم على سيئاتهم؛ فهذا حكم الله فى عباده. ونحن إنما كلفنا الحكم بالظاهر، فمن ظهر لنا أنَّ خيره أغلب عليه من شره حكمنا له بحكم الله فى عباده، ولم نطلب له علم الباطن، ولا كلفه محمّد ﷺ فقد ثبت عنه أنه قال «إنّما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحكم له على نحو مما أسمع». فأحكام الدنيا على ما ظهر، وأحكام الآخرة على ما بطن؛ لأن الله تعالى يعلم الظاهر والباطن، ونحن لا نعلم إلاّ الظاهر؛ ولأهل كل بلد قوم قد تراضى عليهم عامتهم، فبهم تنعقد منكاحهم وبيوعهم، وقد قدموهم فى المساجد ولجمعهم وأعيادهم، فالواجب على من استقصى على موضع أن يعمل شهادة أمثالهم وفقهائهم، وأصحاب صلواتهم، وإلاّ ضاعت حقوق ضعيفهم وقويهم، وبطلت أحكامه. ويجب عليه أن يسأل إن استراب فى بعضهم فى الظاهر والباطن عنهم، فمن لم يثبت عنده عليه اشتهار فى كبيرة، فهو على عدالة ظاهرة، حتى يثبت غير ذلك. انتهى.

قلت: تذكرت هنا ما رأيته بخط الأمام الحافظ سيدى أحمد الونشريشى رحمه الله على ظهر كتاب ابن الخطيب: «مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة»، وقد مدينة فيه ابن الخطيب الباع فى ذم الموثقين، وذكر مثالبهم، ونص ما ألفيته بخط المذكور:

الحمد لله. جامع هذا الكلام المقيد هنا بأول ورقة منه، قد كد نفسه فى شىء لا يعنى الأفاضل، ولا يعود عليه فى القيامة ولا فى الدنيا بطائل، وأفنى طائفة من نفيس عمره فى التماس مساوئ طائفة، بهم تستباح الفروج، وتملك مشيدات الدور والبروج، وجعلهم أضحوكة لذوى الفتك والمجانة،

وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة، سامحه الله وغفر له. قال ذلك وخطه بيمنى يديه عبيد ربه أحمد بن يحيى بن محمّد بن على الونشريشى، خار الله سبحان له، انتهى.

ولنرجع إلى ما كنا فيه من أخبار سبتة فنقول:

كان أهل سبتة[1] فى غاية الذكاء والفطنة، والعلم والمعرفة؛ وقد حكى الشيخ النظار أبو إسحاق الشاطبى فى شرحه على ألفية ابن مالك، عن شيخه أبى عبد الله الفخار، عن بعض أهل سبتة، أنَّ الشيخ أبا عبد الله بن خميس التلمسانى لما ورد على سبتة بقصد الإقراء بها؛ اجتمع عليه عيون طلبتها؛ فألقوا عليه مسائل من غوامض باب الاشتغال، فحاد عن الجواب، بأن قال لهم: أنتم عندى كرجل واحد. يعنى أنَّ ما ألقوا عليه من المسائل إنّما تلقوها من رجل واحد، وهو ابن أبى الربيع؛ فكأنه إنّما يخاطب رجلاً واحداً، ازدراء بهم. فاستقبله أصغر القوم سنا وعلما، بأن قال له: إن كنت بالمكان الذى تزعم، فأجبنى عن هذه المسائل، من باب معرفة علامات الإعراب، التى أذكرها لك؛ فإن أجبت فيها بالصواب، لم تحظ بذلك فى نفوسنا، لصغرها بالنظر إلى تعاطيك من الإدارك والتحصيل، وإنَّ أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد، وهى عشرة:

الأولى: أنتم يا زيدون تغزون.

والثانية: أنتن يا هندات تغزون.

والثالثة: أنتم يا زيدون ويا هندات تغزون.

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٥٦.

والرابعة: أنتن يا هندات تخشين.

والخامسة: أنت يا هند تخشين.

والسادسة: أنت يا هند ترمين.

والسابعة: أنتن يا هندات ترمين.

والثامنة: أنتن يا هندات تمحون أو تمحين كيف تقول.

والتاسعة: أنت يا هند تمحين أو تمحون كيف تقول.

والعاشرة: أنتما تمحوان أو تمحيان، كيف تقول.

وهل هذه الأفعال كلها مبنية أو معربة؟ أو بعضها مبنى وبعضها معرب؟ وهل كلها على وزن واحد أم على أوزان مختلفة؟ علينا السؤال، وعليك التمييز، لنعلم الجواب. فبُهِت الشيخ وشغل المحل بأن قال: إنما يسأل عن هذا صغار الولدان. فقال له الفتى: فأنت دونهم إن لم تجب. فانزعج الشيخ وقال هذا سوء أدب، ونهض منصرفا، ولم يصبح إلاّ بمقالة، ومتوجها إلى غرناظة، فلم يزل بها مع الوزير ابن الحكيم، إلى أن مات. تغمده الله برحمته. انتهى.

وأورد هذه الحكاية أيضًا عالم الدنيا، سيدى أبو عبد الله بن مرزوق[1]، فى شرحه على الألفية لابن مالك، وهو شرح متسع جدًا، وقفت منه على بعضه بتلمسان، وكان آخر السفر الأول اسم الإشارة، وذلك السفر أعظم جرما من جميع شرح المرادى؛ ونص [محل][2] الحاجة منه:

وقد حكى أنَّ بعض طلبة سبتة أورد على أبى عبد الله بن خميس عشر

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٥٧.

(٢) التكملة من نفح الطيب.

مسائل من هذا النوع، وهى: أنتم يا زيدون تغزون؛ وأنتن يا هندات تغزون؛ وأنتم يا زيدون ويا هندات تغـزون، وأنتن يا هندات تخـشـين؛ وأنت يا هند تخشين؛ وأنت يا هند ترمين، وأنتن يا هنادت ترمين، وأنتن يا هندات تمحون أو تمحين كـيف تقول. وأنت يا هند تَمْحِينَ أو تَمْحَيْن كيف تقول؛ وأنتـما تمحوان أو تمحيـان، على لغة من قال محوت كـيف تقول؟ وهل هذه الأمثلة كلها مبنـية أو معربة أو مخـتلفة؟ وهل وزنها واحد أو مخـتلف؟ قالوا: ولم يجب بشىء. قلت: فلعله استسهل أمرها.

فأما المثـال الأول فمعرب، ووزنه تَفْعُـون، إذ أصله تَغْزُوُون كتنظرون، فاسـتثـقلت ضمـة الواو، التى هى لام، فحـذفت، ثم حذفت الـواو أيضًا، لالتقـائها ساكنة مع واو الضـمير، وكـانت أولى بالحذف، لأن واو الضمـير فاعل، ولغير ذلك مما تقدم بعضه.

وأما الثانى فمبنى، ووزنه تَفْعُلْن، كَتَخْرُجْن.

وأما الثالث فكالأول إعرابًا ووزنًا، لأن فيه تغليب المذكر على المؤنث.

وأمـا الرابع فمـبنى، ووزنه تَفْعَلْـن، مثل تَفْـرَحْن لأنه لما احتـيج إلى تسكين آخر الفعل، لاستناده إلى نون جمـاعة النسوة، ردت الياء إلى أصلها، لأنهـا إنّما قلبت ألفـا لتحـركهـا وانفتـاح ما قبـلها، والآن ذهبت حـركتـها لاستحقاقها السكون.

وأما الخـامس فمعـرب، ووزنه تَفْعَـيْن، وأصله تَخْشِيـن، كتَفْـرَحِين، فقبلت الياء ألفًا، لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتقائها ساكنة مع ياء الضمير، وتركت فتحة الشين دالة على الألف.

وأما السادس فمعرب، ووزنه تَفْعِين. وأصله تَرْمِيينَ، كتضربين، حذفت كسرة الياء لاستثقالها، ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع ياء الضمير.

وأما السابع فمبنى، ووزنه تفعلن كتضربن.

وأما الثامن والتاسع، فمضارع مَحَى ورد بالأوزان الثلاثة، فمن قال يمحو [قال فى المضارع من جماعة النسوة: تمحون، مثله من غزا ناء ووزنا، ومن قال يمحى][1] قال فيه: تمحين كترمين، بناء ووزنا. ومن قال يمحى قال فيه تَمْحَين كَتَخْشَين، بناء ووزنا. ويقال فى المضارع الواحدة على اللغة الأولى تمحين كتدعين: إعرابا ووزنا وتصريفا. وقد تقدم فى كلام المصنف. وعلى الثانية، كما يقال لها من رمى إعرابًا ووزنا وتصريفًا. وعلى الثالثة كما يقال لها من تخشى أيضًا، وقد تقدما.

وليس ما وقع فى السؤال كما نقل خط بعض الشارحين أنّه يقال فيها «تَمْحَوْن» كَتَفْرَحْن بشىء.

وأمر التثنية ظاهر. انتهى بحروفه.

قلت: وقد جزم واحد بأن ابن خميس لا يجهل مثل هذه المبادئ، إذ هو من أكابر الأعلام العارفين بالنحو واللغة وغيرهما من أنواع العلوم؛ وقد نقل بعض من له خبرة بأحواله أنّه كان يحسن علم السيمياء والله اعلم.

وهو محمّد بن عمر بن محمّد بن محمّد بن عمر بن محمّد الحجرى بفتح الحاء وسكون الميم، الرعينى، نسبة إلى حجر ذى رعين. وهو من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن خميس.

---

(١) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب.

قال ابن الخطيب فى «عائد الصلة»[1]: كان رحمة الله نسيج وحده زهدا وانقباضًا وبأوا وهمة، حسن الشيبة، جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التصنع، بعيداً عن الرياء والهوى، عاملا على السياحة والعزلة، عارفا بالمعارف القديمة، مضطلعا بتفاريق النِّحَل، قائما على العربية والأصلين، طبقة الوقت فى الشعر، وفحل الأوان فى المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب.

ثم ذكر ابن الخطيب من أحواله جملة، إلى أن قال: وبلغ الوزير أبا عبد الله ابن الحكيم أنّه يروم السفر، فشق ذلك عليه، وكلفه تحريك الحديث بحضرته، وجرى ذلك. فقال الشيخ: أنا كالدم بطبعى أتحرك فى كل ربيع. انتهى.

وقال ابن خاتمة فى حقه، بعد أن وصفه بالشاعر المجيد: إنّه رحل من تلمسان بلده إلى سبتة، فأقام بها مدة، ومدح رؤساءها من بنى العزفى، ثم أجاز البحر إلى الأندلس، فاحتل بحضرة غرناطة فى أواخر سنة ثلاث وسبع مائة، فى جوار الوزير أبى عبد الله بن الحكيم، فتقارضا حلل المجد، وتباريا فى الرفد والحمد، فأدنى له ذو الوزارتين أخلاف بره وإكرامه، وخلع عليه ابن خميس أثواب نثره ونظامه، فله فيه القصائد التى حليت بها لبات الآفاق، وتنفست عنها صدور الرفاق.

وكان رحمه الله من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء، يصرف العويص، ويرتكب مستصعبات القوافى، ويطير فى القريض مطار ذوى القوادم الباسقة والخوافى، حافظا لأشعار العرب وأخبارها، له مشاركة فى العقليات،

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٠. وفى الأصل: «أدبا» مكان «بأوا» وهى رواية النفح.

واستشراف على الطلب؛ وعقد لإقراء العربية بحضرة غرناطة، وكان ما ينتحله من العلم فوق ما يحصله. ومال بأخرة إلى التصوف والتجوال، والتحلى بحسن السمت، وعدم الاسترسال، بعد طى بساط ما فرط له فى بلده من الأحوال، وكان صنع اليدين. حدثنى بعض من لقيه من الشيوخ أنّه صنع قدحا من الشمع على أبدع ما يكون، فى شكله، ولطافة جوهره، وإتقان صنعته، وكتب بدائرة شفته:

وما كنت إلا زهرة فى حديقة ... تبسم عنى ضاحكات الكمائم(1)

فقُلِّبت من طور لطور فهأنا ... أقبل أفواه الملوك الأعاظم

وأهداه خدمة للوزير أبى عبد الله بن الحكيم.

وأنشدنا شيخنا أبو البركات ابن الحاج(2) وحكى لنا، قال:

أنشدنى أبو عبد الله بن خميس وحكى لى، قال: لما وقفت على الجزء الذى ألفه ابن سبعين، يعنى أبا محمّد عبد الحق بن أحمد بن إبراهيم بن نصر، وهو الذى سماه بالفقيرية، كتبت على ظهره:

الفقر عندى لفظ دق معناه ... من رامه من ذوى الغايات عناه(3)

كم من غبىّ بعيد عن تصوره ... أراد كشف معماه فعماه

وأنشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان بن ليون غير مرة(4)، قال: سمعت أبا عبد الله بن خميس ينشد، وكان يحسب أنهما له، ويقال إنهما لابن الرومى:

---

(1) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٠.

(2) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٠.

(3) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٠.

(4) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦١.

رب قـــــوم فـى مـنـازلهـم عـــررٍ صـاروا بـهـا غـــررا

ســتــر الإحـــســـان مـــا بهم ســتـــرى لو زال مـــا ســتـــرا

ثم قال ابن خاتمة بعد كلام[1]: وقد جمع شعره ودونه صاحبنا القاضى أبو عبد الله بن إبراهيم الحضرمى فى جـزء سماه: «الدر النفيس من شعر ابن خميس»، وعرف به صدر الجزء. وقد نقلت منه هنا:

وقدم أبو عبد الله بن خمـيس ألمرية سنة ست وسبع مائة، فنزل بها فى كنف القائد الحاضـر بها حينئذ، أبى الحسن بن كمـاشة، من خدام الوزير أبى عبد الله ابن الحكيم، فوسع له فى الإيثار والمبرة، وبسط له وجه الكرامة طلق الأسرة؛ وبها قال فى مدح الوزير أبى عبد الله بن الحكيم قصيدته التى أولها:

العـــشى تعـــيـــا والنـوابغ عن شـكـر أنعـــمك الـســـوابغ

ووجه بها إليه من ألمرية. ومنها:

ودســائع ابن كــمـــاشـــة مـع كـل بـازغـــــة وبـازغ

تأتـى بما تـهـــوى الـنغـــا نع من شـــهـــيـــات اللغـــالغ

ويقال إن الوزير أبا عبـد الله بن الحكيم اقترح عليه أن ينظم له قـصيدة هائية فابتدأ منها مطلعها وهو قوله:

لمن المـنازل لا تجـــيب صـــداها مـحـيت مـعـالمهـا وصم صـدها

وذلك فى أواخر شهر رمضان من سنة ثمان وسبع مئة. ثم لم يزد على ذلك إلى أن توفى، فكان آخر ما صدر عنه من الشعر، وقد أشار معناه، وقد آذن أولاه بحضور أخـراه، فكانت وفاته بحضـرة غرناطة قتيـلا، ضحوة يوم

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦١.

الفطر، مستهل شوال سنة ثمان وسبع مائة وهو ابن نيف وستين سنة، وذلك يوم مقتل مخدومه الوزير أبى عبد الله بن الحكيم، أصابه قاتله لحقده على مخدومه. ويقال إنه لما هم به قاتله قال له: أنا دخيل رسول الله ﷺ فلم يلتفت إليه وجعل يجهز عليه فقال له: لم لم تقبل الدخيل بينى وبينك؟ فكان آخر ما سمع منه: ﴿... أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ...(٢٨)﴾ [غافر] ثم إنّه استفاض بذلك من حال القاتل أنّه هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه، فكان يصح ويستغيث: ابن خميس يطلبنى ابن خميس يعذبنى ابن خميس يقتلنى. وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال.

نعوذ بالله من المورطات، ومواقعات العثرات. انتهى كلام ابن خاتمة.

وحكى غيره أنَّ تلك القصيدة نظمه ليهنئ بها ابن الحكيم فى ذلك العيد الذى قتل فيه، فلم يقدر على زيادة شيء، فلما قتل كتب بعضهم بعد قوله:

* لمن المنازل لا تجيب هواها *

لابن الحكيم.

ونقل غير واحد فى شأن قاتله خلاف ما حكاه ابن خاتمة. والله أعلم.

ومن مشهور نظمه رحمه الله قصيدته التى أولها:

مشوق زار ربعك يا أماما   محا آثار دمنتها الشآما

تتبع ريقه الطل ارتشافا   فلا نفعت ولا نقعت أواما

وهى طويلة ولكنها من غرر القصائد يمدح بها أبا سعيد بن عامر ويذكر الوشحة الواقعة بينه وبين أبى بكر بن خطاب.

ومن بديع شعره قوله مطلع قصيدة[1]:

تراجع من دنياك ما أنت تارك ونسألها العتبى وها هى فارك
تؤمل بعد الترك رجع ودادها وشر وداد ما تود الترائك
حلالك منها ما حلالك فى الصبا فأنت على حلوائه متهالك
تظاهر بالسلوان عنها تجملا فقلبك محزون وثغرك ضاحك
تنزهت عنها نخوة لا زهادة وشعر عذارى أسود اللون حالك

وهى من القصائد الطنانة، وتركتها لطولها؛ وفى آخرها يقول:

فلا تَدْعوَنْ غيرى لدفع ملمة إذا ما دهى من حادث الدهر داهك
فما إن لذاك الصوت غيرى سامع وما إن لبيت المجد بعدى سامك
يغص ويشجى نهشل ومجاشع بما أورثتنى حمير والسكاسك
تفارقنى الروح التى لست غيرها وطيب ثنائى لاصق بى صائك
وماذا عسى ترجو لذاتى وأرتجى وقد شمطت منى اللحى والأفانك
يعود لنا شرخ الشباب الذى مضى إذا عاد للدنيا عقيل ومالك

ومما اشتهر من نظمه قوله[3]:

أرق عينى بارق من أثال كأنه فى جنح ليلى ذبال
أثار شوقا من صميم الحشى وعبرتى فى صحن خدى أسال

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٢.
(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٢.
(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٣.

حكى فــؤادى قلقـا واشـتـعـال — وجـفن عـينى أرقـا وانهـمـال

جــوانـح تلفـح نيـــرانـهـــا — وأدمع تـنهل مـــثل الـعـــزال

قـولوا وشـاة الحب مـا شـئـتم — مـا لذة الحب سـوى أن يقـال

أعــــذر لـوامى ولا عـــــذر لى — فـــزلة الـعـــالم مـــا إن تـقـــال

قم نـطرد الهـم بمشــمـــولة — تقـــصـــر اللـيل إذا الليـل طال

وعـــاطهـــا صـــفــراء ذمـيــة — تمنعـــهـــا الـذمـــة من أن تـنال

كـالمسك ريحـا واللـمى مطعـمـا — والتـبـر لونا والهـوا فى اعـتـدال

عـتـقـهـا فى الدن خـمـــارها — والبكر لا تعـرف غـيـر الحـجـال

لا تـثـقب المصـبـاح لا واسـقنى — على سنى الـبـرق وضـوء الهـلال

فـــالعـــيـش نوم والردى يقـظة — والمرء مـــا بينهـمـــا كـالخـيـال

خـــذها على تنعـيم مـــسطارها — بين خــــوابيــهـــا وبـين الدوال

فى روضــــة باكـر وســمـيــهـا — أخــــــمل دارين وأنسـى أوال

كــأن فـأر المسـك مـفـتـوقـة — فـيهـا إذا هبت الصبـا أو شمـال

من كف سـاجى الـطرف ألحـاظه — مــفـــوقـــات أبـدًا للنضــــال

من عـــذارى والكل لى عـــاذر — من حـسن الوجـه قـبيح الفـعـال

من خلبى الوعــــد كَـــذَّابِه — لَيَّــانَ لا يعـــرف غــيــر المطال

كـــأنـه الدهـر وأى امــــرئ — يبـقى على الـدهر إذا الدهر حـال

أمــــا ترانى آخــــذا ناقـــضـــا — عليـه مـا سـوغنى من مـحــال

ولم أكن قط له عائبا كمثل ما عابته قبلي رجال
يأبى ثراء المال علمي وهل يجمع الضدان علم ومال
وتأنف الأرض مقامي بها حتى تهاداني ظهور الرحال
لولا بني زيان ما لَذَّ لي الـ ـعيش ولا هانت على الليال
هم خوفوا الدهر وهم خففوا على بني الدنيا خطاه الثقال
ألفيت من عامرهم سيدا غمر رداء الحمد جم النوال
وكعبة للجود منصوبة يسعى إليها الناس في كل حال
خذها أبا زيان من شاعر مستعذب النزعة عذب المقال
يلتقط الألفاظ لقط النوى[1] وينظم الآلاء نظم الآل
مجاريا مهيار في قوله «ما كنت لولا طمعي في الخيال»

ومطلع قصيدة مهيار التي عارضها ابن خميس هو قوله[2]:

ما كنت لولا طمعي في الخيال أنشد ليلي بين طول الليال

وربما يهجس في خاطر من يرى وصف هؤلاء الأئمة للخمر وغيرها، أنَّ ذلك منهم على حقيقته، حاشاهم من ذلك، وإنما مقصدهم بذلك خلاف ما يتوهم، فلا يساء بهم الظن، فإن العذر لهم في مثل ذلك بَيِّن، واعتقاد براءتهم من هذا الشين مُتَعَيِّن، ويرحم الله شيخ الشيوخ ولي الله الرباني الشهير البركات سيدي أبا مدين شعيبا أفاض الله علينا من أنواره إذ يقول على ما نسبه له بعض الأئمة:

---

(١) رواية الأصل: «يلتفظ» «لفظ» بالفاء والظاء والمثبت رواية النفح ٥/ ٣٦٤.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

بكت السحاب فأضحكت لبكائها | زهر الرياض وفاضت الأنهار[1]
وقد أقبلت شمس النهار بحلة | خضراء وفى أسرارها أسرار
وأتى الربيع بخيله وجنوده | فتمتعت فى حسنه الأبصار
والورد نادى بالورود إلى الجنى | فتسابق الأطيار والأشجار
والكأس ترقص والعقار تشعشعت | والجو يضحك والحبيب يزار
والعود للغيد الحسان مجاوب | والطار أخفى صوته المزمار
لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا | مزمارنا التسبيح والأذكار
وشرابنا من لطفه وغناؤنا | نعم الحبيب الواحد القهار
والعود عادات الجميل وكاسنا | كاس الكياسة والعقار وقار
فتألفوا وتطيبوا واستغنموا | قبل الممات فدهركم غدار
والله أرحم بالفقير إذا أتى | من والديه فإنه غفار
ثم الصلاة على الشفيع المصلى | ما رنمت بلغاتها الأطيار

وقد تذكرت بلامية ابن خميس المذكورة قصيدة على رويها ووزنها أولها قوله:

ما حال من فارق ذاك الجمال | وذاق طعم الهجر بعد الوصال

وهى من نظم الشيخ العارف الصالح سيدى إبراهيم التازى رضى الله عنه رأيت أن أذكرها هنا كفارة لما يتوهمه السامع فى لامية ابن خميس، وقد كنت رأيت بتلمسان تخميسا لبعض الأكابر على قصيدة سيدى إبراهيم هذه،

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٤٣.

وأنشدته الشيخ مولانا العم شيخ الإسلام، سيدى سعيد بن أحمد المَقَّرِىّ رضى الله عنه فانفعل لذلك غاية واهتز وهأنا أذكر القصيدة ضمن التخميس وهو:

بدت كـغـصن ناعم فى اعـتـدال
وأبدلـت وصلـى بصـــاد ودال
قلت كـصب عـاشق حـيث قـال
مـا حـال من فـارق ذاك الجـمـال وذاق طعم الهـجـر بعـد الوصـال

صب صـبا من وجـد لحظ الرشـا
من حــبــه عن لبــه يـنتـشى
وســره بدمــعـى قــد فـشـا
والعــــقل منه ذاب والحـــشى ملتـهب والجـسـم يحكى الخـيـال

شـأنى بهـا مـا دمت فى رقـهـا
راق ولا رغـبــة فى عـتـقــهـا
دمت لهـا عـبـدا ومن حـقـهـا
أبيت أرعى الـنجم فى أفــقـهــا ولـيـل أهل الحـب رحـب طـوال

جـاء بهـا التنصـيص فى جـملتى
أقـضى بـهـا فـرضى وهـى ملتى
نأت بصـبرى صحت واخـجلتنى
والدمـع كــالمدرار مـن مـقلـتى يجـرى على الوجنة يا للـرجـال

مـا عـمـرت لـى بالهـوى راحـة
من بعــدها ولا خلـت ســاحــة
من حــسـنهـا إذا هى وضــاحـة
وليـس لى عـــيش ولا راحــــة   والحال يغـنى ذا الحجا عــن سؤال
الوصل قـــد أبدى لنا حـــسنه
والبـــعـــد قـد أبـدى لنا شـــينه
قـــولوا لمن ليـل الهـــوى جَنَّهُ
يـا قـــــــبـح الله النـوى إنــه   قــتل بلا ســيف وداء عــضـــال
إلفى مـــذ حل بقـلبى قــضى
أعـــــاد الله لنـا بالـرضـــا
بطـالع الســعــد ونور أضـــا
ويا رعـى الله زمـــانا مـــضى   بـالأنس فـى وارف تلـك الظـلال
لله أطلال بـهـــا خـــيــمت
فكم بـهـــا من أمـــة أحـــرمت
ويا رعى الله بـهـا مـا حـمت
ظلال تيـــمـــاء الـتى تيــــمت   قلبى وخلـت مـهـجـتى فى نكال
نلت لـذيذ الوصـــال فى تربهـــا
لو دام مـا غـــيبت عن قـــربهـا

فكيف لا أعلن من حبها

آها لها من لي بأنس بها خوف الوجى ما بين تلك الجبال

تلك الربوع فاز من حلها

وعقدة الإبعاد قد حلها

من لي بقرب أجتني وصلها

ألزمها أبث أمري لها أنعم الطرف بذاك الجمال

ما فاز إلاّ من غدا خلها

ومن أتاها قاصدا أهلها

يا عاشقين استعطفوا دلها

لله ما أحسن خالاً لها تقبيله المحظور عين الحلال

نفسي فدا من حل في ركبها

ومرغ الخدين في تربها

ونال ظل الأمن في حزبها

وما ألذ العيش في قربها في ريه بذل العطا والنوال

يأهل ذاك المنصب المولوي

عن حبكم قلبي ما يرعوي

لأني من مائكم أرتوي

يا سادتي يا صفوتي يا ذوي بري وشكري يا كرام الفعال

كم بت ليلى بكم ساهرا

سامرت فيه كوكبا زاهرا

وصرت من شوقى لكم ذاكرا

كان سرورى بكم وافرا   وبدر سعدى مشرقا فى كمال

فهأنا اليوم أعانى العنى

وظل أمنى كان فى المنحنى

وبدر سعدى ناظم شملنا

فانخسف البدر وراح الهنا   ما كان ذا يخطر منى ببال

يا من بدا قلبى بهم مغرما

من أجل خود حسنها قد سما

من لى بها أرشف ذاك اللمى

يا جيرة الحى وأهل الحمى   أنتم منى القلب على كل حال

كانت بكم فى الهوى نزهة

فصرت أبكى إذ بدت وحشة

وهأنا لم ترق لى دمعة

وليس بى صبر ولا سلوة   عنكم ولو شط المدى واستطال

يا من بهم قلبى غدا مولعا

وحق من طاف ومن قد سعى

مـا العـبـد إلاّ صـادق مـا ادعى

فارعـوا ذمامى واجهـدوا فى الدعا   للمـدنف المضنى عسى ذو الجـلال

مـتى أرى ركـبى بـهم قـافـلا

وربعـكم أضـــــــحى به آهـلا

فـالله أرجـــو داعـيًـا سـائلا

أن يجـمع الشـمـل بكم عـاجـلا   فى ذلك المـغنى العـديم المثـال

ومن نظم ابن خميس التلمسانى المذكور قوله:

نظرت إلـيك بمثل عـينى جـؤذر   وتبسـمت عن مثل سـمطى جوهر

عن ناصعٍ كـالـدر أو كـالبـرق أو   كـالطلع أو كـالأقـحوان مـؤشـر

تجـرى علـيـه من لماها نـطفـة   بل خـمـرة لكنهـا لم تعـصـر

لو لم يكن خـمرًا سـلافًـا ريقهـا   تزرى وتـلعب بـالنـهى لم تحـظر

وكذلك ساجى جـفنها لو لم يكن   فـيـه مـهنـد لحظهـا لم يـحـذر

لو عجت طرفك فى حديقة خدها   وأمنت سـطوة صـدها المتـنمـر

لرتعت مـن ذاك الحـمى فـى جنةٍ   وكـرعت من ذاك اللمى فى كـوثر

طرقـتـك وهنًا والنجـوم كـأنهـا   حـصـبـاء در فى بسـاط أخـضـر

والركب بين مـصـعـدٍ ومـصـوبٍ   والنـوم بين مـسكـن ومنفـر

بيضـا إذا اعتكرت ذوائب شـعرها   سـفرت فـأزرت بالصـبح المسفـر

سـرحت غلائلهـا فـقلت سبيكة   من فـضـة أو دمـيـة من مـرمـر

منحتك ما منعتك يقظانًا فلم ... تخلف مواعيدها ولم تتغير
وكأنما خاف بغاة وشاتها ... فأتتك من أردافها فى عسكر
ويجزع ذاك المنحنى إدمانةٌ ... تعطو فتسطو بالهزير القسور
وتحية جاءتك فى طى الصبا ... أزكى وأعطر من شمم العنبر
جرت على واديك فضل ردائها ... فعرفت فيها عرف ذاك الإذخر
هاجت بلابل نازحٍ عن إلفه ... متشوقٍ ذاكى الحشى متسعر
وإذا نسيت ليالى العهد التى ... سلفت لنا فتذكريها تذكرى
رحنا تغنينا ونرشف ثغرها ... والشمس تنظر مثل عين الأخزر
والروض بين مفضض ومعسجدٍ ... والجو بين ممسك ومعصفر

وقد تذكرت بهذه القصيدة قول الأديب ابن مرج الكحل[1]:

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر ... بين الفرات وبين شط الكوثرِ
ولتغتبقها قهوةً ذهبيةً ... من راحَتَىْ أحوى المراشف أحور
وعشيةٍ قد كنت أرقب وقتها ... سمحت بها الأيام بعد تعذر
نلنا بها آمالنا فى روضةٍ ... تهدى لناشقها شميم العنبر
والدهر من قدم يسفه رأيه ... فيما مضى منه بغير تكدر
والورق تشدو والأراكة تنثنى ... والشمس ترفل فى قميص أصفر
والروض بين مفضضٍ ومعسجدٍ ... والزهر بين مدهم ومدنر

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥١.

والنهــر مـرقـوم الأبـاطح والربا بمصندل مـن زهره ومـعـصـفـر
وكــأنه وكــأن خــضــرة شطه سـيف يسل على بسـاط أخـضـر
وكــأنما ذاك الحـبـــاب فــرنده مهـما طفـا فى صفـحه كـالجوهرِ
وكـأنـه وجـهـاته مــحـفـوفـة بالآس والنعــمـان خـد مــعـذرِ
نهــر يهـيم بـحـسنه مـن لم يهم ويجـيد فيـه الشعـر من لم يشـعرِ
ما اصفر وجه الشمس عند غروبها إلاّ لفــرقــة حــسن ذاك المـنظرِ

وما أحسن قول ابن الكحل المذكور(١):

رأوا بالجـزع برقًـا فـاسـتـهـامـوا ونام الـعـــاذلون ولم يـنامـــوا
وعندى من مـراشــفـهـا حـديث يخـــبـــر أنَّ ريقــهـــا مـدام
وفى أجــفـانـهـا السكرى دليل ومــا ذقـنا ولا زعم الهـــمــامُ
تعــالى الله مـا أجـرى دمــوعى إذا عــرضـت لمقلتى الخـــيــامُ
وأشـــجـــانى إذا لاحـت بروق وأطربـنى إذا غنـى الحـــمـــامُ

وكان السلطان أبو عنان المرينى رحمه الله كـثير الاعتناء بنظم الشيخ أبى عبد الله بـن خميس وحفظه وروايتـه. قال رحمه الله: أنشـدنى بلفظه الشيخ الفقيـه القاضى المحدث، الراوية العالم المدرس، خطيب حـضرتنا العلية، أبو عبد الله محمّد بن الشيخ الأجل، الصالح المبارك الراوية، المرحوم أبى الحسن ابن عبد الرزاق وذلك بقصر المصارة يمنه الله فى يوم الاثنين خامس عشر من شهر المحرم المبارك مـفتتح عام خمسة وخمسين وسبع مـئة؛ قال أنشدنا شيخ

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥٣.

الأدباء، وفحل الشعراء، أبو عبد الله محمّد بن عمر بن محمّد بن خميس الحميرى، ثم الحجرى: حجر ذى رعين، لنفسه، رحمه الله تعالى:

أنبت ولكن بعد طول عتاب ... وفرط لجاجٍ ضاع فيه شبابى
وما زلت والعليا تُعَنِّى غريمها ... أعلل نفسى دائمًا بمتابِ
وهيهات من بعد الشباب وشرخه ... يلذ طعامى أو يسوغ شرابى
خدعت بهذا العيش قبل بلائه ... كما يخدع الصادى بلمع سرابِ
تقول هو الشهد المشور جهالةً ... وما هو إلاّ السم شيب بصابِ
وما صحب الدنيا كبكرٍ وتغلبٍ ... ولا ككليب رىء فحل ضرابِ
إذا كعت الأبطال عنها تقدموا ... أعاريب غراء فى متون عرابِ
وإن ناب خطب أو تفاقم معضل ... تلقاه منهم كل أصيد نابِ
تراءت لجالسٍ مخيلة فرصةٍ ... تأتت له فى جيئة وذهابِ
فجاء بها شوهاء تنذر قومها ... بتشييد أرجامٍ وهدم قبابِ
وكان رغاء السقب فى قوم صالح ... حديثًا فأنساه رغاء سرابِ
فما تسمع الآذان فى عرصاتهم ... سوى نوح ثكلى أو نعيب غرابِ
وسل عروة الرحال عن صدق بأسه ... وعن بيته فى جعفر بن كلابِ
وكانت على الأملاك منه وفادةٌ ... إذا آب منها آب خير مآبِ
يجير على الحيين قيس وخندف ... بفضل يسار أو بفصل خطابِ

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٦.

زعـامــة مـرجـو النـوال مـؤمل وعزمـة مسـموع الدعـاء مجـيبِ
فـمـر يزجـيـهـا حـواسـر ظلعًـا بما حـملوهـا من منى ورغـابِ
إلى فـدكٍ والموت أقـرب غـايةً وهذا المنـى يأتى بكل عـجـابِ
تبرض صفو العيش حـتى استشفه فـداف له البـرض قشب حـبابِ
فـأصـبح فى تلك المعـاطف نهـزةً لنهـب ضـبـاع أو لنـهش ذئابِ
ومـا سـمـه عند النضـال بأهزعٍ ولا سـيـفـه عند المصـاع بنابى
ولكنهـا الدنيـا تكر علـى الفـتى وإن كـان منهـا فـى أعـز نصـابِ
وعـادتهـا ألا تـوسط عنـدها فـإمـا سـمـاء أو تخـوم ترابِ
فـلا ترج من دنيـاك وداً وإن يكن فـمـا هو إلاّ مـثل ظل سـحـابِ
ومثال الحزم كل الحـزم إلاّ اجتنابها فأشـقى الورى من تصطفى وتحابى
أبيت لهـا ما دام شخـصى أن ترى تمر بـبـابـى أو تطـور جنـابى
فكم عطـلت من أربع ومـلاعبٍ وكم فَـرَّقت من أسـرةٍ وصحـابِ
وكم عـفـرت حـاسـر ومـدجج وكم أثكلت من مـعصـر وكعـابِ
إليك بنى الدنا نصـيـحـة مشـفق عليكـم بصـيرٍ بالأمـور نقـابِ
طويل مـراس الدهر جـزلٍ مماحك عريض مـجال الهم حـلس ركابِ
تأتت لـه الأوهام أدهم سـابقًـا وغـصت به الأيام أشـهب كـابى
ولا تحسبـوا أنى على الدهر عاتب فـأعظم مـا بى مـنه أيسـر مـابى
ومـا أسـفى إلاّ شـبـاب خلعتـه وشـيب أبى إلاّ نصـول خـضـابِ

وعـمر مـضى لم أحل منه بطائل ... سـوى ما حـلا من لوعة وتصـابى
ليـالى شـيطانـى على الغى قـادرٌ ... وأعـذب مـــا عندى أليـم عـذابِ
عكسنا قـضايانا على حكم عـادنا ... ومـا عكسـهـا عند النهى بصـوابِ
على المصطفى المختـار أزكى تحينى ... فـتلك التى أعـتـد يوم حـسـابى
فـتلك عـتـادى أو ثناء أصـوغـه ... كـدر سـحـاب أو كـدر سـخـابِ

ومن مشهور نظم ابن خميس رحمه الله تعالى[1]:

عـجبًـا لهـا أيذوق طعم وصالهـا ... من ليس يـأمل أن يمـر ببـابهـا
وأنا الفـقـيـر إلى تعلة سـاعـةٍ ... منهـا وتمنعنى زكـاة جـمـالـهـا
كم ذاد عن عـينى الكرى مـتـألق ... يبـدو ويخـفى فى خـفى مطالهـا
يسـمـو له بدر الدجى مـتضـاءلا ... كـتـضائل الحـسناء فـى أسمـالهـا
وأين السـبـيل يجىء يقـبس نارها ... ليـلا فـتـمنحنـى عـقـيلة مـالهـا
يعـتادنـى فى النوم طيف خـيالهـا ... فـتـصـيـبنى ألحـاظهـا بنبـالهـا
كم لـيلـةٍ جـــاءت بـه فكـأنما ... زفت علـى ذكـــاء وقت زوالـهـا
أسـرى فعطلـها وعطل شـهـبهـا ... بأبى شـــذا المعطار من مـــعطارها
وسـواد طرتـه كـجنح ظلامـــهـا ... وبيـاض غـــرته كـضـوء هـلالهـا
دعنـى أشم بالوهـم أدنى لمعـــةٍ ... من ثغـرها وأشم مـسكة خـالهـا
مـا راد طرفى حـقـيـقـة خـدها ... إلاّ لفـــتـنتـــه بحـــسـن دلالهـا

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٨.

أنسيب شعرى رق مثل نسيمها فشمول راحك مثل ريح شمالها
وأنقل أحاديث الهوى وأشرح غريـ ـب لغاتها واذكر ثقات رجالها
وإذا مررت برامةٍ فتوق من أطلائها وتمس فى أطلالها
وانصب لِغُزّلِهَا حِبالة قانصٍ ودع الكرى شَرَكًا لصيد غزالها
وأسل جداولها بفيض دموعها وانضح جوانحا بفضل سجالها
أنا من بقية معشر عركتهم هذى النوى عرك الرحى بثفاله
أكرم بها فئة أريق نجيعها بغيا فراق العين حسن مآلها
حلت مدامة وصلها وحلت لهم فإن انتشوا فبحلوها وحلالها
بلغت بهرمس غاية ما نالها أحد وناء لها لبعد منالها
وعدت على سقراط سؤرة كأسها فَهُرِيق ما فى الدن من جريالها
وسرت إلى فاراب منها نفحة قدسية جاءت بنخبة آلها
ليصوغ من ألحانه فى حانها ما سوغ القسيس من أرمالها
وتغلغلت فى سهر ورد فأسهرت عينًا يؤرقها طروق خيالها
فخبا شهاب الدين لما أشرفت وخوى فلم يثبت لنور جلالها
ما جن مثل جنونه أحد ولا سمحت يد بيضا بمثل نوالها
وبدت على الشوذى منها نشوة ما لاح منها غير لمعة آلها
بطلت حقيقته وحالت حاله فيما يعبر عن حقيقة حالها
هذى صبابتهم ترق صبابةً فيروق شاربها صفاء زلالها

اعلم أبا الـفـضل بن يحـيى أننى		من بعـدها أحـرى عـلى آمـالهـا
فـإذا رأيت مـدلهـا مـثلى فـخـذ		فى عـــذله إن كنت من عـذالـهـا
لا تعـــجبن لما ترى من شـــأنهـــا		فى حلهـا إن كـــان أو ترحـالهـا
فـصلاحـهـا بفـسـادها ونعيـمهـا		بعـــذابهـا ورشـــادها بضـلالـهـا
ومن العـــجـائب أن اقـيـم ببلدة		يومًـا وأسلم مـن أذى جـهـالهـا
شـغلوا بدنيـاهـم أمـا شـغلتـهم		عنى فكم ضـيـعت من اشـغالهـا
حجـبوا بجهلـهم فإن لاحت لهم		شمس الهـدى عبثوا بضـوء ذبالها
وإن انتـسـبت فـإننى من دوحـة		يتـفـيـأ الإنسـان برد ظلالـهـا
من حميـر من ذى رعين من ذوى		حـجـر من العظمـاء من أقيـالهـا
وإذا رجـعت لطينتى مـعنى فـمـا		سلســاله بأرق من صـلصـالهـا
لله درك أى نجل كـــــريـمــــة		ولدت فـاس منك بعـد حـيـالهـا
ولأنت لا عـدمتك والـد فخـرها		وسـمـاك سؤددها وبـدر كمـالهـا
اغلظ على مـن عـاث من أنذالهـا		واخـــشع لمن تلقـــاه من أبدالهـا
والبس بما أوليـتـهـا من نعـمـة		حلل الـثناء وجـر من أذيـالهـا
خـذها أبا الفضل بن يحـيى تحفـة		جـاءتك لـم ينسج على منـوالهـا
مـا جاء فى مـضمـارها شعـر ولا		سـمعت قـريحـة شـاعرٍ بمثـالهـا
وأنل أبا البـركـات مـن بركـاتهـا		وادفع مـحـال شكـوكـه من آلهـا

قال السلطان أبو عنان رحمه الله[1]: أخبرنا شيخنا الإمام العالم العلامة، وحيد زمانه، أبو عبد الله محمّد بن إبراهيم الآبلى رحمه الله قال:

لما توجه الشيخ الصالح الشهير أبو إسحاق التنسى من تلمسان إلى بلاد المشرق، اجتمع هناك بقاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد، فكان من قوله له: كيف حال الشيخ العالم أبى عبد الله بن خميس؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف، ويطنب فى ذكر فضله، فبقى الشيخ أبو إسحاق متعجبًا، وقال: من يكون هذا الذى حليتموه بهذا الحلى ولا أعرفه ببلدى؟ فقال له هو القائل:

«عجبًا لها أيذوق طعم وصالها»

قال: فقلت له: إنَّ هذا الرجل ليس هو عندنا بهذه الحالة التى وصفتم، إنّما هو عندنا شاعر فقط. فقال له: إنكم لم تنصفوه، وإنه لحقيق بما وصفناه.

قال السلطان أبو عنان: وأخبرنا شيخنا أبو عبد الله المذكور أنَّ قاضى القضاة ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له، تعلو موضع جلوسه للمطالعة، وكان يخرجها من تلك الخزانة ويكثر تأمله والنظر فيها.

ثم قال السلطان أبو عنان[2]: قال لنا شيخنا أبو عبد الله الآبلى المذكور:

وقد تعرفت أنّه لما وصلت هذه القصيدة إلى قاضى القضاة تقى الدين المذكور لم يقرأها حتى قام إجلالا لها. انتهى.

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٦٩.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٣٧٠.

وقد وصل ابن خميس رحمه الله هذه القصيدة إلى قاضى القضاة بنثر لم أثبته هنا لطوله، ولما قيل إنَّ هذا الرجل معرى النزعة، أى نظمه أحسن من نثره؛ وقد أوردها ابن الخطيب فى الإحاطة وأوردها السلطان أبو عنان فى مروياته.

وكان ابن خميس بعد مفارقته بلده تلمسان، سقى الله أرجاءها أنواء نيسان، كثيرا ما يتشوق لمشاهدها، ويتأوه عند تذكره لمعاهدها، وهى شيمة الأحرار فى حنينهم إلى أوطانهم وللدهر إحلاء وإمرار.

فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى[1]:

تلمسان لو أنَّ الزمان بها يسخو ... منى النفس لا دار السلام ولا الكرخُ

ودارى بها الأولى التى حيل دونها ... مثار الأسى لو أمكن الحِنَقَ اللَّبْخُ[2]

وعهدى بها والعمر فى عنفوانه ... وماء شبابى لا أجين ولا مطخُ[3]

قرارة تهيام ومغنى صبابةٍ ... ومعهد أنس لا يلذ به لطخُ

إذ الدهر مثنى العنان منهنه ... ولا ردع يثنى من عنان ولا ردخُ[4]

ليالى لا أصغى إلى عذل عاذل ... كأن وقوع العذل فى أذنى صمخُ

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٧٠ وبهامشه: «وهى قصيدة مليئة بالغريب تعمدا ولذا احتاجت ألفاظها إلى شرح؛ فاضطررنا إلى الخروج عن خطتنا فى الإقلال من الشروح اللفظية وهى نفس الخطة التى اتبعناها.

(٢) اللبخ: الاحتيال.

(٣) المطخ: ما يبقى فى الحوض والغدير من الماء الذى فيه الدعاميس، لا يقدر على شربه.

(٤) الردخ: الردع.

مــعـــاهد أنس عطلـت فكأنهـــا ظواهر ألفــاظٍ تعــمـدهـا النسخُ
وأربع أُلأَّف عــفـــا بعض آيهـــا كما كـان يعرو بعض ألواحنا اللطخُ
فـمن يك سكرانًا من الوجد مـرةً فـــإنى منه طول دهرى لملتخ[1]
ومن يقـــدح زندًا لموقـــد جـذوة فـزند اشتـياقى لا عـفار ولا مـرخ
أأنسى وقوفى لاهـيا فى عراصـها ولا شـاغـل إلاّ التـودع والسـبخ
وإلاّ اختـيالى ماشـيا فى سمـاطها رخـيا كـمـا يمـشى بطرته الرخ[2]
وإلاّ فـعدوى مـثل ما ينفـر الطلا وليدا وحجلى مثل ما ينهض الفرخ
كـأنى فـيـهـا أردشـيـر بن بابك ولا ملك لى إلاّ الشـبيـبة والشـرخ
وإخـوان صـدق من لداتى كـأنهم جـآذر رمل لا عجـاف ولا بزخ[3]
وعـاة لما يلقى إلـيـهم من الهـدى وعن كل فـحشـاء ومنكر صلخ[4]
هم القوم كل القيوم سيان فى العلا شبابهم الفرعـان والشيخة السلخ[5]
مـضوا ومـضى ذاك الزمان وأنسـه ومـر الصبـا والمال والأهل والبـذخ
كأنهم لم يكن يوما لأقـلامهم بها صرير ولم يسمع لأكعابهم جبخ[6]
ولـم يك فى أرواحــهـا مــن ثنائهم شميم ولا فى القضب من لينهم ملخ[7]

(١) الملتخ: الذى اشتد سكره.

(٢) الرخ: حجر حر الحركة من أحجار الشطرنج.

(٣) الأبزخ: المقعنس، أى الذى برز صدره ودخل ظهره.

(٤) الصلخ: جمع أصلخ وهو التام الصمم.

(٥) الفرعان: الطويل الشعر، والسلخ: الصلع.

(٦) الجبخ: قعقعة الكعاب فى المسير.

(٧) الملخ: الطراوة والتثنى.

ولا فى محيا الشمس من هديهم سنى ... ولا فى جبين البدر من طيهم ضمخ
سعيتم بنى عمور فى شت شملنا ... فما تَجْرُكم ربح ولا عيشنا ربخ[1]
دعيتم إلى ما يرتجى من صلاحكم ... فردكم عنه التعجرف والجمخ[2]
تعاليتم عجبا فطم عليكم ... عباب له فى رأس عليائكم جلخ

وهى طويلة جدا، ألم فيها بمدح سبتة وملوكها بنى العزفى، فقال[3]:

تركت لمينا سبتة كل نُجْعَةٍ ... كما تركت للعز أهضابها الشمخ
وآليت ألاَّ أرتوى غير مائها ... ولو حل لى فى غيره المن والمذخ[4]
وألا أحط الدهر ألاَّ بعقرها ... ولو بوأتنى دار إمرتها بلخ
فكم نقعت من غلة تلكم الأضا ... وكم أبرأت من علة تلكم اللبخ[5]
وحسبى منها عدلها واعتدالها ... وأبحرها العظمى وأريافها النفخ
وأملاكها الصيد المقاولة الألى ... لعزهم تعنو الطراخمة البلخ[6]
كواكب هدى فى سماء رياسة ... تضئ فما يدجوا ظلال ولا يطخو[7]
ثواقب أنوارها ترى كل غامض ... إذا الناس فى طخياء غبها التخوا[8]

(١) الربخ: الوقوع فى الشدة.
(٢) الجمخ: العجرفة.
(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٣٧٣.
(٤) المذخ: نوع من العسل.
(٥) الأضاة: الغدير أو البحيرة، واللبخ نوع من الشجر ينفع ورقه فى التداوى.
(٦) الطراخمة: المتكبرون. البلخ: المتعجرفون.
(٧) طخا الضلال: اشتدت ظلمته.
(٨) الطخياء: الظلمة الشديدة. التخ: حَارَ واضطرب.

وروضـــات آداب إذا مـــا تأرجت تضاءل فـي أفياء أفنانهـا الرمخ[1]
مـجـامـر ند فـي حـدائق نرجس تنم ولا لـفح يصـــيب ولا دخ[2]
وأبحـــر علم لا حـــيـــاض رواية فيكبر منها النضح أو يعظم النضخ
بنو العـزفيين الألى مـن صدورهم وأيديهم تملا القراطيس والطرخ[3]
إذا مـا الفـتى منهم تصـدى لغـاية تأخرت من ينحو وأقصر من ينخو
رياسـة أخـيـار وملك أفـاضل كرام لهم فى كل صـالحة رضخ[4]
إذا مـــا بدا منا جـفـــاء تعطفـوا علينـا وإن حلت بنا شــدة رخـوا
نزورهم حُـذًّا نحـــافـــا فننـثنى وأجـمـــالنا دلح وأبـداننا دلخ[5]
يربـوننـا بالعـلم والحلـم والنـهى فمـا خرجنا بز ولا حـدنا برخ[6]
وما الزهد فى أملاك لخم ولا التقى ببـدع ولـلدنيـا لزوق بمـن يرخـو
وإلاّ فـــفى رب الخـــورنق غنيـــة فمـا يومه سر ولا صيـته رضخ[7]
تطلـع يومـا والـسـدير أمـامــه وقد نال العجب ما شاء والجفخ[8]

---

(١) الرمخ: الشجر المجتمع.
(٢) الدخ: لغة فى الدخان.
(٣) الطرخ: الأحواض، والمفرد طرخة.
(٤) الرضخ: النوال.
(٥) الأحذ: الضامر، الدلوح: المتاقل لثقل حمله، والدلوخ: السمين.
(٦) البز: الابتزاز، والبرخ: القهر.
(٧) الرضخ: خبر تسمعه ولا تستيقنه.
(٨) الجفخ: التكبر.

وعن له من شيعة الحق قائم ... بحجة صدق لا عبام ولا وشخ[1]
فأصبح يجتاب المسوح زهادة ... وقد كان يؤذى بطن أخمصه النخ
وفى واحد الدنيا أبى حاتم لنا ... دواء ولكن ما لأدوائنا نتخ[2]
تخلى عن الدنيا تخلى عارف ... يرى أنها فى ثوب نخوته لتخ[3]
وأعرض عنها مستهينا بقدرها ... فلم يثنه منها اجتذاب ولا مصخ[4]
فكان له من قلبها الحب والهوى ... وكان لها من كفه الطرح والطخ[5]
وما الغرض عنها وهى فى طلابه ... كمن فى يديه من معاناتها نبخ[6]
ولا مدرك ما شاء من شهواتها ... كمن حظه منها التمجع والنجخ[7]
ولكننا نعمى مراراً عن الهدى ... ونصلج حتى ما لآذاننا صمخ[8]
وما لامرئ عما قضى الله مزحل ... ولا لقضاء الله نقض ولا نسخ
أبا طالب لم تبق شيمة سؤدد ... يساد بها إلاّ وأنت لها سنخ
لسوغت أبناء الزمان أياديا ... لدرتها فى كل سامعة شخ[9]

---

(١) العبام: القدم العَيِىّ، الوشخ: الضعيف.
(٢) النتخ: الانتزاع.
(٣) اللتخ: كاللطخ أى البقعة فى الثوب.
(٤) المصخ: جذب الشىء وانتزاعه.
(٥) الطخ: قذف الشىء بعيداً.
(٦) النبخ: قروح فى اليد.
(٧) التمجع: الاكتفاء بقليل من لبن أو تمر، والنجخ: الزهد فيها.
(٨) نصلج: نصاب بالصمم، والصمخ: صماخ الأذن.
(٩) الشخ: صوت الشخب.

وأجـريتـهـا فيـهم عـوائد سـؤدد فـمـا لهم كـسب سـواها ولا نخ
غذتهم غـواديها فهى فى عـروقهم دمـاء وفى أعـمـاق أعظمـهم مخ
وعمـتهم حزنا وسـهلا فأصبـحوا ومرعـاهم وزخ ومرعـيهم ولخ(١)
بنى العـزفـيـين ابلُغـوا مـا أردتم فما دون ما تبلغون وحل ولا زلخ(٢)
ولا تقـعدوا عـمن أزاد سنجـالكم فما غربكم جف ولا غرفكم وضخ(٣)
وخلـوا وراء كل طالـب غـــاية وتيهوا على مـن رام شأوكم وانخوا(٤)
ولا تذروا الجـوزاء تـعلو علـيكم ففى رأسهـا من وطء أسلافكم شدخ
لأفـواه أعـدائى وأعـين حـسـدى إذا جليت خائيـتى الغص والفضخ
دعـوها تهادى فى مـلاءة حسنهـا ففى نفسها من مدح أملاكها مدخ(٥)
يمـــانيـة زارت يمـــانى فـــانثنت وقد جد فيها الزهو واستحكم الزمخ(٦)

ومن مطلع قـصيدة لابن خـميس رحمـه الله فى مدح بلدة تلمـسان - حاطها الله تعالى - قوله:

تلمـسان جادتك الغـوادى الروائح وأرست بواديهـا الرياخ اللواقح(٧)

---

(١) الوزخ: نوع من الشجر، والولخ: الطويل من العشب.

(٢) الزلخ: الزلق.

(٣) الغرب: الدلو، الجف الذى تشنن: الغرف: انتشال الماء، وضخ: قليل.

(٤) انخوا: من النخوة، وهى الافتخار والتعظم.

(٥) المدخ: العظمة.

(٦) الزمخ: الكبر وشموخ الأنف.

(٧) نفح الطيب ج٧ ص ١٣١.

وسح على ساحات باب جيادها ملث يصافى تربها ويصافح

يطير فؤادى كلما لاح بارق ويزداد شوقى كلما مر سانح

ولم يعلق بحفظى من هذه القصيدة سوى ما ذكرت. وكنت تركتها بتلمسان ولم أرها الآن بفاس حماها الله.

و«باب جياد» الذى أشار إليه هو أحد أبواب تلمسان المحروسة، وفيها يقول الفقيه العلامة الناظم الناثر أبو عبد الله محمّد بن يوسف الثغرى من قصيدة رفعها للسلطان أبى حَمّو، رحم الله الجميع:

أيها الحافظون عهد الوداد جددوا أنسنا بباب الجياد[1]

وصلوها أصائلا بليال كلآل نظمن فى الأجياد

فى رياض منضدات المجانى بين تلك الربا وتلك الوهاد

وبروج مشيدات المبانى باديات السنى كمشهب بوادى

رق فيها النسيم مثل نسيبى وصفا النهر مثل صفو ودادى

وزها الزهر والغصون تثنت وتغنت عليه ورق شوادى

وانبرى كل جدول كحسام عارى الغمد سندسى النجاد

وظلال الغصون تكتب فيه أحرفا سطرت بغير مداد

تذكر الوشم فى معاصم خود قضب فوقه ذوات امتداد

وكئوس المنى تدار علينا بجنى عفة ونقل اعتقاد

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٢١.

واصفرار الأصيل فيها مدام　　وصفير الطيور نغمة شادى
كان غدونا بها لأنسٍ روحنا　　جادها رائح من المزن غادى
ولكم روحة على الدوح كادت　　أن تربح الصبا لنا وهو غادى
رقت الشمس فى عشاياه حتى　　أحدثت منه رقة فى الجماد
جددت بالغروب شجو غريب　　هاجه الشوق بعد طول البعاد
يا حيا المزن حيها من بلاد　　غرس الحب غرسها فى فؤادى
وتعاهد معاهد الأنس منها　　غرس الصبا بصوب العهاد
حيث مغنى الهوى وملهى الغوانى　　ومراد المنى ونيل المراد
ومقر العلا ومرقى الأمانى　　ومَجَرّ القنى ومجرى الجياد
كل حسن على تلمسان وقف　　وخصوصا على ربا العباد
ضحك النور فى رباها وأربى　　كهف ضَحَّاكها على كل نادى
وسما تاجها على كل تاج　　وسطا على كل وادى
يدعى غيرها الجمال فيقضى　　حسنها أنَّ تلك دعوى زياد
وبشعرى فهمت معنى علاها　　من حلاها فهمت فى كل وادى
حضرة زانها الخليفة موسى　　زينة الحلى عاطل الأجياد
وحباها بكل بذل وعدل　　وحماها من كل باغ وعادى
ملك جاوز المدى فى المعالى　　فالنهايات عنده كالمبادى
معقل للهدى منيع النواحى　　مظهر للعلا رفيع العماد

قاتل المحل والأعادى جميعا بغرار الظبا وغر الأيادى
كلما ضنت السحائب أغنت راحتاه عن السحاب الغوادى
كم هبات له وكم صدقات عائدات على العفاة بوادى
فأيادى خليفة الله موسى أبحرت عذبة على الوراد
ركب الجود فى بسيط يديه فتلافى به تلاف العباد
جل باريه ملجأ للبرايا كالحيا ضامنا حياة البلاد
جل من خصه بتلك المزايا باهرات من طارف وتلاد
شيم حلوة الجنى وسجايا يشيد المجد أنها كالشهاد
يا إمام الهدى وشمس المعالى وغمام الندى وبدر النوادى
لك بين الملوك سر خفى ليس معناه للعقول ببادى
فكأن البلاد كفك مهما كان فيها من ينتمى للعباد
قبض كفك البنان عليه فانثنى بالإذعان حلف انقياد
وبكم تصلح البلاد جميعا إن آراءكم صلاح البلاد
لم نزل دائما تحن إليكم كحنين السقيم للعواد
لو أعينت بمنطق شكرتكم مثل شكر العفاة للأجواد
قد أطاعتكم البلاد جميعا طاعة أرغمت أنوف الأعادى
فأريحوا الجياد أتعبتموها وأقروا السيوف فى الأغماد
واهنئوا خالدين فى عز ملك قائم السعد دائم الإسعاد

وإليكم من مذهبات القوافي حكما سهلت ليان المقاد
كل بيت من النظام مشيد عطر الأفق بالثناء المشاد
ذو ابتسام كزهر روض مجود وانتظام كسلك در مجاد

ومن قول الثغرى المذكور فى تلمسان وسلطانه أيضاً(١):

تاهت تلمسان بحسن شبابها وبدا طراز الحسن فى جلبابها
فالبشر يبدو من حباب ثغورها متبسما أو من ثغور حبابها
قد قابلت زهر النجوم بزهرها وبروجها ببروجها وقبابها
حسنت بحسن مليكها المولى أبى حمو الذى يحمى حمى أربابها
ملك شمائله كزهر رياضها ونداه فاض بها كفيض عبابها
أعلى الملوك الصيد من أعلامها وأجلها من صفوة ولبابها
غارت بغرة وجهه شمس الضحى وتنقبت خجلا بثوب ضبابها
والبدر حين بدت أشعتها له حسنا تضاءل نوره وخبا بها
لله حضرته التى قد شرفت خدامها فسمو بخدمة بابها
فاللثم فى يمناه يبلغها المنى والمدح فى علياه من أسبابها

وتذكرت بقوله رحمه الله تعالى:

أيّها الحافظون عهد الوداد جددوا أنسنا بباب الجياد

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٢٥.

قصيدة أبى المكارم مِنديل بن آجروم فى ذكر فاس المحروسة وباب الفتوح منها وموضع من متنزهاتها ولا شك أنَّ كل واحدة من هاتين القصيدتين تنظر إلى الأخرى وناظماها متعاصران فالله أعلم أيهما أخذ من الآخر على أنَّ الرويّ مختلف وقد يقال إنَّ ذلك من باب توارد الخواطر.

ونص قصيدة ابن آجروم المذكور(١):

أيها العارفون قدر الصبوح ... جددوا أنسنا بباب الفتوح
جددوا ثم أنسنا ثم جدوا ... نسرح الطرف فى مكان فسيح
حيث شابت مفارق اللوز نورا ... وتساقطن كاللجين الصريح
وبدا منه كل ما احمر يحكى ... شفقا مزقته أيدى الريح
وكأن الذى تساقط منه ... نقط لحن من دم مسفوحِ
وإذا ما وصلتم للمصلى ... فلتحلوا بموضع التسبيح
وبطيفورها فطوفا لكيما ... تبصروا من ذراه كل سطوح
ولتقيموا هناك لمحة طرفٍ ... لتردوا بها دماء الروحِ
ثم حطوا رحالكم فوق نهر ... كَلَّ فى وصفه لسان المديح
فوق حافاته حدائق خضر ... ليس عنها لعاشق من نزوح
وكأن الطيور فيها قيان ... هتفت بين أعجمٍ وفصيحِ
وهى تدعوكم إلى قبة الجو ... ز هلموا إلى مكان مليحِ

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٢٣.

فيه ما تشتهون من كل نور مغلق فى الكمام أو مفتوح
وغصونٍ تهيج رقصًا متى ما سمعت صوت كل طير صدوح
فأجيبوا دعاءها أيها الشَّرْ بُ وخلوا مقال كل نصيح
واجنحوا للمجون فهو جدير وخليق من مثلكم بالجنوح
واخلعوا ثم للتصابى عذارا إن خلع العذار غير قبيح
وإذا شئتم مكانًا سواه هو أجلى من ذلكم فى الوضوح
فاجمعوا أمركم لنحو أَتِىٍّ جاء كالصل من قفار فيح
عطرت جانبيه كف الغوادى بشذا عرف زهرها الممنوح
قل لمهيار إن شممت شذاها قول مستخير أخى تجريح
أين هذا الشذا الذكى من القيـ ـصوم والرند والغضا والشيح
حبذا ذلك المهاد مهادًا بين دان من الربا ونزوح
ثم من ذلك المهاد أفيضوا نحو هضبٍ من الهموم مريح
فيه للحسن دوحة وروايا(١) وانشراح لذى فؤادٍ قريح
وحجار تدعى حجار طبول غير أنَّ التطبيل غير صحيح
تنشر الشمس ثم كل غدو زعفرانًا مبللا بنضوح
وسبو من هناك يسبى عقولا ويجلى لحاظ طرفٍ طموح
وعيون بها تقر عيون وكلام يأسو كلوم الجريح
فرشت فوقها طنافس زهر ليس كالعهن نسجها والمسوح

(١) تحرف فى سائر الأصول إلى: «زوايا» وصوابه من نفح الطيب ج٧ ص ١٢٥ و«روايا» جمع راوية. والراوية مزادة الماء أو الدابة التى تحمله. ولعل المراد بها: الناعورة التى يرفع بها الماء.

كلمــــا مــر فــوقـــهن طـليح عــاد من حــسنهن غـيـــر طليحِ
فــانهــضــوا أيّهــا المحــبــون مـثلى لنـرى ذات حـــسنــهـــا المـمـلوح
هــكذا يـربح الـزمـــــــان وإلاّ كل عـــيش ســواه غـــيـــر ربيح

رجع إلى نظم ابن خميس رحمه الله

ومن بديع نظمه قصيدة مدح الوزير ابن الحكيم.

قال ابن الخطيب: وهى مـن مشاهيـر أمداحه فـيه، وكتب بهـا إليه من المرية، وألم فيها بذكر بلده تلمسان، وما حل بها من البلاء والحصار فى ذلك التاريخ من قبل السلطان أبى يعقـوب يوسف ابن السلطان المجاهد الكبير أبى يوسف يعقوب بن عـبد الحق، وقد رحل الشيخ الولى أبو زيد عـبد الرحمن الهزميرى نفعنا الله ببركات من بلده أغمات للشفاعة عند السلطان أبى يعقوب فى أهل تلمسان المحصورين[1]، فلم يقبل شفاعتهـم، فقال الشيخ سيدى أبو زيد كلاما مـعناه: إنَّ سَعَادَةَ يقضى هذا، ورجع الشـيخ إلى فاس، فاتفق أن هذا العبد كان مع السلطان فى الحمام، وكان له عليه حقد، فانتهز فيه الفرصة ووجــأه بخنجر، فـكان فى ذلك حتـفـه، فنفس الله عن أهل تلمـسان بعـد حـصارها نحـو العـشر سنين. ولمّا وصل الخبـر إلى سيـدى أبى زيد بموت السلطان قال: وعبد الرحمن يَمُوت، يعـنى نفسَه؛ و«يَمُّوت»: بتشديد الميم، على لغة البربر؛ فتوفى رحـمه الله ودفن بمسجد الصفارين[2]، وقبره مشهور مقصود الإجابة، نفعنا الله به، وقد زرته مرارا لا أحصيها، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله.

وقد أشـار أبو عبد الله بن خمـيس فى هذه القصيدة إلى ذلك الحـصار

(١) العبارة فى سائر الأصول فيها سقط وتحريف، وقد اعتمدنا فى تكملتها وتصويبها على ما ورد فى نيل الابتهاج: ج١ ص ٢٦٣ وما اقتضاه السياق.

(٢) فى سائر الأصول: «الصابرين» والمثبت من نيل الابتهاج.

وكان من الاتفاق الغريب، سرعة وقـوع ما تمناه ابن خميس لتلمسان هذه من الخبر، بعد طول المحنة، واشتداد البـلاء، ولـم يتأخر ذلك عن تاريخ القصيدة غير أربعة أشهر.

ونص القصيدة(١):

سل الريح لم تسـعد السـفن أنواء ... فـعند صـباها مـن تلمسـان أنبـاء

وفى خـفـقان البـرق منهـا إشـارة ... إليك بما تنمى إليـهـا وإيمـاء

تمر الـليـالى ليـلة بعـد ليـلة ... وللأذن إصـغـاء وللـعـين إكـلاء

وإنى لأصـبو للصـبا كلمـا سرت ... وللنجم مـهمـا كان للنجم إسـراء

وأهدى إليـهـا كل يوم تحـيـة ... وفى رد إهداء الـتـحـيـة إهداء

واستجلب النوم الغـرار ومضجعى ... قـتـاد كمـا شـاءت نواها وسـلاء

لعل خـيـالا من لـديهـا يمـر بى ... ففى مره بى من جوى الشوق إبراء

وكيف خلوص الطيف منها ودونها ... عـيـون لهـا فى كل طـلعـة راء

وإنى لمشـتـاق إليـهـا ومُـنْبِئٌ ... ببـعض اشـتـيـاقى لو تمكن إنبـاء

وكم قـائل تفنى غـرامـا بحـبـهـا ... وقـد أخلفت منهـا مـلاء وأمـلاء

لعـشـرة أعـوام علـيـهـا تجـرمت ... إذا مـا مضى قـيظ بها جـاء إهراء

يطنب فـيـهـا عـائثـون وخـرب ... ويرحل عنـهـا قـاطعـون وتناء

كـأن رمـاح الـناهـبـين لملكهـا ... قـداح وأمـوال المنـازل أبداء

فـلا تبغـين فـيهـا مناخـا لراكب ... فـقد قلـصت منها ظـلال وآفيـاء

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٧٦.

ومن عجبٍ أن طال سقمى ونزعها وقسم أضناء عليها وأطناء
وكم أرجفوا غيظًا بها ثم أرجئوا فيكذب إرجاف ويصدق إرجاء
يرددها عيابها الدهر مثلما يردد حرف الفاء فى النطق فأفاء
فيا من لا نال الردى منه ما اشتهى ترى هل لعمر الأنس بعدك إنساء
وهل للظى الحرب التى فيك تلتظى إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء
وهل لى زمان أرتجى فيه عودةً إليك ووجه البشر أزهر وضاء
فياهى مالى إن هلكت ولم أقل لصحبى بها الغر الكرام ألا هاءوا
ولم أطرق الدرب الذى كنت طارقًا لعادٍ وبدر الأفق أسمع مشناء
أُطيف به حتى تهر كلابه وقد نام عساس وهوم سباء
ولا صاحب إلاّ حسام ولهذم وطرف لخد الليل مذ كان وطاء
واسحم قارى كشعرى حلكة تلألأ فيه من سنى الصبح أضواء
فما لشربى فى سواك مزازة ولا لطعمى دون مائك إمراء
ويا دارى الأولى بدرب مغيلةٍ وقد جد عيث فى بلاها وإرداء
أما آن أن يحمى حماك كعهده ويجتال أحماس عليه وأحماء
أما آن أنَّ يعشو لنارك طارق جنيب له رفع إليك ودئداء
يرجى نوالا أو يؤمل دعوة فما زال قارٍ فى ذراك وقُرّاء
أحن لها ما أطئت النيب حولها وما عاقها عن مورد الماء أظماء
فما فاتها منى نزاع على النوى ولا فاتنى منها على القرب إجشاء
كذلك جدى فى صحابى وأسرتى ومن لى به من أهل ودى إرفاء
ولولا جوار ابن الحكيم محمّد لما فات نفسى من بنى الدهر إقماء

حمانى فلم تنبت محلى نوائب | بسوء ولم ترزأ فؤادى أرزاء
وأكفأ بيتى فى كفالة جاهه | فصاروا عبيدا لى وهم لى أكفاء
يؤمون قصدى طاعة ومحبة | فما عفته عافوا وما شئته شاءوا
دعانى إلى المجد الذى كنت آملا | فلم يك لى عن دعوة المجد إبطاء
وبوأنى من هضبة العز تلعةً | يناجى السها منها صعود وطأطاء
يشيعنى منها إذا سرت حافظ | ويكلؤنى منها إذا نمت كلاء
ولا مثل نومى فى كفالة غيره | وللذئب إلمام وللصل إلماء
بغيضة ليث أو بمرقب خارب | تبز كسا فيه وتقطع أكساء
إذا كان لى من نائب الملك كافل | ففى حيثما هومت كن وإدفاء
وأخوان صدقٍ من صنائع جاهه | يبادرنى منهم قيام وإيلاء
سراع لما يرجى من الخير عندهم | ومن كل ما يخشى من الشر أبراء
إليك أبا عبد الإله صنعتها | لزومية فيها لوجدى إفشاء
مبرأة مما يعيب لزومها | إذا عاب إكفاء سواها وإيطاء
أذعت بها السر الذى كان قبلها | عليه لأحناء الجوانح إضناء
وإن لم يكن الذى كنت آملا | وأعوز إكلاء فما عاز إكماء
ومن يتكف مفخما شكر منةٍ | فما لى إلى ذاك التكلف إلجاء
إذا منشد لم يكن عنك ومنشئٌ | فلا كان إنشاد ولا كان إنشاء

وابن الحكيم المذكور[1]: هو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمّد بن محمد ابن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمّـد بن سعد بن محمّد بن فتوح ابن محمّد بن أيوب بن محمّد اللخمى، من أهل رندة، الكاتب الأديب البليغ الشهير الذكر بالأندلس، ويعرف بابن الحكيم.

أصل سلفه من إشبيلية، من أعيانها، ثم انتقلوا إلى رندة؛ وأوّل من انتقل منهم إليها جده محمّد بن فتوح، فى دولة بنى عباد، ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم لطبه، وكانوا قديما يعرفون ببنى فتوح.

قدم ذو الوزارتين أبو عبد الله على حضرة غرناطة أيام السلطان أبى عبد الله محمّد بن محمّد بن نصر، إثر قفوله من الحج، فألحقه بكتّابه، وأقام يكتب له فى ديوان الإنشاء، إلى أنْ توفى هذا السلطان فى ثامن شعبان سنة إحدى وسبع مئة، وتقلد الملك بعده ولى عهده أمير المسلمين، أبو عبد الله محمّد المخلوع، فقلده الوزارة والكتابة، وكان مشركًا معه فى الوزارة الوزير الجليل التقى، أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الدانى، فلما توفى أبو سلطان الدانى، أفرده سلطانه بالوزارة، ولقبه بذى الوزارتين، وصار صاحب أمره ونهيه، إلى أن توفى بحضرة غرناطة قتيلا، غدوة يوم الفطر، مستهل شوال سنة ثمان وسبع مئة، وذلك لتاريخ خلع سلطانه، وخلافة أخيه أمير المسلمين أبى الجيوش مكانه؛ ومولده ببلده رندة فى شهر ربيع الأول سنة ستين وست مئة.

وكان رحمه الله علمًا فى الفضيلة والسراوة ومكارم الأخلاق؛ كريم النفس، واسع الإيثار، متين الحرمة، عالى الهمة، كاتبا بليغا شاعرًا، حسن

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٤٩٨.

الخط، يكتب خطوطا على أنواع كلها جليل الانطباع، خطيبا فصيح القلم، زاكى الشيم، مؤثرًا لأهل العلم والأدب، برا بأهل الفضل والحسب، نفقت فى مدته للفضائل أسواق، وأشرقت بإمداده للأفاضل آفاق.

ورحل إلى المشرق، وكانت إجازته البحر من ألمرية، فتقضى فريضة الحج، وأخذ عمن لقى هنالك من الشيوخ، فمشيخته متوافرة. وكان رفيقه فى هذه الوجهة الخطيب أبو عبد الله بن رشيد، فتعاونا على هذا الغرض، وقضيا منه كل نفل ومفترض، واشتركا فيمن أخذا عنه من الأعلام، فى كل مقام. وكانت له عناية بالرواية، وولوع بالأدب، وصبابة باقتناء الكتب، جمع من أمهاتها العتيقة، وأصولها الرائقة الأنيقة، ما لم يجمعه فى تلك الأعصر أحد سواه، ولا ظفرت به يداه.

أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبى العاصى التنوخى، والخطيب أبو عبد الله بن رشيد تَدَبَّج معه، وابنه الوزير الكاتب الأديب الفاضل أبو بكر محمّد بن محمّد بن الحكيم، وغيرهم.

ومدحه الكاتب العلامة أبو الحسن بن الجياب، ومن بديع ما مدحه به قصيدة رائية رائقة، يهنئه فيها بعيد الفطر، وهى قوله[1]:

يا قادما عمت الدنيا بشائره ... أهلا بمقدمك الميمون طائره
ومرحبا بك من عيد تحف به ... من السعادة أجناد تظافره
قدمت فالخلق فى نعمى وفى جذل ... أبدى بك البشر باديه وحاضره
والأرض قد لبست أثواب سندسها ... والروض قد بسمت منه أزاهره

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٤٩٩.

حاكت يد الغيث فى ساحاته حللا   لما سقاها دراكا منه باكره
فلاح فيها من الأنوار باهرها   وفاح من النوار عاطره
وأم فيها خطيب الطير مرتجلا   والزهر قد رصعت منه منابره
موشى ثوب طواه الدهر آونة   فها هو اليوم للأبصار ناشره
فالغصن من نشوة يثنى معاطفه   والطير من طرب تشدو مزاهره
وللكمام انشقاق عن أزاهرها   كما بدت لك من خل ضمائره
لله يومك ما أزكى فضائله   قامت لدين الهدى فيه شعائره!
فكم سريرة فضل فيك قد خبئت   وكم جمال بدا للناس ظاهره
فافخر بحق على الأيام قاطبة   فما لفضلك من ندٍ يناظره
فأنت فى عصرنا كابن الحكيم إذا   قيست بفخر أولى العليا مفاخره
يلتاح منه بأفق الملك نور هدى   تضاءل منه الشمس مهما لاح زاهره
مجد صميم على عرش السماك سما   طالت مبانيه واستعلت مظاهره
وزاره الدين والعلم الذى رفعت   أعلامه والندى الفياض زاخره
وليس هذا ببديع مكارمه   ساوت أوائله فيه أواخره
يلقى الأمور بصدر منه منشرحٍ   بحر وآراؤه العظمى جواهره
راعى أمور الرعايا معملاً نظرا   كمثل علياه معدومًا نظائره
والملك سير فى تدبيره حكمًا   تنال ما عجزت عنه عساكره
سياسة الحلم لا بطش يكدرها   فهو المهيب وما تخشى بوادره

لا يصدر الملك إلاّ عن إشارته ... فالرشد لا تتعداه مصايره
تجرى الأمور على أقصى إرادته ... كأنما دهره فيها يشاوره
وكم مقام له فى كل مكرمة ... أنست موارده فيها مصادره
ففضلها طبق الآفاق أجمعها ... كأنه مثل قد سار سائره
فليس يجحده إلاّ أخو حسد ... يرى الصبح فيعشى منه ناظره
لا ملك أكبر من ملك يدبره ... لا ملك أسعد من ملك يؤازره
يا عز أمر به اشتدت مضاربه ... يا حسن ملك به ازدانت محاضره
تثنى البلاد وأهلوها بما عرفوا ... ويشهد الدهر آتيه وغابره
بشرى لآمله الموصول مأمله ... تعسًا لحاسده المقطوع دابره
فالعلم قد أشرقت نورًا مطالعه ... والجود قد أسبلت سحا مواطره
والناس فى بشر والملك فى ظفر ... عالٍ على كل عالى القدر قاهره
والأرض قد ملئت أمنا جوانبها ... بيمن من خلصت فيها سرائره
وإلى أياديه من مثنى وموحدة ... تساجل البحر إنّ فاضت زواخره
فكل يوم تلقانا عوارفه ... كساه أمواله الطولى دفاتره
فمن يؤدى لما أولاه من نعم ... شكرًا ولو أنّ سحبانًا يظاهره
يا أيها العيد بادر لثم راحته ... فلثمها خير مأمول تبادره
وافخر بأن قد لقيت ابن الحكيم على ... عصر يباريك أو دهر تفاخره
ولى الصيام وقد عظمت حرمته ... فأجره لك وافيه ووافره

وأقبل العيد فاستقبل به جذلا   وأهنأ به قادما عمت بشائره

ومن أحسن ما رُثِى به رحمه الله تعالى، ثلاثة أبيات لبعض الأعلام من أهالى ذلك الزمان، وهى[1]:

قتلوك ظلمًا واعتدوا   فى فعلهم حَدَّ الوجوب

ورموك أشلاء وذا   أمر قضته لك الغيوب

إن لم يكن لك سيدى   قبر فقبرك فى القلوب

قال ابن خاتمة: ومن شعره ما أنشدنى ابنه الوزير أبو بكر، مقدمه على المرية، غازيا مع الجيش المنصور، قال أنشدنى أبى رحمه الله تعالى:

ولمّا رأيت الشيب حل بمفرقى   نذير بتَرْحال الشباب المفارق

رجعت إلى نفسى فقلت لها انظرى   إلى ما أرى، هذا ابتداء الحقائق

وأنشدنى شيخنا الخطيب أبو إسحاق بن أبى العاصى إذنا، قال أنشدنى الوزير أبو عبد الله بن الحكيم إن لم يكن سماعه فإجازة[1]:

فقدت حياتى بالمفارق ومن غدا   بحال نوى عمن يحب فقد فقدْ

ومن أجل بعدى عن ديار ألفتها   جحيم فؤادى قد تلظى وقد وقد

وقد سبقه إلى هذا المعنى القائل[2]:

أوارى أوارِ بالدموع تجلدًا   وكم رمت إطفاء اللهيب وقد وقد

فلا تعذلوا من غاب عنه حبيبه   فمن فقد المحبوب مثلى فقد فقد

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥٠٤.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٥٠٢.

هكذا رواه ابن خاتمة، ورواه غيره هكذا[1]:

أوارى أوارىِ والدمـــوع تبـــينه ... ومن لى بإطفـاء الغـرام وقد وقـد

وهو الصواب.

قال ابن خاتمة[2]: وأنشدنى رئيس الكتاب الصـدر البليغ الفاضل، أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النـجارى، قال: أنشدنى رئيس الكتاب الجليل، أبو محمّـد عبد المهيمن بـن محمّد الحضـرمى، قال: أنشدنى رئيس الكتاب ذو الوزارتين، أبو عبد الله محمّـد بن عبد الرحمن بن الحكيم، رحمه الله تعالى:

سح الـكتـــــــاب وعـنـه ... واخـــــتم عـلـى مـكتـنـه

واحـــذر عليـــه من مــخـــا ... لســـة الرقـــيب بـجـــفنه

واجـــعل لـســـانك ســـجـنه ... كـى لا ترى فـى ســـــجنه

قال ابن خاتمة: وفى سند هذه القطعة نوع غريب من التسلسل. انتهى.

ومن بديع نظم ذى الوزارتين ابن الحكيم قوله رحمه الله:

يا ليت شـعرى هل تطول حـياتى ... حـتى أرى هذا الـزمــان الآتى؟

يا رب إن قـــدرت لى ببلـوغـــه ... فـاجـعله عصـرًا بالسـرور مـواتى

وإن انقـضت أيام عــمـرى قـبله ... فـاجـعل على مـا ترتضـيـه مماتى

لا شىء للدنيــا وللأخـرى مـعـا ... أرجـو إذا ضـاقت على جـهـاتى

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥٠٢.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٥٠٢.

إلاّ يقـــينى أنَّ جـودك فـــوق مـــا يرجـى وأنك غـــــافـــــر الزلات

ومن نثره آخـر فصل خاطب به الـشيخ أبا على الجراوى، رحـمه الله، قوله:

وهأنا أجرى معه على حسن معتقده، وأكلمه فى هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تودده، وأجـيز له ولولديه، اقر الله بهما عينه، وجـمع بينهما وبينه، رواية جميع مـا حملته ونقلته، وحـسن اطلاعه يفصل من ذلك مـا أجملته، فقد أطلقت لهم الإذن فى جميعه، وأبحت لهم الحمل عنى ولهم الاختيار فى تنويعه، والله عز وجل يخص أعمالنا لذاته، ويجعلها ابتغاء مرضاته.

قال هذا وكتبـه محمّد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحـيى بن محمّد اللخمى بن الحكيم، عفا الله عنه، حَامِـدًا لله عز وجل، ومصليا على رسوله المصطفى، ومسلمًـا عليه وعلى آله، فى منتصف جمـادى الآخرة، عام ثلاث وسبع مئة.

وحكى غـير واحـد أنَّ ذا الوزارتين ابن الحكيم المذكـور لمّا اجتـمع مع الفقيه الجليل الكاتب ابن أبى مدين أنشده ابن مدين رحمه الله تعالى(١):

عـشـقـتكم بالســمع قـبل لقـاكم وسمع الـفتى يهـوى لعمرى كـطرفه

وحـــبـبنى ذكـــر الجليـس إليكم فلمـا التـقينـا كنتم فـوق وصفـه

فأنشده ذو الوزارتين(٢):

ما زلت أسمع عن علياك كل سنى أنهى من الشمس أو أجلى من القمرِ

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٥٠٣.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٥٠٣.

حتى رأى بصرى فـوق الذى سمعت   أذنى فـوفق بين السـمع والبـصـرِ

وتذكـرت هنا قول الحـاج الكاتب أبى إسـحاق الحـسناوى رحمـه الله تعالى:

سـحر البـيـان بنانى صـار يعقـده   والنفث فى عقـده من منطقى الحسن

لا أنشـد المرء يلقـانى ويبصـرنى: أنا المعـيدى فـاسـمع بى ولا ترنى

وكان الوزير ابن الحكيم المذكور كما أسلفناه رفيق ابن رشيد الفهرى فى رحلته الحجازية وقد اشتملت رحلة ابن رشيد على ما رأى وروى.

وهو محمّـد بن عمر بن عمر بن مـحمّد إدريس بن عبد الله بن سـعيد ابن مسعـود بن حسن بن محمّـد الفهرى[1]، من أهل سبتـه، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن رشيد، - وكأنه تصغير رشد - الخطيب المحدث الشهير.

رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء أهل العلم سنة ثلاث وثمانين وست مئة، وكـانت إجازته البحر من ألمرية فتـلاقى بها هو وذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم المذكور وكان قصدهما واحد ومسـعاهما متعاضداً؛ فترافقا فى السفر، كما ترافقا فى الوطر. فدخل إفريقية ومصر والشام والحجاز وأخذ عمن لقى من الأئمة الأعلام، وأكثر من هذا الشان وأجاد فيه الضبط والإتقان وتوسع فى الرواية وذهـب فى ذلك إلى أبعـد غـاية. وكـان له تحـقق بعلوم الحديث وبرجـاله، وضبط إسناده، ومعرفـة انقطاعه واتصاله، إمـامًا فى هذا الشأن مشاراً إليه فى هذا الفن معتمداً عليه مع كمال الثقة وشهرة العدالة.

قال القاضى أبو البـركات ابن الحاج فى حقه: ابن رشيـد ثقة عدل من

---

(١) جذوة الاقتباس ١/ ٢٨٩.

أهل هذا الشأن المتحققين به، وكان أيضًا من أهل المعرفة بعلم القراءات وصناعة العربية، وعلم البيان والآداب، والعروض والقوافى، مشاركا فى غير ذلك من الفنون، من خدام الكتاب والسنة، حسن العهد، كريم العشرة، براً بأصدقائه، فاضلا فى جميع أنحائه، أديبًا بليغًا، ذاكراً متأدبًا يقرض الشعر على تكلف ويجود النثر ويبصر مواقع حسنه، وأعظم عنايته بعلم الحديث: متنه وسنده ومعرفة رجاله، ولذلك كان جل اشتغاله، وفيه عظم احتفاله، حتى حصل منه على غاية قصده ومنتهى آماله.

قرأ بسبتة بلده على الأستاذ أبى الحسين بن أبى الربيع(١) القرآن العزيز بالقراءات السبع بمضمن كتاب التفسير، وتفقه عليه فى العربية وقيد عنه تقيداً حسنا على كتاب سيبويه، وأخذ عنه غير ذلك. وقرأ أيضًا الكتاب العزيز على الأستاذ أبى الحسن على بن محمّد الكتامى ابن الخضار بالمقارئ السبعة، وأخذ بألمرية فى اجتيازه عليها، عن الخطيب أبى عبد الله محمّد بن محمّد بن الصائغ، والوزير الأديب أبى جعفر أحمد بن محمّد ابن سلبطور، قيد عنه [من](٢) شعره. ورحل فأخذ ببجاية عن الحافظ أبى محمّد عبد العزيز بن عمر القيسى ابن كحيلا نزيلها. وبتونس عن قاضى الجماعة بها، أبى القاسم ابن أبى بكر بن زيتون. وأخذ بإسكندرية عن العدل المبرز سراج الدين أبى بكر بن أحمد بن إسماعيل بن فارس التميمى، والعدل الصالح أبى عبد الله محمّد بن عبد الخالق بن طرخان القرشى. وبالقاهرة عن الحافظ أبى محمّد عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى، والأديب الصوفى شهاب الدين أبى عبد

(١) جذوة الاقتباس ١/ ٢٨٩.

(٢) تكملة من جذوة الاقتباس.

الله محمّد بن عبد المنعم بن محمّد بن يوسف بن أحمد الأنصارى، ابن الخيمى، نزيل إيوان الحسين رضى الله عنه من القاهرة. وبدمشق عن شيخ الشيوخ عز الدين أبى العز عبد الله بن عبد المنعم بن على الحرانى، وبقية المسندين فخر الدين أبى الحسن علس بن أحمد بن عبد الواحد المقدسى والمسند أبى الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الملك المقدسى. وبالحرم الشريف عن المحدث الأديب مقيم الحرم الشريف أبى إسحاق عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر الدمشقى، وبقية المحدثين مقيم الحرمين أبى عبد الله محمّد بن أبى بكر بن خليل بن إبراهيم المكى. وبالمدينة المشرفة المنورة عن الشيخ الإمام النحوى عفيف الدين أبى محمّد عبد السلام بن محمّد بن مزروع البصرى وغيرهم. وفى أشياخه كثرة، وقد أودعهم رحلته الحافلة التى سماها: «ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة فى الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة». وهى أربعة أسفار وقفت عليها بتلمسان، وقد جمع فيها من الفوائد الحديثية والفرائد الأدبية كل غريبة عجيبة.

من تآليفه «ترجمان التراجم»[١] فى إبداء وجه مناسبات تراجم صحيح البخارى لما تحتها مما ترجمت عليه. ومنها «السنن الأبين فى السند المعنعن»، و«المقدمة المعرفة لعلو المسافة والصفة»، و«المحاكمة بين البخارى ومسلم»، و«إحكام التأسيس فى أحكام التجنيس»، و«الإضاءات والإنارات» فى البديع المسماة: «بإيراد المرتع المَرِيع لرائد التسجيع والترصيع» و«وصل القوادم بالخوافى» شرح فيه كتاب القوافى لشيخه أبى الحسن حازم القرطاجنى، وجزء مختصر فى العروض، وتقييد على كتاب سيبويه.

(١) جذوة الاقتباس ١/ ٢٩٠.

وذكر بعضهم أنَّ الإمام ابن رُشيد كان ظاهرى المذهب والمعروف أنّه كان مالكيا والله اعلم.

وكان يعتمد فى شرح كلام البخارى على «المحبر الفصيح فى شرح البخارى الصحيح» لأبى عمرو الصفاقسى المعروف بابن التين، لأجل حضور البربر فى مجلسه، ومعتمدهم المدونة، وأبو عمرو فى هذا الكتاب ينقل المدونة وكلام شُرّاحها عليها.

وتكلم يوما بعد فراغه من إسماع الشمائل، وكانت بالمغرب فتنة على قوله عليه الصلاة والسلام: «بحسب أصحابى القتل» فقال: معنى الحديث أنّه منجيهم من عذاب الله تعالى كما قالوا: بحسبك زيد ثم قال: على أنّه روى النبى ﷺ ذكر فتنة فعظم أمرها فقالوا: يا رسول الله لئن أدركنا هذا الزمان لنهلكن فقال: كلا إن بحسبكم القتل.

ويدل على صحة هذا التأويل ما خرجه أبو داود أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أمتى [هذه][1] أمة محرومة ليس عليها عذاب فى الآخرة عذابها فى الدنيا الفتن والزلازل والقتل». وترجم عليه أبو داود: «باب ما يرجى فى القتل» ثم أدخل الحديث تحت الترجمة.

وقال تلميذه أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى: أنّه تكلم يوما على قول رسول الله ﷺ: «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار». فقال: رواه عن النبى ﷺ نحو مائة نفس من الصحابة فيهم العشرة المشهود لهم بالجنة، ولا يعرف حديث مثله، وإن كانت ألفاظه تختلف لكن هو متواتر المعنى.

---

(١) التكملة عن سنن أبى داود فى كتاب الفتن.

وفى رسمه من حرف الميم من إحاطة ابن الخطيب ما نصه:

حدّثنى بعض شيوخنا قال: قعد يوما على المنبر فظن أنّ المؤذن الثالث قد فرغ، فقام يخطب والمؤذن قد رفع صوته بأذانه فاستفظع ذلك بعض الحاضرين، وهم آخر بإشعاره وتنبيهه، وكلمه آخر فلم يثنه ذلك عما شرع فيه وقال بديهة: أيّها الناس رحمكم الله إنّ الواجب لا يبطله المندوب وإن الأذان الذى بعد الأول غير مشروع الوجوب، فتأهبوا [لطلب العلم](1) وتنبهوا وتذكروا قوله تعالى: ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ... ⑦﴾ [الحشر]، فقد روينا عنه ﷺ أنّه قال: «من قال لأخيه والإمام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له». جعلنا الله وإياكم ممن علم فعمل، وعمل فقبل، وأخلص فتخلص.

فكان ذلك مما استدل به على قوة جنانه وانقياد لسانه لبيانه. انتهى.

وتذكرت بهذه القضية من قام من اثنتين ولم يذكر حتى استقل، ومن نسى المضمضة والاستنشاق حتى شرع فى غسل الوجه، وراجعْ شرح ابن ناجى على المدونة، فإنه ذكر أن بعض شيوخه لم يرجع من الخطبة كما فعل ابن رشيد وبعض الأشياخ رجع لما سمع المؤذن وفعل الأول أصوب والله اعلم.

وكان رحمه الله تعالى أعنى ابن رشيد يقول: ليس بالمغرب عالم إلاّ ابن البنا بمراكش، وابن الشاط بسبتة، والقاضى أبا عبد الله محمّد بن محمّد اللخمى قرطبى. ومن المشارقة خلق كثير كابن دقيق العيد، والشريف أبى الحسين العراقى، وأخيه أبى إسحاق، وجماعة.

---

(١) التكملة من جذوة الاقتباس.

وفى تأليف ابن رشيد فى التجنيس يقول صاحبه الفقيه الأديب البارع الفاضل أبو بكر محمّد بن محمّد القالونسى من نظمه حتى طالعه بغرناطة:

أبدع فى التجنيس إنشاءا ... فليحو فضل السبق إن شاءا
إذ كل من ألف من قبله ... ما جاء فيه بالذى جاءا

ومن شعر ابن رشيد رحمه الله تعالى (ولنا فيه أسانيد) قوله:

صيام عاشور أتى ندبه ... فى سنة محكمة قاضيهْ
قال الرسول المصطفى إنه ... تكفير ذنب السنة الماضيهْ
ومن يوسع يومه لم يزل ... فى عامه فى عيشة راضيهْ

ومن ذلك قوله:

تغرب ولا تحفل بفرقة معشر ... تفز بالمنى فى كل ما شئت من حاج[1]
فلولا اغتراب المسك ما حل مفرقا ... ولولا اغتراب الدر لم يحظ بالتاج

وقوله رحمه الله تعالى فى البحر وقد انبسط عليه ضوء القمر فى ليلة البدر[2]:

انظر إلى البدر وقد مدت أشعته ... على خضارة حتى ابيض أزرقه
والريح قد صنعت درعا مسامرها ... حباب ماء يروق العين رونقه

وذكر رحمه الله عن أبى الخير الفضل بن على بن نصر بن عبد الله بن رواحة الأنصارى الخزرجى أنّه أملى عليه بمدينة بلبيس بمصر حرسها الله تعالى:

---

(١) جذوة الاقتباس ١/ ٢٩١.

(٢) جذوة الاقتباس ١/ ٢٩١.

وأرجـو إن عـجـزت عن الأمـانى أمـــانـا من ذمـــامك يا إلــهى
فلى ظـن أحــقـــقـــه يقـــينا برحـــمـــتـك التى كل المنى هى
وأسـأل مـنك عـونا لى علـى مـا أمـــرت بـه، وتركى لـلمنـاهى

وقـال رحـمه الله: من عـمـد إلى أحـاديث خـراش ودينار وأبى هدبة وشبههم، الذين يسميهم أهل الرواية والنقل طيور أَنَس، فمثل هؤلاء لا يعرج عليهم ولا يفرح بعلوهم، وروايتهم شبه الريح، وإنما يكتب حديثهم للتعريف به. وقد جمع الحافظ أبو الطاهر الأصبهانى جـماعة منهم فى بيتين فأحسن، أحسن الله إليـه. أنشدنى المكتـسب الخير المقـيد أبو عـبد الله محـمّد بن أبى العباس أحمـد بن حيان الشاطبى صاحبنا بتونس، قـال أنشدنا الشيخ الخطيب أبو محمّـد بن بركات رحمه الله قـال: قرأت على الحافظ أبى عـمر بن عات قال: سمعت فيما قُرِئ على السلفى رحمه الله تعالى من نظمه:

حـديث ابن نسطور وقـيس ويغنم وبعـــد أشج الغـرب ثـم خـراش
ونســـخـــة دينار ونســـخـــة تِربْهِ أبى هدبة القـيـسى شـبـه فـراش

قال لى أبو عبد الله: قال لنا أبو محـمد، قال لنا أبو عُمر: كان الحافظ السلفى رحـمه الله إذا فرغ من إنـشاده لهمـا ينفخ فى يديه. فمـثل هؤلاء لا يلتفت إليه، ولو بلغ أقصى الممكن فى القرب. انتهى.

ووجد بخط القاضى اليزناسنى ما نصه:

الحمد لله. وقفت على إجازة أبى عـبد الله بن رشيد لستّ العرب بنت عبد المهيـمن الحضرمى مؤرخة بغرة محرم عـام إحدى وعشرين، الذى توفى فيه، وقال أحسن الله افتتاحه واختتامه: ومن لم يكن يعرفنى فإنى:

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لمّا عرف العفو

انتهى.

ولمّا قفل الشيخ ابن رشيد من المشرق عاد إلى بلدة سبتة، فلم يساعده فيها المقدور، ولم يعرف له بها مقدار، فكتب إليه رفيقه الوزير ابن الحكيم يستدعيه إلى حضرة غرناطة، ويعده بنيل كل أمنيّه، رعيا لمّا سلف له معه من الصداقة المرعية، فأعمل الرحلة إليه حتى قدم الحضرة الغرناطية عليه، فألفاه من عناية السلطان تحت جاه واسع، فأهله من ماليه وقرب إليه من أمانيه كل شاسع وأكرم مثواه، وحمد لديه مغبة سراه، وتقدم حينئذ للصلاة والخطبة بالجامع الأعظم بغرناطة، وخول كل كرامة ومبرة. ثم لمّا توفى الأستاذ أبو جعفر بن الزبير عن قضاء المناكح خلفه عليها، فاتصلت له الأثرة بالأثرة، ولم يزل مقيما بحضرة غرناطة منتصبا للإقراء ومركزًا لدائرة القراء، إلى أن قتل الوزير أبو عبد الله بن الحكيم فرحل أبو عبد الله بن الحكيم، فرحل من غرناطة ولحق بحضرة فاس فحل بها تحت عناية، وفى كنف رعاية، وجعل له الأمر السلطانى الاختيار حيث اختار، أو الاستقرار، فاختار التحول إلى مراكش إذ كان قبل قد سكنها، واستحسنها، فورد عليها ورود الإقامة ونزل بها نزول البر والكرامة، وقدم للصلاة والخطبة بجامعها العتيق، وأقام بها سنين يبث بها العلم، ليس له شغل غير التدريس والتحقيق. ثم إن المقام السلطانى دعاه منها بعد مدة إلى حضرة فاس، فانتقل إليها انتقال الإيثار والإيناس، فلحق بحاضرة السلطان، والتحف من الوجاهة والنباهة برداء سابغ الأردان، وصار فى عداد خواصه وآل مجلسه من الخلصاء، إلى أن توفى رحمه الله بفاس فى الثالث والعشرين من شهر محرم سنة إحدى وعشرين وسبع مئة قيل ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر المحرم. وأما قول من قال

إنه توفى ثامن المحرم فغلط. ودفن خارج باب الفتوح بالروضة المباركة المعروفة بمطرح الجنة حيث تدفن العلماء والصلحاء الواردون فى فاس من الغرباء.

ومولده بسبتة فى شهر رمضان سنة سبع وقيل تسع وخمسين وست مئة.

وروى عنه الجم الغفير كأبى البركات بن الحاج، والأستاذ الخطيب أبى عبد الله بن أبى العاصى التنوخى، وآخرين رحم الله جميعهم ونفعنا بهم.

وقد قدمنا أنَّ ابن الحكيم تدبج معه، ومعنى التدبيج: أن يروى كل واحد من القرينين عن صاحبه.

وكان ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم المقدم الذكر محط رحال الأفاضل، وكم للناس فيه من أمداح وتآليف، وله ألف الشيخ الفقيه المحدث الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى طالب عبد الله العزفى كتاب «الإشادة بذكر المشتهرين من المتأخرين بالإفادة». وكان أبو القاسم هذا سمع من أبى جعفر بن الزبير وتوفى رحمه الله يوم الأربعاء الثالث عشر من رجب الفرد من عام سبعة عشر وسبع مئة قرب الزوال بالدرب الطويل من فاس المحروسة وتوفى أخوه الشاعر الجليل أبو العباس أحمد بغرناطة فى ذى الحجة من عام ثمانية وتسع مئة.

ومن إنشاداته فى كتاب الإشادة من شعر أخيه أبى العباس المذكور رحمه الله تعالى:

ملكت رق بـالجـمـال فـأجـمل وحكمت فى قلبى بجورك فـاعدل
أنت الأمـير على الملاح ومن يجـر فى حكمـه إلاّ جـفـونك يعـزل
إن قيل أنـت البدر فالفـضل الذى لك بالكمـال ونقـصـه لم يجـهل
لولا الحـظوظ لكنـت أنت مكـانه ولكان دونك فى الحضيض الأسفل
عـيناك نازلتـا القـلوب فكلهـا إمـا جـريح أو مـصـاب المقـتل
هزت ظبـاها بعد كـسر جـفونهـا فـأصـيب قلبى فى الرعـيل الأول
ما زلت أعـذل فى هواك ولم يزل سـمعـى عن العذال فـيك بمعـزل
صـبحت فى شـغل بحبك شـاغل عن أن أصـيخ إلـى كـلام العـذل
لم أهمل الكـتـمـان لكن أدمـعى هملت ولو لم تعـصنى لم تهـمل
جمع الصحيحين الوفاء مع الهوى قلبى وأملئ الـدمع كـشف المشكل

وهى طويلة مدح بها الوزير ابن الحكيم وأجاد.

وله من مطلع قصيدة فيه أيضًا:

هذا الصـبـاح فـغـادنى بصـبـوح وانهض براحك فـهى راحة روحى
لا تكترث لخطـوب دهرك واسقنى كـأس تحـسن منه كل قـبـيح
واسـرح سـوام اللفظ بين حـدائق مـا سـائم فى مـثلـهـا بمريح
فـتنت بزهرة زهـرها فـتـمـايلت تخـتال فى الحـبرات بعـد مسـوح
شـقت شقـائقهـا جيـوب كمـائم أسـفـا على زق يـخـر جـريح
وعيـون نرجسهـا تلوح شواخـصا لومـيض برق فى الـكئـوس مليح

والورد تخجله أنامل سوسن ... تومئ إليه بالسلام وتوحى
وأتى الربيع ربوعها بسواجع ... عجم تشق فؤاد كل فصيح
سجعت تبشرها بعود شبابها ... فأصخ إلى شق بها وسطيح
مالى وللأطلال أسأل صامتا ... منها وأعول فى مهامه فيح
فى الراح والريحان شغل شاغل ... لى عن عيافة بارح وسنيح
وأهيم فى ورد الخدود وآسها ... لا فى عرار بالفلاة وشيح
وأصون سمعى عن مقلة عاذل ... لتذللى والحب غير مشيح
كم عرضوا لى بالملام وصرحوا ... فعصيت فى التعويض والتصريح

ومنها أيضًا:

عجبا لهم يلقوننى بملامهم ... فى حب من يلقون بالتسبيح
إن صوح الروض النضير فخدّه ... أزهاره أمنت من التصويح
وتحار أعين مبصريه إذا بدا ... فى ثقل أرداف وخفة روح
قلبى بعذلهم يزيد توقدا ... لا غرو فى نار تشب بريح

وهى طويلة.

ومما أورده فى «الإشادة» لبعض الأعلام وأظنه قاضى الموحدين أبا حفص ابن عمر رحمه الله تعالى فى وصف الدنيا كلام بديع نصه:

هذه الدنيا - حفظك الله - كما قد علمته، فأعرض بحلمك عن جهلها وارغب بنفسك عن أهلها، واذكر قبائح أنبائها، واصرم وصل أبنائها، لا ترتع فى روضهم، ولا تركع فى حوضهم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم، وإذا

مررت باللاغين بذكر محاسنها، اللاهين بحسن ظاهرها عن قبح باطنها، فاله عن لهوهم، ومر كريما بلغوهم، مر المهتدى فى سيره، أعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره، فالسيادة والسعادة فى نبذها، لا فى أخذها، وفى تركها، لا فى دركها، وإليك عن وصلها إليك، وعليك بهجرها عليك، واتل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ... (١٣١)﴾ [طه]، وقوله تعالى: ﴿... وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ... (٢٨)﴾ [الكهف]، واحرص أن تكون منهم فزخرف الدنيا فى نظر العين زين، وفى نظر العقل شين، فغمض عينك تبصر، ولا تمدهما وأقصر، جعلنا الله ممن نظر بقلبه وأبصر بلبه، فأولو الألباب والفكر المخصوص بالذكر والعلم أرفع المزايا، وأوسع العطايا، هو غاية المنال والمُدْرك من ناله أى شىء فاته، ومن فاته أىَّ شىء أدرك، ولا علم إلاّ علم الكتاب والسنة، هما أفضل العطايا والمنة، فمن علمهما ونظر فيهما، وعمل بهما، نال غاية السعادة، وأدرك منتهى السيادة، قال الله تعالى لنبيه الكريم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾ [الحجر]. هذه المزايا العالية، والعطايا الواسعة الباقية، لا ما نهت عنه الآية الثانية، جعلنا الله ممن أبصر رشده، وذكر مراده، ووجه إليه قصده، ورأى فى أول أمره آخره، وابتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة بمنه وفضله. آمين.

يا راكضا فى طلاب الدنيا ... ليس لمن تصرع انتعاش
تتح يا عرضة لرام ... أسهمه بالردى تراش
لم تخش نارا هوى لظاها ... بمن له حولها انحياش
أعذر منك الفراش ألا ... علمت ما يجهل الفراش
تطلبها لا تنام عين ... عنها ولا يستقر جاش
من لك بالرى من شراب ... يشتد من شربه العطاش

دعــــهــــا فطـلابهــا رعـــاع | طاشت بألبـابهم فطاشـوا
واظمـأ لتـروى وكن كـقـوم | مـاتوا بها عـفة فـعاشـوا
لـم يردوهـا فـــــهـم رواء | ووارودوهـا هم الـعطـاش
كــــأن آمــــالـنا ظبـــــاء | ونحن من حَيْرَةٍ خـراش
لا تأمنن بـهـــا انبســــاطا | به لأعـــمـارنا انكـمـاش
كــأن آجــــالنا صـــقـــور | ونحن من تحتها خشخاش

انتهى.

وأبو حفص بن عمر هذا هو القاضى الجليل أبو حفص عمر بن القاضى الجليل أبى محمّد عبد الله بن محـمّد بن عبد الله بن عمر السلمى[1]. وذكر الحافظ ابن الأبار أن أصله من جزيرة شقر. قال: وولد بأغمات وسكن مدينة فاس.

روى عن جده لأمه أبى محمّـد عبد الله بن على اللخمى، أجاز له فى صغره، وعن أبى مروان بن مسرة، وأبى عـبد الله بن الرمامة، وأخذ عن أبى بكر بن طاهر كتاب سيبويه تفهما، وكان من أهل المعرفة واليقين، أديبا شاعرا مـجيـدا، غلب عليه الأدب حـتى عـرف به وشهـر مع جودة الخط وبراعـة الأدوات.

وولى قضاء تلمسان ثم نقل إلى قضاء فاس بعد أبيه بزمن، وولى قضاء إشبيلية وغيرها ونال دنيا عريضة.

وحكى عن أبى الربيع بن سالم أنه توفى بإشبيلـية فجأة فى الخامس من ربيع الأول سنة ثلاث وست مئـة. ومولده فى حدود الثلاثين وخـمس مئة.

---

(١) جذوة الاقتباس ٢/٤٩٦.

وقد غلط ابن فرقد فذكر أنّه ولد سنة خمس وثلاثين وروايته عن جده أبي محمّد عبد الله بن على المتوفى سنة ثلاث وثلاثين مع صحتها، تقضى ببطلان ذلك. قال ابن فرقد: توفى عام اثنين وست مئة بإشبيلية وهو يتولى قضاءها، بعد صرف محمّد بن حوط الله وكان أبو حفص قد صرف بأبى محمّد بعد ذلك بعام أو أزيد.

ومن مشهور نظمه رحمه الله تعالى يمدح أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على [الموحدى][1] رحمهم الله تعالى:

الله حسبك والسبع الحواميم ... تغزو بها سبعة وهى الأقاليم[2]
سبع المثانى التى لله قمت بها ... على من نصرها نص تقديم
وأنت بالسرور السبع الطوال على ... كل الورى حاكم بالله محكوم
والدهر سبعته سبعة جعلت ... جواد مالك والمنصور مخدوم
وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقة ... بوعد ربك هيهات التناجيم
تسمو بنفسى على السبع الشداد سمت ... فينا وثم لنا زلفى وتكريم
أنوار عدلك فى الآفاق داعية ... هل فى البسيطة ظلام ومظلوم
أعلى بك الله أعلاما هديت بها ... فأنت فيهن إكمال وتتميم
عليك أهل الهدى والحق متفق ... وحبل من فارق الإجماع مصروم

(١) التكملة من جذوة الاقتباس.

(٢) جذوة الاقتباس ج٢ ص ٤٩٦.

ومنها أيضًا:

فـؤاده بضـيـاء العلم منشـرح وكَـفُّـه بطنها بـالخـير منهـمـر العلم قـيـمـتـه والحلم شـيمـتـه لطالبى العلم مـا شـاءوا بخـدمته سحب العلوم عليـها من سماحـته العـين من نـظر والأذن فى خـبـر يغـضى أناة وحلمـا عـالما وله تشتـد فيمن عـصى أو خان وطأته إرادة فـوق إدراك الـعـقـول لـهـا حتى إذا ما بدا منـها النجاح بدت انظر خـواتمهـا تـفـهم مـبـادئهـا والْحَظْ سمـاء علاها عبـرة وكفى إنَّ الخليـفـة سـر الله ظاهرة فـسلمـوا واخلعوا الآراء واتـبعـوا الشرق والغرب من عرب ومن عجم والبحر والبـر من سهل ومن جبل

ووجـهـه بجمـال النور مـوسـوم وظهـرها لعـهـود الله ملثـوم طابت أرومـتـه والنفس والخـيم غنـى وعـز وإرشـاد وتعلـيم تهمى فهم فى بـحرها هم شرع هيم لا تشـبـعـان وباغى العلم منهـوم فى مـوضع الحق إقـدام وتصمـيم وفى الـثـقـاف لذات الـزيغ تقـويم فـحـسـبـهـا منه إيمـاء وتسليم كالشمس ما دونهـا فى الجو تغييم بالشرح مـا ليس بالمفهـوم مفـهوم من يسترق سمعها بالشهب مرجوم آياتـه وهو عـند الله مـعـلوم حكم الإمـام فمـا فى الدين تحكيم فى كفـه عودهم بالقبض معـجوم جـمـيـعـها بزمـام الرأى مـخطوم

ومنها أيضًا:

وكل جـد مـفـاد من عـلائك من ... نسـيـمه نـفس العلياء مشـمـوم
للمـسلمـين أميـر المؤمنين حـمى ... يحله مـن صـروف الدهر تحـريم
الدهر فـى أنفـه مـن حكمـه برة ... بهـا الزمـان على الأبرار مـخـزوم
العلم والديـن والدنيـا وسـاكنهـا ... في سلـك رأيك يا وسطاه مـنظوم
جـزاء سـعـيـك عند الله مـدخـر ... هذا كـتـابك فـى الأبرار مـرقـوم
عطفا على حسن أمـداحى وإن عجزت ... إنَّ الجـمال على العـلات مرحـوم
مـا علقـوا لو رأوا هذا قـفـا وألا ... هبى ولو جـاءهم حـجـر وكلثـوم
إذا لقـال لرواية عليـقـمـة: ... «هل ما علمت وما استودعت مكتوم»؟
يا سـامـعى أماديـح الإمـام ألا ... فاجثوا على الركب الإعظام أو قوموا
خذ كأس لفظى دهاقـا من مدائحه ... فـيـهـا الحـقـائق لا لـغـو وتأثيم
ندعـو له بدلا من مـدحه لـقصـو ... رِ المدح عنه وفـيـه العـذر مـعلوم
عـز الإمـام فلا تضـرب به مـثـلاً ... من ذا يقـاس به ومـثل مـعـدوم
أعطى الورى فضل ما أعطاه خالقه ... عليـه مـن ربه بشـرى وتسـليم
صل بالصلاة عليـه صدق مدحـته ... ذاك الرحـيق بهذا المسك مـختـوم

وحكى أنّه لما قال:

يا سـامـعى أماديـح الإمـام ألا ... فـاجـثـوا ...» البـيت

قام جميع من فى المجلس وكان فيهم الشاعر المفلق أبو العباس الجراوى، فاحتاج إلى مشايعتهم لذلك، وثقل عليه لضخامته، فجعل وهو يحاول القيام يسب القاضى أبا حفص عمر، ويشير إلى أنّه انتصف منه.

وحكى أيضًا أنّه لما أنشد القاضى أبو حفص هذه القصيدة، قال فيه الجروى المذكور وكان شديد الحسد له والإذاية لعسفه، وكان له تقدم فى تلك الدولة:

نبغت عمرة بنت ابن عمر ... هذه فلتعجبوا إحدى العبر
قل لها عنى إذا لاقيتها ... قولة تترك فى الصخر أثر
هبك كالخنساء فى أشعارها ... أو كليلى هل تجارين الذكر

فقال أبو حفص حينئذ:

نهانى حلمى فلا أظْلِم ... وعز مكانى فلا أُظْلَم
ولا بد من حاسد قلبه ... بنور مآثرنا مظلم
رحمت حسودى على أنّه ... يقاسى العذاب وما يرحم
بغانا الحسود ولسنا كما ... يقول ولكن كما يعلم

وكان أبو العباس الجراوى المذكور هجاء حاضر البادرة، سريع الجواب. ومن أغرب ما صدر عنه فى ذلك أنّه هجا قبيلة بنى غفجوم، استطرادا بهجو أهل فاس وقاضيهم ابن الملجوم، الكبير البيت، الشهير الأصالة فقال:

يا بن السبيل إذا نزلت بتادلا ... لا تنزلن على بنى غفجوم
أرض أَغَارَ بِهَا العدو فلن ترى ... إلاّ مجاوبة الصدى للبوم

قوم طووا ذكر السماحة بينهم ... لكنهم نشروا لواء اللوم
لا يملكون إذا استبيح حريمهم ... إلاّ الصياح بدعوة المظلوم
لا حظ فى أموالهم ونوالهم ... للسائل العافى ولا المحروم
يا ليتنى من غيرهم ولَوَ اننى ... من أرض فاس من بنى الملجوم

ومن نظم القاضى أبى حفص المذكور، من مطلع قصيدة يمدح أبا يعقوب بن عبد المؤمن، ويهنئه ببيعته الثانية:

ألا هكذا تبنى العلا والمآثر ... وتسمو إلى الأمر الكبير الأكابر
نؤم لبيعات الرضا مطلع الهدى ... وحيث الهدايا تعتلى والأوامر

ومن غزلياته قوله:

هم نظموا لواحظها فهاموا ... وتشرب عقل شاربها المدام
يخاف الناس مقلتها سواها ... أيذعر قلب حامله الحسام
سما طرفى إليها وهو باك ... وتحت الشمس ينسكب الغمام
وأذكر قدها فأنوح شوقا ... على الأغصان تنتدب الحمام
وأعقب بينها فى الصدر غما ... إذا اغتربت ذكاء أتى الظلام

وقوله أيضًا رحمه الله:

مها القفر لا دمية المرمر ... وفى العرب لا فى بنى الأصفر
بنفسى يعافير تلك الخيام ... ومسرحها فى النقا الأعفر
ملاعب يصبو إليها الحكيم ... ويسلب فيها فؤادى الجرى

وفى الـظبـــاء بنـات الأســـود غـيـارى مـتى بَـغَـمت تزأر
فـخـيس الهـزبر كنـاس الغـزال به الـشـــبل ناش مـع الجـــؤذر
تخـــالسـهـــا نظرا تحـــتـــه غـــرام به الحـى لم يشـــعـــر
وبالـلحظ يقـــدح زند الهـــوى فطـرف غـــــر وفــــؤاد برى

وكفّرها بقوله:

بقـلبك يا غـــافـــلا فـــانـظر وعـينيك غـمـضـهـمـا تبـصـر
إذا أرسل الـطرف هـام الفـــؤاد وبعض المرائـى عـمى المـبـصـر
وآفـــة قلـب الفـــتى عـــينه فــــــإن ترع قـلـبك لا تـنظـر

ومن قوله:

أغـــار علـى الصب مـن أنبـــه هو الحب مـن يطفـه ألـهـبـه
نأى القلـب عنى وشـوقى مـعـه فللـه أمـــرى مـــا أعـــجـــبـه
يحـن فـــؤادى إلى قـــاتـلى كـــذلك الهـــوى عند من جـــربه
ترق شـــمـــائل مـن ذاقـــه وتلـطف شَـــمْـــأَلُ من هـذبه
يجـــود لمســـخطـه بالرضـــا ويطـلب راحـــة من أتعـــبـــه
إذا شف قـلبى غـــرام الهـــوى دعـــا بالـنعـــيم لمـن عـــذبه

وكان القـاضى أبو حفـص هذا كريمـا ممدحا، وممن أجـاد فيه الشـيخ الأديب الفـقيـه أبو العبـاس أحمـد بن أبى الحكم يعـيش بن على بن شكَيل الصدفى من أهل شريش، المتوفى سنة خـمس وست مائة، ومولده سنة ثمان وسبعين وخمس مائة، وأمداحه فيه كثيرة، قدم قبلها كلاما نصه:

فيه استفرغت مجهودى، وإليه جلبت عدتى وعديدى، لأنه كان آدب أهل زمانه غير مدافع، وأولاهم بالفضل غير منازع، لتحليه بالتواضع فى الجلالة والبشاشة فى الجزالة، ووردت عليه غلاما، أحسب زندى سخاما وحدى كهاما، فتلقى نزرى بالاستكثار، ونسب بحرى إلى الاستبحار، وأولى - نضر الله وجهه - من البر لجانى والاستطراف لمذاهبى، والثناء على أنديته الآهلة، ومجالسه الحافلة، ما شهدت له بالتبريز، وخلص معه فكرى من تخوف النقدة الحسدة خلوص الإبريز، فقدحت فيه زند فكرى فورى، وفجرت فيه ينبوع شعرى فجرى، وأطلت فيه إطالة المفتن المغرب، وجعلت أمداحه نقلة المشرق والمغرب، ومع ذلك لم أنهض إلى عزه أعزه الله حيا وهابطا إلى خطة القضاء، فأتى مع سن الشيبة إلى رتبة مشيخة العلماء، فراسة منه وتوسما، واستروحا للنجابة وتوهما، إلاّ إنَّ البلد التى فيها كانت خشنة المبارك، فكنت اتقلى فيها على جمر الغضى، وأخاطبه بما لو ألقى على الحجر لا نفجر، وكانت الأناة غالبة على طباعه، وجائلة على نظره وسماعه، وكان مع ذلك مكدودا بالشفاعات، ومضيقا عليه فى الجهاد والطاعات، فخلعت عن عاتقى نجاد تلك الخطة، ودار فلك أمرى على غير تلك النقطة، وهو - عفا الله عنه - يقابل توقعى بالانبساط، وفترتى بتجديد الإنشاط، انبساطا الأمكنة والأزمنة، فقطع عليه غرضه تأخره عن الخطة، فما قطعت عنه امتداحا، ولا نسيت أيامه حنينا وارتياحا. ثم أعيد إلى الولاية، فعدت إليه، وقد أتى الهرم والسقم عليه، فعاقت منيته عن بلوغ الآمال، وسَلَبَتْنِيهِ علقا نفيسا لِمَا تخلفه الأيام والليال:

يا من لصبح الشيب كيف تنفسا ... فى لمتى فأجابه ليل الأسى

لا تحسبن سواد شعرى نعمة ... لكن كسته هموم قلبى حندسا

إلاّ يكن شاب العذار ولا انحنى ظهرى فقد شاب الفؤاد وقوسا
إنى لأغضى مقلتى عن لائمى وأرى ابتسامى من ضميرى عبسا
ويلين قلبى للخليل مودة فإذا أحس هضيمة يوما قسا
وأجيل لحظى فى المنى شغفا بها وأجل شوقى عن لعل وعن عسى
مالى أرى الهالات عدن هوادجا ولهذه الأضلاع صارت مكنسا
طويت على بيض الدمى فتكانست فيها ظباء يرتعين الأنفسا
فهى الدرارى فى الهواجر خنسا وهى الجوارى فى الهوادج كنسا
يطرقن أمواه الفلاة تعربا ويردن نيران الضلوع تمجسا
فيهن جائلة الوشاح تنفست فزها النسيم أريجها فتنفسا
زارت كما زار الخيال تسترا وعطت كما يعطو الغزال توجسا
حذرت من الرقباء حول طرافها فأتت تجر على التراب السندسا
ملت بطاريق الرجال وشاقها صعلوك حى ليس يبقى منفسا
زعمت فتاة الحى أنى مملق أرأيت إملاقى لمجدى مركسا
باتت تهيجها وساوس حليها حتى إذا الصبح المنير تنفسا
بكرت تلومك فى الندى كندية صدفية تنمى السكون وأشرسا
يا بنت عمى هل سمعت بماجد يبكين أوتى الذم أطعم أوكسا
لا تحسبى أكل المرار عميدنا غرثا ولكن عزة وتغطرسا
أذهلت عن عقبى الندى إنَّ الندى ليرد وحشى المنى متأنسا

عقر المطية للعذارى ربها فأبيح ثغرا من عنيزة أومسا
لم ينس ميتا بالكُلاب وربما قد ضاق ذرعا أن يفوه فيلبسا
ونسيت حجرا يوم هيج بالعصا أسدا ومن هاج الأسود تفرسا
هبطت كواهل ملكه من كاهل أبدا أصابت منه يوما أنحسا
فلئن أبيرت مالك أو كاهل فلقد أبارت منه قرما أحمسا
قد كان ملك فى كنودك والندى فى ظبية فتفردا وتقيسا
كملوك جيش كلما وطئوا الثرى وأظن أنَّ لها الثرى والأشمسا
ولطودها السلمى قاضيها الرضا كرم وجود ينطقان الأخرسا
شهدت له أصحابه وعداته حتى الغمام إذا همى وتبجسا
قسما لأندى بالندى واعتاده فينا فسار مع الركاب وعرسا
وكسا الورى العدل المبين وقبله سلبوا بجور ولاتهم تلك الكسا
وأعد أقدار الأمور بحزمه ورمى به غرض الخطوب فقرطسا
واتته للبيت الرفيع عماده عمد له مجداً وعزًّا أقعسا
قالت بنو ثعل: نفس مكارمًا تعزى لحاتمها، فقلت: وما عسى؟
جيئوا بواحد لحاتم طىء من هذه وعلى ألا أنفسا
أو سائلونى فى الأنام سوى أبى حفص فهل تجدون عنه معدسا
أو فاحملوا بعض الذى هو حامل ليردكم منه يلملم قد رسا
الناس أشباه ولكن بينهم فى الفضل ما بين الذؤابة والنسا

أحسبتم كل امرئ غمر الندى ما كل بيت بالشآم المقدسا

يا خجلة القمر المنير وقد رأى عُمَرا بأنواع الجلالة ملبسا

لو يستطيع لجاء مقتبسا لها من أفقه وإذا لصادف مقبسا

خاب امرؤ يرجو نداه غضاضة إلاّ الكفور فانه قد أبلسا

طيبت أفواه الرواة بمدحه فكأن عطارًا يضمخ معرسا

وعلوت قدر الناطقين بشكره ولئن تمادى فى نداه لأخرسا

يا واحد العرب الذى لو صورت طرفا عتيقا كان منه القونسا

إنى دعوتك للأمانى الغُرِّ فى ظلم الزمان السوء أحكى يونسا

إن يلقم نون الحوادث مطلبى فامده له يقطين جودك ملبسا

أنت الرواء إذا تعذر مورد والماء إن كدر الرجاء فأيأسا

والعجز أن يرجى سواك وإنّما أخشى نبات الروضة المتخلسا

فلأنت أنفس عقدة مذخورةٍ لم لا أصون عن ابتذالى الأنفسا

انتهى.

قال صاحب الإشادة العَزَفِىّ المذكور:

القاضى أبو حفص من مفاخر المغرب، لم يذكره أحد من لقيه وتعرض لذكره، إلاّ أطنب فى الثناء عليه، ووصفه بالعلم والفضل، والعدل فى القضاء، مع براعة النظم والنثر؛ ويكفى من ذلك ثناء المحدث أبى عبد الله محمّد بن عبد الرحمن التجيبى، نزيل تلمسان عليه، وقد ذكره فى شيوخه فقال: ونقلته من خط الشيخ الفقيه الأجل، الكاتب المجيد، الحسيب الأديب،

الأرفع الأكمل، القاضى المسدد، الموفق الأعدل، أبى حفص. ثم قال: لقيته بتلمسان حرسها الله، قدمها علينا قاضيا، فشمل أهل البلد كلهم أجمعين بفضله وأدبه وعدله، وإجلاله وإكباره وحسن خلقه، لا سيما مع طائفة الطلب، وأهل الأدب والحسب، فجزاه الله عن نفسه وعنهم أفضل الجزاء، فلا يعرف الفضل إلاّ فاضل، ولا يكرم الناس إلاّ الكريم، وكل يميل إلى جنسه، وما هو من طبعه، كما قال بعض الأدباء، وأجاد فى مقالته، وأحسن القول: «ما عبر الإنسان عن فضله، بمثل ميله إلى أهله».

وذلك منظوم فى قول الشاعر:

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه ... بمثل اعتقاد الفضل فى كل فاضل

وإنَّ أخس النقص إنَّ بنفى الفتى ... قذى النقص عنه بانتقاص الأفاضل

وامتثل رضى الله عنه قول الآخر: «اصحبوا الناس صحبة إن عشتم معها حَنَوْا عليكم، وإن متم بكوا عليكم». واستعمل ما قاله الشاعر فى كلماته، ونظمه فى قافيته:

وإنّما المرء حديث بعده ... فكن حديثا حسنا لمن وعى

ففعل والله ذلك أيام كونه بتلمسان، واستعمله بطبعه وطبيعته، وخلقه وخليقته، إلى أن نقله الخليفة إلى قضاء فاس، فلا تسأل عما أصاب الناس والإخوان من فقده، وفقد أدبه وعلمه، فذكر الطيب، والثناء الجميل، باقيان عليه إلى الآن بتلمسان، وهو مستقر فى غيرها من الأوطان.

وكان أبو حفص رحمه الله حسن الخَلْقِ والخُلقِ، مليح الخط، فصيح الخطابة والكتابة، وكنت إذا رأيته تمثلت عند رؤيته والنظر إليه، بما أنشدنا

شيخنـا الحافظ أبو طاهر السلفى الأصبهـانى، رضى الله عنه، فى مدح هادى ابن إسماعيل:

لهادى بن إسـماعـيل خلات أربع   بهن غـدا مـسـتـوجبـا للإمـامـة
خاطب ابن عبادة، وخط ابن مقلة   وخلق ابن يعقـوب، وخلق ابن مامة

وأنشدته رضى الله عنه البيتين، فاستحسنهما وشكر لى ذلك، وكان لى من بره وتأنيـسه وبشره حظ جـزيل، وقسم كـبير، ورغب إلـى أن أكتب له بخطى بعض مـا عندى من أخـبار الصـالحين، وأئـمة المتـقين، وأوليـاء الله المطيعين، فكتـبت له من الأحاديث الوعظية العلمية، والأشعـار الحكمية، ما أمكننى، فـسر بذلك، وشكر عـليه؛ ولمّا أتى مـدينة فاس، صـار يُرِى ذلك أوِدّاءه وأحبابه، ويشكر عليه، ويثنى خيراً، وبارك الله تعالى فيه. ثم قدر الله تعالى بوصـولى بعد انفصـاله عن مدينة فاس، وتوليـته لقضاء أغـمات، إلى حضرة مراكش، حـرسها الله تعالى، وكان بالحضـرة المذكورة، فسمع بذلك، وكنت نزلت بفندق من فنادقها، يقال له فندق السـكر، فوصل إليه، واجتمع بى، فدعـوت له وشكرت، ثم أولانى من بره وتأنيسـه ما عهـدت قبل منه، وزاد عليه، ورغب فى الوصـول إليه إلى أغـمات، فوصلت إليـه بعد ذلك، فرحب وسهل وأنزل، وأثنـى على عند الأصحاب والإخوان خيـرا، وقال ما يصدر عن مـثله، فالعنصـر الطيب لا يخرج منه إلاّ الطيب، وكنت مـعه فى داره فى خصب وسعة، وطلاقة وجـه، وحسن خلق، وطيب حديث، وكريم مشاهدة ومناشدة، لنفسه ولغيره.

انتهى ما قصـدت جلبه من كلام صاحب الإشادة، المنقول عـن التجيبى نزيل التلمسان، رحم الله الجميع.

ولنجعل آخر نظم القاضي أبي حفص رحمه الله قوله:

العلم يكسو الحلل الفاخره والعلم يحيي الأعظم الناخره[1]

كم ذنب أصبح رأسا به ومذنب أبحره زاخره

ما شرف النسبة إلاّ التقى أين تهيم الأنفس الفاخره

من يطلب العز بغير التقى ترع عنه نفسه داخره

أعرض عن الدنيا تكن سيدا بل ملكا فيها وفي الآخره

وبيت العزفيّين، الذين منهم صاحب الشهادة بسبتة أعادها الله مشهور، وكانت لهم الرياسة بها مدة، ثم أعقب الدهر جدتها بالبلى، ثم كل شيء فان ولا يبقى إلاّ الواحد الذى ليس معه في ملكه ثان.

وأبو القاسم منهم هو الذى تأمر ورأس سبتة، وهو أبو القاسم محمّد ابن القاضي المحدث أبي العباس أحمد بن محمّد بن الحسين، بن الفقيه الإمام على المعاصر لابن أبي زيد بن محمّد بن سليمان بن محمّد، الشهير بابن عزفة اللخمي. ينتهي نسبهم إلى قابوس بن النعمان بن المنذر، وكان قيامه بسبتة ليلة سبع وعشرين من رمضان، من عام سبعة وأربعين وست مئة، في دولة المرتضى الخليفة بمراكش، وقَتَل والي سبتة أبا عثمان بن خالد تلك الليلة، وملك طنجة، ودخل أصيلا، وهدم سورها، وتوفي بسبتة يوم الخميس الثالث عشر من ذي الحجة من عام سبعة وسبعين وست مئة وله سبعون سنة، وكانت دولته ثلاثين سنة وشهرين وستة عشر يومًا، من

(١) جذوة الاقتباس ٢/ ٤٩٨.

شَهْدة[1] بين كتفيه، مرض بها واحداً وعشرين يوما، وكان مولده بسبتة فى منتصف شوال عام سبعة وست مئة.

وهو الذى أكمل «الدر المنظم، فى مولد النبى المعظم». من تأليف أبيه أبى العباس رحمه الله.

ورأيت على نسخة كتبت فى حياته أول الكتاب المذكور ما نصه:

قال سالك سنن السنة، القائم من أعمال البر بما يضيق عنه وسع المنة المعتصم بجبل الله القوى المتين، المعتمد على لطفه الشامل وفضله العميم المبين، الشيخ الفقيه الأجل، العلم الأكمل، أبو القاسم بن الشيخ الفقيه الإمام، العارف العالم، علم العلماء العاملين المتقنين، ونخبة الفضلاء الصالحين المتقين، أبى العباس أحمد بن الشيخ الفقيه القاضى العالم المحدث، أبى عبد الله اللخمى، ثم العزفى، من أهل سبتة حرسها الله وأجزل قسمه من عفوه ورضاه، وأنجح عمله وقوله وقصده، وجعل فى ذاته وسبيل مرضاته صدوره ووروده. انتهى.

وفى موضع آخر من هذه النسخة ما نصه: السفر الأول من كتاب «الدر المنظم فى مولد النبى المعظم، ﷺ، وشرف وكرم».

لمّا شرع فى تأليفهن ومات ولم يكمله الشيخ الفقيه الصالح، علم العلماء، ونخبة الصالحين الفضلاء، أبو العباس أحمد، بن الشيخ الإمام الفقيه، الصالح القاضى، العالم المحدث، المقدس المرحوم، أبى عبد الله اللخمى، ثم العزفى السبتى، رحمه الله، ورضى عنه، ونضر وجهه، وأجزل ثوابه، وأكمل بعده، وأوضح فيه قصده، ابنه الشيخ الفقيه الأفضل، العلم الأوحد، السنى السبتى، المبارك الأكمل، أبو القاسم، أدام الله عافيته ووفقه،

(١) فى هامش المطبوع: «الشهدة بلسان المغاربة: دمل كبير، ولعله ما يسمى الآن بمصر بجمرة السكر.

وشرح صدره، وختم بالكتاب والسنة ديوان عمله الصالح وعمره، يذكر فيه بعض ما خص الله تعالى به نبيه ﷺ وفضله على كل من تأخر من خلقه أو تقدم، وما امتن به عليه وعلى أمته، في أن جعله أفضل الأنبياء، وجعلهم أفضل الأمم، من بين ولد آدم، ليتخذوا مولده الكريم موسمًا، يتركون به ما كانوا يقيمونه من أعياد النصارى وعوائدهم، التي يجب لمغانيها أن تعطل، ولمبانيها أن تهدم. انتهى.

وكان الرئيس أبو القاسم المذكور كتب خطه بالإجازة في هذا الكتاب للخطيب أبي علي، بن الخطيب أبي فارس بن غالب الجمحي، مع جماعة من أهل سبتة وأعيانها، حين قرءوه عليه بالجامع الأعظم من سبتة، في شهر ربيع الثاني، من عام سبعة وخمسين وست مئة، قائلا:

أجزت له بحق روايتي لما فيه عن أبي، ومشاركتي له في تأليفه، على حكم الإجازة وشرطها، وصحة الرواية، عاشر الربيع المذكور. انتهى. وبعضه بالمعنى.

ونسبتهم إلى لخم لا مدفع فيها عند الثقات، وبذلك وصفهم الأكابر، غير أنَّ ابن الخطيب في الإحاطة، نقل عن «الكتاب المؤتمن، في أنباء أبناء الزمن» ما نصه: وتزعم بعض أهل سبتة أنَّ أصلهم من مجكسة من البربر، فيقولون: ما للخم ومجكسة؟ وهذا موكول إلى قائله، إذ لا نعلم حقيقة الأمر فيه.

نعم، الإنصاف في المسألة أنَّ كل من عرف بالأصالة في المغرب الأقصى، ولم يعلم لآبائه قدوم من المشرق، حيث جراثيم العرب، ولا قدوم من الأندلس، حيث أبناء العرب، وانتسب مع ذلك إلى قبيلة [من العرب][1]،

(١) الزيادة يقتضيها السياق.

فلا بد له من الاستظهار على ذلك، وإلاّ كان ما أتى به مظنة لأحد أمرين: أما لكون سلفه من الموالى، فانتسبوا إلى ساداتهم، إذ يجوز لمن كان مولى عربى أن ينتسب إلى قبيلة سيده؛ وإما للكذب. وهذا أعدل ما يقال. انتهى.

ونقله فى الإحاطة فى ترجمة الفقيه المشارك فى الطلب والأدب أبى إسحاق إبراهيم بن أحمد بن أبى عزفة اللخمى[1]. وإلى الله ترجع الأمور.

وكان الرئيس الفقيه أبو القاسم العزفى المذكور فقيها أصوليا، نحويا لغويا محدثا، عارفا بالرواية، شاعرا مجيدا.

فمن نظمه فى آل بيت المصطفى ﷺ:

ذرية المصطفى إنى أحبكم   وحبكم واجب فى الدين مفترض
فليس يبغضكم لا كان باغضكم   إلاّ امرؤ مارق فى قلبه مرض
وحسبكم شرفا فى الدهر أنكم   خير البرية هذا ليس يعترض
ولست أطلب فى حبى لكم ثمنا   إلاّ الشفاعة فهى السؤل والغرض

ولمّا توفى رحمه الله تعالى قام بعده بالأمر ابنه أبو حاتم أحمد ثم خلع وتولى أخوه أبو طالب عبد الله فى سنة ثمان وسبعين وست مئة وخلع ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شوال سنة خمس وسبع مئة فكانت دولته سبعا وعشرين سنة، وتوفى بفاس مخلوعا عام ثلاثة عشر وسبع مئة وله خمس وسبعون سنة. والذى خلعه الأمير فرج بن إسماعيل بن يوسف بن الأحمر دخل عليه سبتة عنوة فى الليلة المذكورة وقبض عليه.

ثم تولاها الأمير يحيى بن الأمير أبى طالب ابن أبى القاسم ويكنى أبا عمر وبويع سبتة عام عشرة وسبع مئة وخلع فى سنة إحدى عشرة وسبع مئة

---

(١) بحثت عن هذه الترجمة فى الإحاطة (ط. الخانجى) فلم أجد بها ترجمة لأبى إسحاق إبراهيم العزفى.

وكانت دولتـه الأولى هذه سنة وستّة أشهـر. وبويع ثانيا بسبـتة فى سنة أربع عشرة وسبع مـئة، وتوفى بها فى ظهر يوم السبت السادس لشـعبان سنة تسع عشـرة وسبع مئة، وكـانت ولادته بها فى رمضـان سنة سبع وسبـعين وست مئة. وكان فقيها فاضلا، جمـيل الوجه، شجاعا بطلا، عافا بالأصول والفقه والمنطق والعربيـة واللغة والحديث، وقـيل: إنه أول من ركب بالرمح والسيف من بنى العزفى وجند الجنود.

ثم تولى بعده ابنه أبو القاسم محمّد بن يحيى وبويع بعد أبيه فى شعبان من عام تسـعة عشـر وسبع مئـة، وخلع فى صفر سنة عـشرين وسبع مـئة، فكانت دولته ستّة أشهر. وتوفى بفـاس وهو كاتب الحضرة المرينية ليلة السبت حادى عشر صفـر عام ثمانية وستين وسبع مئـة وله ثمان وستون سنة، وولد بسبتة فى شوال عام تسعة وتسعين وست مـئة. وكان فقيها شاعرا مكثرا مليح الفكاهات وشاحا، وقد بز أهل زمانه فى الموشحات، وقد حكى عنه أنّه أراق الدواة فى فى محفل جليل فقال بديهة:

ألا يا كرام الناس غضـوا جفونكم   فـإنى من الفـعل القـبـيح مـريب
هرقت دواة وهى كـالكـأس بينكم   وللأرض من كأس الكـرام نصيب

وكان مولعا بنظمه بالتورية.

وعزم السلطان أبو عنان لما أخذ قسطنطِينة على استـعماله بها فبكى لبعد الشقـة عن ولده وبلده فتركـه. وهو آخر المذكوريـن من هذا البيت رحم الله الجميع.

وصاحب الإشادة المتـقدم الذكر، هو عم أبى القاسم محـمّد بن يحيى هذا، لأنَّ صاحب الإشادة كـما أسلفنا، هو عبد الرحـمن بن أبى طالب عبد الله بن محمّـد بن أحمد بن محمّـد بن أحمد وهذا محمّـد بن يحيى بن أبى طالب عبد الله بن محمّد بن أحمد.

وقد عرف فى إشادته بابن خبازة ورأيت أن أذكر بعض ذلك فنقول: هو أبو عمـرو ميمـون بن على بن عبـد الخالق الخطابى[1]، نسبة إلى قـبيل من صنهاجة، الذى بقطر فاس، ويعرف بابن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة. عَرَّف به أبو عبد الملك المراكشى فقال: كان بارع الخط، وكان من أكبر أعـاجيب الدهر فى سرعة البديهـة، ناظما أو ناثرا، مع الإجادة التى لا تجارى والتفنن فى أساليب الكلام معـربه وهزله، على اختلاف اللغات. تطور كثيرا وتصوف، ونسك ووعظ، وكان فى أخـر عمره جانحا إلى امتداح ملوك عصره فكان يـأتى فى ذلك بما لم يسمع بمثاله، ولا يطمع فى لحاقـه، بسرعة ارتجال، وحـسن افتنان، وسرعة امـتثال، وله فى ذلك أخـبار غريبة عـريقة. وولى بأَخَرة حسبة الطعام بمراكش.

وذكر أبو عـبد الله بن الأبار فى التحـفة فيمن لم يـجد له غير الهـجاء وظلمه، كـما أثبت أبو بكر بن رفـاعة الشريشى، وقـد شهـد فيه فى كـتاب التكملة له بما يخالف ذلك وكناه أبا سعيد، وذكر أنه لقـيه بإشبيلية وسمع منه بعض كلام فى غير ذلك بمالقة، وتوفى برباط الفتح فى أول سنة سبع وثلاثين وست مئة.

وأنشد له من قصيدة:

---

(١) جذوة الاقتباس، ص ٣٤٨.

وجـــد الـنبـــوة حـلة مطـوية لا يستطـيع الخلق نسج مثـالها[1]

فـأسر حـســوا فى ارتغـاء يبتـغى بمحـــاله نســـجا عـلى منوالهـــا

وذكر أنّه قالها بمراكش. انتهى.

قال صاحب الإشادة: قال هذه القصيدة فى المأمون بن المنصور حين تبرأ من إمامـهم المهدى، وأبدى مـساويه. وأسـقط اسمه من الخطبـة وهو المعنى بقوله: وجد النبوة حلة مطوية.

وقد كتب عـن أبى عمرو هذا كثيـرا من شعره أبو عمـرو بن سالم بن صالح النهـروانى المالقى الأديب المقيـد الضابط وتاريخ إجـازته إياه سنة أربع وست مئة. ومات ابن سالم قبله بست عشرة سنة.

ومن شعـره أى أبى عمرو المذكـور يرثى أبا محمّـد عبد الله أحـمد بن محمّد بن عبد الملك بن الحـافظ أبى بكر بن الجد، ويعزى أباه عنه وهو يومئذ وزير إشبيلية وعظيمها، وكانت حينئذ حاضرة الأندلس:

أرجة الصعق يوم النفخ فى الصور أم دكة الطود يوم الصعق فى الطور[2]

أم هدت الأرض إظهـارا لما زجرت به الخليـفـــة من إيقـاع مـخـدوع

أم الكواكب فى آفـاقـها انـتشـرت وباتت الشـــمس فى طـى وتكوير

مـا للنهـار تعـرى من ثيـاب سنى وأشـبـه الليـل فى أثواب ديجـور

قـد كـان للصبـح طرف زانه بلق فـقـــسم الخلق بين الـدجن والنور

(١) جذوة الاقتباس، ص ٣٤٨.

(٢) جذوة الاقتباس، ص ٣٥٤.

فـمـا الملم الذى غـشى بدهمـتـه أديمـــه عنبـر من بـعـد كـــافـور
أصح لتـســـمع من أنبـائهـــا نبـأ يطوى من الإنس فيـها كل منشور
وانظر فإن بنـى عدنان ما حـشروا إلاّ لرزء عظيم الـقـدر مـشـهـور
وافى مع العيد لا عادت مـضاضته فـشاب سلسـاله الأصـفى بتكدير
واعتـام دارا لها فى السبق جمـهرة من المفـاخـر أزرت بـالجـمـاهيـر
رمى قريشـا فأصمى سـهم حادثه أبناء فـــهـــر بتـفـــريق المقـــادير
فحانه الجد فى ابن الجد حين قضى وأثر الخطب فـــيـــهـــا أى تأثيـــر
لله والمجـــد مـــا أبقـــاه من أثر أخرى الليـالى بطيب الذكـر مأثور
نوارة عندمـــا راقت بدوحـتـــهـا أهوت إلى التـرب من بين النواوير
جار الـذبول عليهـا بعدمـا ملأت مـعاطس الدهر من طيب وتعطيـر
وســيف بأس الخطب أغـــمـــده صرف الحـوادث فيهـا بعد تكسـير
قضى فـوافق شهر الصوم مـرتحلا ووافق الشـهر فى فـضل وتطهيـر
واخـتـاره خاطـب الخطب الملم به للصهر كفئا فـأمضى العقد للحور
فـســار للحـين مـســرورا وخلفنا للحـزن فاعـجب لمحزون بمسـرور
نادته أنجـشــة الأحـزان يوم حـدا أظعـــان قلبى رفـــقـا بالقـــوارير
فالوجد والدمع من الحزن قـد اقتسما قلبـى وجـــفنى بمنظـوم ومنثـــور
فالقلب بالغيظ فى تصعيـد مستعر والجفن بالفيض فى تصويب ممطور
وسـاق الخطب يشدو الحـاملين به يسوقهـم سوق حادى العير لـلعير

وللمــلائك فى آفــاقـهــا زجل   قـد شـيـعـتـه بتـهـليل وتكبـيـر
أثنى المصاب على شيخ الجزيرة فى   عـقــد وحل وتقـديم وتأخــيـر

وهى طويلة جدا منها:

مـقدمـات الليـالى طالما فضـحت   نتـائج الغـدر مـنهـا كل مـغـرور
جمع الســلامة معدوم الوجـود بها   وكم بها لـلردى من جمع تكسـير
وعامل الموت قَـدْ أحصى مـهندسه   منازل العـمـر عَـدًّا دون تكسـيـر
والأرض طرس وهذا الخلق أحـرفه   والحـرف مـا بين ممحـو ومبتـور
والدهر يعـرب بالأفـعال يظهـرها   طورا ويعـجم منـهـا كل مـسطور
وإنما الخلـق أســمــاء تعــاورها   إعـرابه بـين مـرفـوع ومــجـرور
وكلهم فى مدى الأعـمار تحسـبهم   كـحـالهـا بين ممدود ومـقـصـور
والموت مـثل عـروضـى يقطع من   أبيــاتهم كل مــوزون ومكســور
يا من يؤمل أن يبـقى وقد نفـضت   أيدى المقــادير مـن إبرام تقــدير
هذى الحـقيـقـة لا ما حـدثتك به   آمـال نفـسـك عن دنيـاك من زور
لا تخـدعنك الليـالى إن فتـنتـهـا   كـادت فكادت ترينا كل مـحـذور
كم بادرت بعبـوس الخطب من ملك   قـد بات بالبشـر وضاح الأسـارير
سائل كسرى مليك الفرس هل تركت   له المنايا جـناحـا غـيـر مـكسـور
وانزلا بصنعاء فى قـصر ابن ذى يزن   تلمم بقصـر على الأغيار مقـصور
واعبـر على حيرة النعـمان معتـبراً   تعـبر بأطلال نعـمى ذات تغـيـيـر

وأين من كان سـجن الجن فى يده		والإنس والجن فى قـهر وتسـخيـر
وأين مـخـتـرق الدنيـا بعـزمـتـه		يطوى البـلاد بهـا طى الطوامـيـر
بادروا فـليس بهــــا باد يحـس به		منـهم وأفـنـاهـم ريب الـدهاريـر
هو القـــضـاء أبا بكر أصـــبت به		فـاصـبـر وسلم تـسليم مـأجـور
والله يحـرس دنيـــاكم ويدفع عن		سـامى مـعـالـيك أنواع المحـاذير

وحكى أنَّ المعتصم يحيى بن الناصر بن المنصور الموحدى، ضرب بظاهر مراكش قـبة حمراء، فـبادر إليها العـرب والنصارى من عسكر عمـه المأمون؛ فقطعوا أطنابها، فسقطت، فقال فى ذلك أبو عَمْرو هذا من قصيدة:

انظر إلى القـبـة الحـمـراء سـاقطة		لما رأت مـضر الحـمراء عن كـثب
من كان أولى بهـا إن كنت ذا بصر		لعجم أو مـعدن العليـا من العرب
وإنما سـجـدت لما سـمت وغـدت		فوق الضلال وكـانت أعجب العجب

ومن رائق نظم أبى عمرو قوله:

هب النسـيم ضـحى ففـاح المندل		وتأرجت منه الصـبـا والشمـأل(١)
أسرى عليـلا فاستحث إلى الصـبا		صـبـا بـأنفـاس الصـبـا يـتـعلل
يهـوى العـذير وسـاكنيـه ومن له		لو كـــــان يدنـو منه ذاك المـنزل
مـا شـام برقا بالـفضـا إلاّ انبـرى		شوقـا على جمر الغـضى يتململ
والبرق فـى نقع السحـائب سيـفه		سـيـف الكمى إذا يكر ويحـــمل

(١) جذوة الاقتباس، ص ٣٥٧.

فكأن ذاك البرق واش قد مشى بنميمة والرعد لاح يعذل
وأنا الفداء لجيرة نزلوا الحمى وحمى القلوب هو الحمى والمنزل
وتحملوا يوم الفراق وإنما بقلوبنا يوم الفراق تحملوا
قبسوا ومن قلب المعذب موقد وردوا ومن جفن المعنى منهل
ما ضرهم إذ أعرضوا لو عرضوا للوصل أو ذكروا العهود فأقبلوا
حملوا الجمال على الجمال كأنما أفلاكها منها الأهلة تكمل
أبدت لنا حلى الطلى وتبسمت زهرا فراق مقلد ومقبل
ومن العجائب أن أهيم بجنة حلت بقلبى هو نار تشعل
ويهان مرسل ناظرى فى حبها ومن التناصف أن يعز المرسل

ومن شعره رحمه الله تعالى هذه القصيدة الفريدة التى مدح بها المصطفى ﷺ، وأشار إلى جملة من مناقبه الربانية، ومآثره العرفانية، وآياته الباهرة ومعجزات الظاهرة ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، وبارك وأنعم، وتحنن وترحم، وهى قوله(١):

حقيق علينا أن نجيب المعاليا لنفنى فى مدح الحبيب المعانيا
ونجمع أشتات الأعاريض حسبة ونحشد فى ذات الإله القوافيا
ونقتاد للأشعار كل كتيبة لنصر الهدى والدين تردى الأعاديا
فألسن أرباب البيان صوارم مضاربها تنسى السيوف المواضيا
لنطلع من أمداح أحمد أنجما تلوح فتجلو من سناه الدياجيا

---
(١) جذوة الاقتباس، ص ٣٤٨.

كـواكب إيمـان تنيـر فـيـهـتـدى　　بأضـوائهـا من بـات للحق سـاريا
سـهوت بمدح الخلـق دهرى فهـذه　　سجودى لجبرى كل ما قلت ساهيا
فـلا مـدح إلاّ للـذى بمديحـه　　تطيع إذا مـا كنت بالمدح عـاصيـا
رسـول براه الله من صـفـو نوره　　وألبـسـه بردا مـن النور ضـافـيـا
ومـا زال ذاك النور من عـهـد آدم　　ينيـر به الله الـعـصـور الخـواليـا
ثوى فى ظهـور الطيـبـين يصـونه　　وديعـه سر صـار بالبـعث فـاشيـا
وخص بطون الـطيـبـات بحـمله　　ليـحـمل فـرعا بـالسيـادة زاكـيـا
بـه وزن الله الخـلائق كـلهـم　　فـألقاه فـيـهم راجح الوزن وافيـا
وأنقـذنا من نـاره بظـهـوره　　ولولاه كـان الكل بالشـرك صاليـا
وآدم لما خـاف يجـزى بذنبـه　　توسل بـالمخـتـار لله داعـيـا
فـتـاب عليـه الله لما دعـا به　　وأدناه منه بـعـد مـا كـان نائيـا
وقد يهجر المحبوب فى حالة الرضا　　ويأبى الهـوى ألا يصـدق واشـيـا
وعـين الرضا عن كل عـيب كليلة　　ولكن عيـن السخط تبدى المساويا
وأدرك نوحـا فى السـفـينة رعـيـه　　فخلـصه الله كان فى المـوج جاريا
ومـا زال سـام وهو ثاو بظـهـره　　على أخـويه بالفـضـائل سـامـيـا
فـخـصص حـتى بالمكان كـرامـة　　وأسكن فى أعلى الـبلاد مـراقـيـا
وأنزل حـام بـالجنوب مـجـانيـا　　ويافث فى أقـصى الشمـال مؤازيا
وأنزل سـام للفـضـيلة وحـده　　بأوسط مـعـمور الـبلاد الأعـاليـا

وبادر جـبـــريل الخليـل لأجله ليـحمـيه إذ أبصـر الجمـر حامـيا

ويخـبـــر فى وقت البـلاء يقـــينه فصــادف ورد الخلة العذب صافـيا

فـقــال له: هل تســألنى كـفـاية فـجـاوبه حـسـبـى بربى كـافـيـا

فكانت عـيـه النار بردا كـمـا أتى به وسـلامـا وهى نار كـمـا هيـا

وجـازاه فى الإسـراء عنهــا نبـينا وألهـمنا فـوق السـمـوات سـاريا

فلمـا انتهـى جبـريل عند مـقامـه بحـيـث تلقى الأمــــر ألا تماديا

أشـار على المخـتـار أن سـر فـإنه مـقامى لا أعـدوه مـا دمت باقيـا

فناداه يا جـبريل: هل لك حـاجة إلى الله فأسـألها لتـعطى الأمانـيا

فـقــــال له: سله لأبسط رغـــبـة على النار منى لــلعصـاة جناحـيـا

فـــدلى فى أفق المهـــابة رفــرف وزج براق العـز فى الـنور راقـيـا

ومن أجلـه خص الذبيـح فـــداؤه وفـد ظهـره المختــار أصبح ثاويا

فــــداه بـذبح عظم الله شــــأنه لأن كان دهرا فى الفيـراديس راعيا

وثنى بعـــيـد الله حـامل فــضله فكان بذاك الفــرع للأصل راقـيـا

لذلك مـا قـال الرسـول منبـهـا: أنا ابن ذبيـحـيـهـا يعـد المعـاليـا

وعف أبوه إذ دعـــتـه لنفـســهـا فـتـاة رأت نور النبـوة ضـاحـيـا

مـضى ولـذاك النور بين جـبـينه شعاع السنى يعشـى العيون الروانيا

فـأعــرض عنه ثم سـار لـشـأنه وكـان له الرحـمن بالحفـظ واقيـا

وعــــاد وقـــد أدى أمـــانـة ربه لأمـتـه وعـدا مـن الله مـاضيـا

ومر على حي الفتاة فنوديت هلمى تصادف لذعة الحب راقيا
فقالت لهم قد كان ذلك مرة لأمر عصينا فى هواه النواهيا
أردت بأن أعطى سناه وقد قضى لغيرى به من كان بالحق قاضيا
وكم طالب ما لا ينال وقاعد سعادته تبدى له السؤل دانيا
وكم شاهدت من آية أمه به يصير بها جيد الديانة حاليا
رأت فى معاليه مرائى جمة فصدقت الآثار منه المرائيا
وقيل لها بشراك فزت بخير من يرى فوق أكناف البسيطة ماشيا
وحفت به الأملاك فى حين وضعه بليلة إفضال تزين اللياليا
وبشر رضوان الجنان بخلقه ففتح جنات النعيم الثمانيا
ونادى منادى العز طوفوا بأحمد جهات الدنا طرا وعموا النواحيا
بدا واضعا كفيه بالأرض رافعا بعينيه نحو الأفق بالطرف ساميا
وأعول إبليس اللعين وقال قد يئست وَقِدْمًا كنت للكفر راجيا
وسار إلى صنعاء شيبة جده فحل محلا للوفادة قاضيا
وحيا بغمدان ابن ذى يزن بها وهنأه بالملك إذ عاد واليا
فقربه دون الوفود وخصه ليسمع قولا فى الرسالة شافيا
وقال له إنا وجدنا بكتبنا نبيا يرى من نحو أرضك آتيا
يموت أبوه ثم تهلك أمه ويكفله بعض العمومة حانيا
وقال له والبيت ذو الحجب زاره وفود الورى جابوا إليه الفيافيا

لأنت على ما يقتضى الوعد جده فشيد به للمجد ما كنت بانيا
وقال له احفظ ما أقول فإنه سيملك أرضى إذ رأى الملك واهيا
وقول هرقل إذ أظل زمانه فقال أرى ملك الختان مدانيا
وطالع فيه مصحف الأفق ناظرا كما زعمو يستشير الدراريا
فلم تنقض الأيام حتى أتى له كتاب رسول الله للحق داعيا
فباحث عن أهل مكة سائلا وكان بأوصاف النبيين داريا
ولبى الهدى لما دعاه جماله وهام قليلا ثم ألفى ساليا
وورد الرضا لا يهتدى لسبيله فيروى به من كان فى الله صاديا
وإيوان كسرى ارتج ليلة وضعه وبات عليه قصره متداعيا
وزاد برؤيا الموبذان ارتياعه فأذهله أن يستبين المساعيا
وفسرها شق وشق غباره سطيح بسجع قصٍّ ما كان رائيا
فنصا على إرسال أحمد مثبتا لدين الهدى بالرغم للكفر ماحيا
وأخمدت النيران نيران فارس وكانت تلظى ألف عام تواليا
وحمل ذاك الحلم حجر حليمة لترضعه در الفضائل صافيا
أبى حمله النسوان لليُتْم وانبرت له فرأت من حينا الرزق ناميا
فحازت به السبق الأتان كرامة وأخصب مرعاها ففاق المراعيا
وشارفها إذ لا تبض بقطرة فصارت به ثجا تروى الصواديا
وفى حيّها وافاه جبريل قاصدا وأقبل ميكائيل بالأمر تاليا

فشقا به صدر النبى لشرحه فكان لما يلقى له الله واعيا
ورداه فى الحين التئاما فما ترى سوى أثر ما زال للشرح باقيا
وجاءا بمنديل وطست ليغسلا بماء الرضا قلبا عن الله راضيا
وعاد أخوه جازعا مخبرا بما جرى من مخوف كان للأمر جاريا
فسارت به من حينه نحو أمه تخاف عليه إن أقام العواديا
وما زال محروسا أمينا مؤمنا سبوقا صدوقا سامى القدر عاليا
حييا وفيا خاشعا متواضعا كريما حليما يستفز الرواسيا
وفى سيره للشام شام بقربه بروق الهدى من لم يكن قط رائيا
أكب عليه فى طريق مسيره إليها بحيرا للهدى متراميا
ولما رأى تلك العلامة لم يزل لمّا وافق الكتب القديمة باكيا
وكانت به من غلة الشوق علة فساق له الله الطبيب المداويا
وقصدته فى ذى المجاز وعمه به ظمأ قد صير الصبر فانيا
فأهوى ولا ماء إلى الأرض راكضا ففجر ينبوعا من الماء جاريا
وكم بان من يسر لميسرة به يرد أخا سكر الغواية صاحيا
فكان إذا اشتد الهجير أظله غمام عليه لا يزال مماشيا
وأخبره نسطور بصرى ببعثه فأظهر من غيب الرسالة خافيا
وبغضت الأصنام للمصطفى فلم يزل هاجرا فعل الضلالة قاليا
وكان يرى ضوءا يلوح لعينه ويسمع تسليما عليه محاذيا

ويأتى حـراء للتحنث قـاصدا حـبا لأسـباب الوصـال مـراعيـا
ويخـرج مـن بين البيـوت لعله يحدث عن نفسه فى السر خـاليا
وكـان رآه الله أكـرم خلقـه فـأرسله بـالحق للخلق هـاديا
وأسرى به ليلا إلى حضـرة العلا فـما زال فـيهـا للحبيب مناجيـا
وسـار على ظهـر البـراق كـرامـة له راكبا إذ سار جبريل مـاشيـا
ولما أتـاه الوحى وارتـاع قلبـه لشـدة مـا قـد كان منـه ملاقيـا
فسـارت به عمـدا خديجـة زوجه لتـسـأل حـبـرا بالـزمـانة فـانيـا
وكان امـرأ قد مارس الـكتب قارئا وبات لضـيـفـان المعـارف قـاريا
فـبشـره أن سـوف يطلع صـبحـه فـيكشف من ليل الغـواية داجيـا
وقـال له يا ليـتنى كنت حـاضـرا بهـا جذعـا أوليك نفـسى وماليـا
ووقـتـك أن يدرك زمـانى يـومـه ومن لى به أنصـرك نصـرا مواليـا
وآيتـه فى الغـار إذ نـزلا به وكـان له الصـديق بالصـدق ثانيـا
وقـد أرسل الله الحـمـام لبـابه وقـارنه بالـعنكبـوت مـضـاهيـا
فباض على الفور الحـمام وشيدت من النسيج أيدب العنكبوت مـبانيا
فـدافع عن صـديقـه ورسـوله بأضـعف أسباب الـوجود مقـاويا
وكم آية خـصت سـراقة إذ مـشى على أثر المختـار لـلغار قـافيـا
فـشاهد آثارا مـن الخسف كـاد أن يكون لقـارون السـفـاه مـؤاخـيـا
ولّما دعـا بالهـاشـمى أجـاره فـأبصـر فى الحين من ذاك نـاجيـا

وأصبحه منه ظهيرا مكرما بخط أبي بكر يخيف الدواهيا
وأخبره أن سوف يفتح أمره مدائن كسرى والبلاد الأقاصيا
ويجعل فى كفيه من بعد فتحها سواراه مما يحرز الدين ساميا
فأنجزها الفاروق فى حين فتحها له عدة بالصدق فيها مباهيا
وآيته فى خيمتى أم معبد وفى الشاة إذ لم تبق تصحب راعيا
وفى الذئب إذ أقعى وأخبر مفصحا عن المصطفى والذئب ما زال عاويا
وفى الضب لما أن دعاه أجابه وقال له لبيك لبيك داعيا
وآيته إذ فارق الجذع فضله فحن إليه الجذع فى الحال شاكيا
وإن انشقاق البدر أعظم آية ترد على من كان للدين زاريا
وفى الجمل الآتى بحضرة صحبه ليشكو تكليف المشقة راغيا
وقصته فى المحل لما دعا لهم فأبصرت سحبا كالجبال هواميا
وسال به وادى قناة لأجله ثلاثين يوما لم يزل متواليا
وفى قصة الزوراء للخلق آية وذكرى لعبد كان للذكر ناسيا
دعا بإناء ليس ينقع مائه لقتلته بالرى من كان صاديا
ففاض نمير الماء من بين بنانه وكان ضوءا للكتيبة كافيا
وكونه يوم الحديبية التى أفاض بها الله البنان سواقيا
وإشباعه الجم الغفير بقبضة من التمر حتى شاهدوا التمر باقيا
وإخباره بالشيء من قبل كونه فيأتى على النص الذى قال حاكيا

فــأخبــر ذا النورين أن ســتصــيبــه على الأمر بلوى تعقب الأجر وافيا
وأخـبـــر عـــمـــارا بأن حـيـــاته سيـقطعهـا بالبغـى من كان باغـيا
وقال لذى السـبطين أشقى الورى الذى سيخضبهـا من هامة الرأس عاصيا
يصادف نـور الشيب أبيض ناصـعا فيسـقيه صوب الحتف أحمـر قانيا
ونص على السبط الشـهيد بكر بلا فـقـام له الدين الحـنيـفى ناعـيـا
وفى الحـــــسن الـزاكى أبان بـأنه سـيـصلح بين الناس للأجـر ناويا
وقـــال لقـــوم إن آخـــركم بهـــا مماتا سيـصلى جاحم الجمر حـاميا
وقال إذا مـا مات كسرى فـما ترى سمـيا له أخـرى الليالى مـساميـا
وأخـبر عن مـوت النجاشى حـينه وبينهـمـا بحـر من الموج طامـيـا
وقـال على قـرب الحـمـــام لبنتـه تموتين بعـدى فـافـرحى بلقـائيـا
وآياته جـلت من العـــد كـــثـــرة فـمـا تبلغ الأقـوال مـنهـا تناهيـا
وأعظمـها الوحـى الذى خصــه به فـــبلغ عنه آمـــرا فـــيــــه ناهيـــا
تحـــدى به أهل البـــين بأســـرهم فكلهـم ألفـاه بـالعـجــز وانيـــا
وجـاء به وحـيـا صـريحـا يزيده مـرور الـليـالى جـدة وتعـالـيـا
تضم أحـكام الوجـــود بأســـرها وحكم القـضاء مـثبـتا فـيه نافـيا
وأخـبـر عـمـا كـان أو هو كـائن يرى مـاضيـا أو مـا يرى بعد آتيـا
ووافق أخـــبـار النبـــيـين كلهم وتمم بالـغـــابات منهـــا المبـــاديا
ومـا كـتبت يـمناه قط صـحيـفـة ولا رِئَ يومـا للصـحـــائف تاليـا

عليــه سـلام الله لا زال رائحــا عليــه مــدى الأيام منا وغــاديا

* * *

ولتكن هذه القصـيدة الفريدة النبوية، آخـر ما أوردناه فى روضة الورد، فقد طال الكلام واتسع وكـثر السرد، على أنَّ ما تركناه أكـثر مما جلبناه، وقد انثـالت علينا أشغـال شاغلة من خطـوب الدهر، والله يبلغنا من رضوانه مـا طلبناه.

ونسأل الله تعالى حسن الختام، وأن يدفع عن قلوبنا القتام، بجاه سيدنا ومولانا محمّد المصطفى خير الأنام ﷺ، الذى جعلنا مديحه مسك الختام.

* * *

انتهى الجزء الثانى

أهم مراجع التحقيق

- الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، طبعة الخانجى، القاهرة ٢٠٠١م.
- جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس للمكناسى، الرباط ١٩٧٣م.
- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب، دار الثقافة بيروت ١٩٦٣م.
- مقدمة ابن خلدون، طبعة بولاق ١٨٦٨ م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّرى، دار صادر بيروت ١٩٦٨م.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتى، طبعة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
وله الشكر عن هدية	١٤١
وله فى التذييل على بيتى ابن المعتز	١٤٢
وله فى التذييل على بيت ابن وكيع	١٤٢
ومما يرسم للغنى بالله	١٤٣
من مقطوعة	١٤٣
فى عيدية	١٤٤
فى وصف جيش	١٤٤
من قصيدة له ميمية	١٤٦
فى رثاء الغنى بالله	١٤٩
وله على لحد الغنى بالله	١٥٢
وفى رثاء الغنى بالله أيضًا	١٥٥
وله فى استعطاف السلطان أبى الحجاج	١٥٨
وله فى خطاب السلطان أبى عبد الله	١٥٨
ومن شعره فى أبى عبد الله	١٥٩
وله فى خطاب مولاه الوالد	١٦٠
مرثيته لأبى القاسم الحسنى	١٦٠
وله فى مدح شيخه ابن الخطيب	١٦٤
وله مما يخاطب به ابن الخطيب أيضًا	١٦٦
وله فى وصف مصباح	١٧٠
وله فى صدر رسالة إلى ابن الخطيب	١٧٠

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
آخر موشحاته وهى فى مدح الررسول ﷺ	٢٠٥
كلام ابن خلدون فى الموضحات والأزجال	٢٠٧
اعتذار المؤلف عن ذكره الأزجال	٢٢٧
موشحتان غير منسوبتين فى مدح الرسول	٢٢٧
موشحات لابن الصباغ الجذامى فى مدح الرسول أيضًا	٢٣٠
نظم للجذامى فى غير الموشحات	٢٤٧
ومن تخميسه	٢٤٩
من نظمة فى مدح النبى	٢٥١
لابن خاتمة من الموشحات	٢٥١
رجع	٢٥٥
بعض ما ورد من الأثر فى سبتة	٢٥٥
الخليفة الناصر وسبتة	٢٥٦
خلافة الناصر	٢٥٦
رسل ملك الروم إليه	٢٥٧
هدية ابن شهيد إلى الناصر	٢٥٩
الناصر وقد أراد الفصد يوما	٢٦٢
بناء الناصر جامع الزهراء	٢٦٣
بناؤه القناة	٢٦٣
تشييد الناصر مدينة الزهراء	٢٦٤
شىء عن عمران قرطبة	٢٦٩

الموضوع	الصفحة
احتـفال النـاصر لمقـدم ملك الروم وظهور البلوطى على سـائر الخطباء	٢٦٩
من خطبة للبلوطى	٢٧٣
بينه وبين الناصر فى التزهيد فى تنميق الغباء	٢٧٤
خطبة لمنذر فى الاستسقاء	٢٧٥
من خطبة له أخرى فى ذلك	٢٣٩
بعض أخباره مع الناصر وحديث القبيبة	٢٧٧
الناصر وأيام سروره	٢٧٨
اعتذار الناصـر لأولاد ابنه وما كان بينه وبين الفقـيه أبى إبراهيم لتخلفه	٢٧٨
بين الحكم والفقيه أبى إبراهيم	٢٨٠
بيعة الحكم المستنصر	٢٨٢
وفود أردون عليه وحديث ذلك	٢٨٤
شعر للمرادى فى هذا المقام	٢٨٩
شىء عن منذر ابن سعيد البلوطى	٢٩٠
بعض مأثور كلامه	٢٩١
نقد للونشريشى فى تشييع ابن الخطيب على الموثقين	٢٩٢
رجع إلى سبتة وما كان بين ابن خميس وبعض طلبتها	٢٩٣
التعريف بابن خميس ومقتله	٢٩٦
شعر صوفى لأبى مدين	٣٠٤

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
لأبى العباس العزفى فى مدح ابن الحكيم	٣٥٠
وله فى مدحه أيضًا	٣٥٠
كلام القاضى أبى حفص فى كتاب الإشادة	٣٥١
التعريف بالقاضى أبى حفص عمر السلمى	٣٥٣
شيوخه	٣٥٣
ولايته	٣٥٣
مولده ووفاته	٣٥٣
من شعره فى مدح أبى يعقوب يوسف	٣٥٤
هو وأبو العباس الجراوى	٣٥٦
للجراوى يهجو بنى غفجوم	٣٥٧
من شعر القاضى أبى حفص يمدح أمير الموحدين	٣٥٨
وله فى الغزل	٣٥٨
لابن شكيل فى مدح القاضى أبى حفص	٣٥٩
ثناء العلماء على القاضى أبى حفص	٣٦٣
من نظم القاضى أبى حفص	٣٦٦
بيت العزفيين أصحاب سبتة	٣٦٦
أبو القاسم العزفى	٣٦٦
بعض تآليف أبى القاسم العزفى	٣٦٧
نسبة العزفيين إلى لخم	٣٦٨
بعض فضائله وأشعاره	٣٦٩

الموضوع	الصفحة

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ _ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر _ القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة

E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

المكتبة المالكية

أزهار الرياض في أخبار عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني

(ت ١٠٤١هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور علي عمر

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١
فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com